تشارلز بوكوفسكي





16.5.2017

هوليود

رواية

ترجمة: عبد الكريم بدرخان

مسكيلياني

تشارلز بوكوفسكي



رواية

ترجمة: عبد الكريم بدرخان

مسكيلياني للنشر

ألف راء

| علامات في الرواية العالمية |

| سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي |



الكاتب: تشارلز بوكوفسكي

عنوان الكتاب: هوليوود

ترجمة: عبد الكريم بدرخان

تدقيق: زهير بوحولي

خط الغلاف: الفنان سمير قويعة

تصميم الغلاف: الشاعر محمد النبهان

الناشر: مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس ـ تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)

الإيميل: masciliana_yahoo.com

ر.د.م.ك: 978-9938-833-77-5

الطبعة الأولى: 2017

تم طبع هذا الكتاب باتفاق خاص مع

منشورات الجمل

إهداء المؤلف

إلى باربت شرودر

إهداء المترجم

إلى تشارلز بوكوفسكي

١

بعد يومين اتصل جون بينشو، قال إنه عازمٌ على البدء في مشروع السيناريو، وعلينا أنْ نذهب لزيارته؟ أخذنا منه العنوان، ركبنا سيارة الفولكس، واتجهنا إلى «مارينا ديل ري» حيث يقبع مكانه المجهول.

في الطريق مررنا بالميناء بمحاذاة رصيف القوارب، معظُمها قوارب صيدٍ يتسكعُ على سطحها بضعةُ رجالٍ بزيّ الصيادين وقبّعاتهم، وآخرون يجلسون تحت المظلات. أحسسْتُ بطريقةٍ ما أنهم يأخذون نقاهةً من كدحهم اليومي في سبيل الرزق، وفي الحقيقة لم يكونوا يوماً جادّين في عملهم هذا، ومايَنبغي أن يكونوا، وهذه نعمةٌ يتحلّى بها الرجالُ المختارون في أرض الحرية. بهذا الشكل، بدا هؤلاء الرجالُ سخيفين في نظري، وبالطبع لم أكنْ كذلك شيئاً يذكر في نظرهم.

انعطفنا نحو اليمين تاركين الميناء خلفنا، وأخذنا نقطع شوارع مرتبةً ترتيباً ألفبائياً، تحمل أسماءً فخمة. وجدنا الشارع المطلوب فانعطفنا إلى اليسار، ثم رقم البناء المطلوب فدخلنا إلى مربض السيارات. كانت الرمالُ تنسابُ من أمامنا، بينما يبدو المحيطُ قريباً من العين وبعيداً عن القلب، هنا يبدو الرملُ أنظف من بقية الرمال المنتشرة على طول الشاطئ، ويبدو المحيط أكثر زرقةً، والنسيمُ ألطف وأعذب.

قلتُ لسارة: انظري، ها نحن الآن نهبطُ في ملكوت الموت، روحي تتقيأ نفسها.

ـ هلاّ توقفتَ عن القلق المستمرّ إزاء روحك؟

لم يكنْ هناكَ داعٍ لأنْ أقفلَ سيارتي الفولكس، فأنا الوحيد في العالم الذي يستطيع تشغيل محرّكها.

وصلنا إلى الباب، قرعته.

فتح البابَ رجلٌ نحيلٌ أنيق مرهف، تكاد تشتمُّ رائحة الفنّ تعبقُ من جسده، وكأنه خُلقَ ليبدع، ليبدع أعمالاً رائعةً باستمرار، دون أن يزعجه شيءٌ في الحياة، لا وجعُ الأسنان، ولا اهتزازُ الثقة بالنفس، ولا قلّة الحظّ. كان واحداً ممّن تبدو عليهم هيبةُ العباقرة، بينما كنتُ أبدو مثل غاسل الأطباق، ولذلك أستاءُ قليلاً عندما أصادفُ رجلاً مثله.

قلتُ له: جئنا لكي نأخذ الملابس المتسخة إلى المغسلة.

تدخلتْ سارة: دعكَ منه، بينشو طلبَ منا الحضور.

قال الرجل الأنيق: حسناً، تفضّلا.

تبعناه، تبعنا الرجلَ ذا الوجنتين الصغيرتين كوجنتي الأرنب، ثم توقف في الداخل وقفةً سامقة، وتكلّم من فوق كتفه الأيسر وكأنّ العالم بأسره يستمع إلى تصريحه العظيم: أريدُ فودكا حالاً!

ثم انصرف إلى المطبخ.

قالت سارة: لقد حدّثَنا جون عنه في السهرة الماضية، إنه بول رينوار، مؤلف الأوبرات، وقد بدأ مؤخراً العملَ على شكلٍ جديد يُسمّى الفيلم الأوبرالي، إنه نابغةٌ في مجاله.

ـ قد يكون رجلاً عظيماً، لكني لا أريده أن يلعق شحمة أذني.

ـ لا تكنْ عدوانياً هكذا، لا يمكن للجميع أن يكونوا مثلك.

ـ أعرف، وهذه مشكلتهم.

ـ سرُّ قوّتك.. هو أنك تخاف من كل شيء.

ـ يا ليتني استطعتُ قولَ ما قلته.

عاد بول حاملاً شرابه، بدا لي مشروباً جيداً، فيه قليلٌ من الليمون، يحرّكه بول بعودٍ صغير، إنه كوكتيل فخم جداً.

سألته: بول، هل ثمة مشروب آخرُ في المطبخ؟

ـ اعذرني، اخدمْ نفسك بنفسك.

دخلتُ المطبخ مع سارة، كانت زجاجات الخمر في كل مكان، وبينما كنا نختار ما سنشرب؛ كرعتُ زجاجة بيرة. اقترحتْ سيدتي الطيبة: من الأفضل أن نبتعد عن المشروبات القوية، تعرف نفسك كيف تصبح حين تكثر منها.

ـ حسناً، فلنشربْ النبيذ.

وجدتُ فتّاحة قوارير النبيذ، اخترتُ زجاجةً فخمةً من النبيذ الأحمر، تناول كلٌّ منا جرعةً منها، ثم ملأنا كأسين وخرجنا.

في بعض الأحيان، كنت أعرّف بنفسي وبسارة على أننا «سكوت» و«زيلدا»(*)، لكنّ هذا يزعج سارة، فهي لا تحبّ الطريقة التي انتهتْ إليها زيلدا، وأنا لا أحبُّ كتابات سكوت، ولذلك تخلّينا عن موهبتنا الفكاهية هذه المرة.

كان بول رينوار واقفاً أمام النافذة الكبيرة، محدقاً في المحيط

(*) يقصد الكاتب الأمريكي سكوت فيتزجيرالد (١٨٩٦ ـ ١٩٤٠)، وزوجته الكاتبة زيلدا فيتزجيرالد (١٩٠٠ ـ ١٩٤٨). (م)

الهادي، ثم قال للنافذة الكبيرة والمحيط: لقد تأخّر جون، لكنه طلب مني أن أخبركما بأنه قادم، ويرجو أن تبقيا هنا.

ـ حسناً عزيزي.

جلسنا أنا وسارة والكؤوس، وأمامنا ذو الوجه الأرنبيّ، وهو يتأمل البحر مستغرقاً في التفكير. ثم قال: تشيناسكي، قرأتُ كثيراً من أعمالك، إنها فظيعة، أنت مبدع حقاً.

ـ شكراً، لكننا نعرف من هو المبدع الأكبر، أنت يا عزيزي.

تابع وهو ينظر إلى البحر: شكراً، غايةُ اللطافة أن تدرك ذلك.

فُتح البابُ ودخلتْ فتاةٌ شابةٌ ذاتُ شعر أسود طويل، دخلتْ دون أن تطرق الباب، ثم تمدّدتْ على الأريكة بكامل طولها مثل قطّة كسلى. قالت: «أنا بوببيي» مستخدمةً أربعة حروف باء.

عادتْ إليّ تلك الحالة: نحن سكوت وزيلدا.

ردّتْ سارة: أوقفْ هذا الهراء.

ـ لكنها الأسماء التي تليقُ بنا. ثم أزاح بول نظره عن البحر وقال: بوبي من أنصار السيناريو الذي كتبتَه.

ـ لكني لم أكتبْ كلمة واحدة.

ـ سوف تكتب.

رفعتُ كأسي الفارغة وطلبتُ من سارة ملأها، سارة لطيفة جداً، وقفتْ فوراً حين رفعتُ الكأس، فهي تعرف أني إذا دخلتُ إلى المطبخ سوف أشرب عدة زجاجات، وبعدها سأتحوّل إلى رجل فظّ ووقح.

علِمْتُ لاحقاً أن لـ بوبي اسماً آخر هو «الأميرة البرازيلية»، وأنها كممثلة مبتدئة قبضتْ عشرة آلاف دولار، ليس كثيراً عليها، فقد دفعتْ

قسماً منه لأجرة المنزل والباقي على المشروبات. كانت الأميرةُ تنظر إليّ من وضعيّتها القططيّة على الأريكة حين قالت: قرأتُ كتاباتك، أنتَ مُسلٍ حقاً.

ـ شكراً.

ثم نظرتُ إلى بول: هل سمعتَ يا عزيزي، أنا مُسلٍّ!

ـ تستحقّ، فمكانتكَ لا ريبَ فيها.

انصرف بول إلى المطبخ بينما كانت سارة عائدةً منه، وهي تحمل كؤوسنا المترعة، جلستْ قربي وأخذنا نشرب.

الفكرة التي راودتْني حينها، هي أن أحتال عليهم بقصّة كتابة السيناريو، لأجلس في «مارينا ديل ري» وأتجرّع الكحول لعدة أشهر. وقبل أن أتمتّع بمذاق هذه الفكرة، فُتحَ البابُ بقوةٍ، ودخل جون بينشو: ها قد أتيت؟

ـ نعم.

ـ أرى هنا من تؤيّد فكرتي، كل ما عليكَ هو أن تكتب.

ـ قد يستغرق ذلك شهوراً.

ـ طبعاً.

عاد بول حاملاً شراباً غريباًورديّ اللون وقدّمه للأميرة، بينما راح جون ليحضر له شراباً.

كان اللقاء الأول من بين لقاءات كثيرة، الذي يتحوّل إلى مسابقةٍ في المشروبات الثقيلة، خاصةً بالنسبة إليّ. أحسستُ الشربَ ضرورياً لتعزيز ثقتي بنفسي، فأنا ضليعٌ بكتابة الشعر والقصة القصيرة، أما كتابة

السيناريو فتبدو أمراً سخيفاً كلّياً بالنسبة إليّ، رغمَ أنّ كتّاباً كباراً وقعوا في فخّ حماقاتٍ كهذه.

جاء جون مع قدحه وجلس معنا.

كانت سهرة طويلةً تحدثنا فيها عن أشياء كثيرة لا أذكرها. وفي نهاية السهرة كنا ثمِلَينِ أنا وسارة لدرجةٍ لا نستطيعُ فيها قيادة السيارة، فعرضَ جون غرفة نوم علينا. يا لَها من غرفة نوم! في عتمتها سكبنا كأس النبيذ الأخيرة، وسألتْني سارة: هل سوف تكتب سيناريو؟

ـ طبعاً لا.

٢

جاء الاتصال التالي من جون بينشو بعد ثلاثة أيام أو أربعة، كان جون صديقاً لـ داني سيرفر، المخرج الشاب والمنتج الذي يملك صالة لعرض الأفلام في فينيس، وقد طلب جون استعارة الصالة لنشاهد فيها فيلماً وثائقياً من إخراجه بعنوان «الوحش الضاحك»، يتحدث الفيلم عن حاكم أسود يتّسمُ حكمه بالتعطّش للدماء. اتفقنا على أن نلتقي عند بينشو لنشرب قليلاً، وهكذا عدنا إلى بيته في «سيلبوت لين».

فتحَ جون الباب ودخلتْ سارة، لم يكن جون وحيداً، أحدُ أصدقائه كان واقفاً في الداخل، رأسُه غريبُ الشكل بسبب شعره، فشعرُه يبدو أبيضَ وأشقرَ في الوقت نفسه. بينما وجهُه ورديُّ اللون مائلٌ إلى الحمرة، أما عيناه فزرقاوان مدوّرتان، مدوّرتان جداً وزرقاوان جداً. وعلى مُحيّاهُ دهشةُ الطفل عندما يلعبُ لعبةً خطرة، هذه الدهشةُ لا تفارقه، لكنه ظريفٌ ويدخلُ القلب فوراً. قال جون: هذا فرانسوا راسين، لقد مثّلَ في عديدٍ من أفلامي، وفي أفلام الآخرين أيضاً.

- في أفلام الآخرين.. يدفعون لي!

ذهب جون لإحضار الشراب، فقال فرانسوا: أرجو أن تعذراني، سوف أنهي عملي بعد دقيقة.

على طاولة فرانسوا؛ يوجد قرص الروليت المستخدم في لعب

القمار، لكنه قرص الكتروني يدور ويتوقف عن الدوران بكبسة زرّ، وكان بجواره كومةٌ من أحجار اللعب، وورقة كبيرة مليئة بالحسابات الرياضية، ولوح المراهنات. وزّع فرانسوا أحجار اللعب، ضغط على زر التشغيل، وقال: هذه سيدتي ذاتُ الرأس الدوّار، هذه عشيقتي!

عاد جون حاملاً الكؤوس، وأوضح لنا: عندما لا يلعبُ فرانسوا القمار، فإنه يتدرّب على اللعب، أو على الأقل يفكّر فيه.

توقف قرص الروليت، ألقى فرانسوا نظرةً خاطفةً على النتيجة، وقال: لقد درستُ كلَّ احتمالات القرص أثناء دورانه، ونجحت! فلا يهمني أين يتوقف، أنا أخمّن وأفوز.

أضاف جون: طرائقه الحسابية غالباً ما تنجح، لكنه حين يذهب إلى الكازينو، يفقد شيئاً من براعته.

فسّر فرانسوا: غالباً ما أُهزمُ أمام إرادة الموت!

تدخّلت سارة: هانك يقامر أيضاً، يراهن على أحصنة السبق، فيكون دائماً حيث تعدو الخيول.

قال فرانسوا: الرهان على الأحصنة؟ وهل تفوز؟

- أحبّ أن أقول ذلك.

- سنذهب معاً إذن.

- بالتأكيد.

عاد فرانسوا إلى قرص الروليت بينما جلسنا نشرب، قال جون: لقد ربحَ فرانسوا وخسر مئات الآلاف وهو لا يذهب إلى عمله بصفته ممثلا إلا عندما يكون مفلساً إلى درجة الموت.

قلتُ: سلوكٌ منطقي.

ـ بالمناسبة، تحدثتُ مع المنتج هارولد فيزانت، ويبدو مهتماً جداً بالسيناريو، وجاهزاً لتحويله إلى فيلم.

قالت سارة: هارولد فيزانت! لقد سمعتُ الكثير عنه، إنه واحد من أكبر المنتجين في عالم السينما.

ردّ جون: هذا صحيح.

اعترضتُ: لكني لم أكتب السيناريو!

ـ لا مشكلة، فهو يعرف مستوى كتاباتك، وجاهز للعمل.

ـ هذا غير معقول!

ـ غالباً ما يعملُ فيزانت بهذه الطريقة، ودائماً يحصد المال.

ذهب جون ليحضر زجاجة، فحدثتني سارة: ربما صار عليك أن تكتب سيناريو فعلاً.

ـ انظري ماذا فعلتْ كتابة السيناريو بـ سكوت فيتزجيرالد.

ـ لكنك لست فيتزجيرالد.

ـ بلى، لكنه أقلع عن الشرب، وهذا ما قتله.

ما زال فرانسوا جالساً أمام قرص الروليت، حين عاد جون حاملاً الزجاجة وقال: لنشربْ هذه ونمضي.

ـ حسناً.

ـ اسمعْ فرانسوا، هل أنت ذاهبٌ معنا؟

ـ لا، اعذرني أرجوك، عليَّ أن أتابع أبحاثي هنا.

٣

كانت صالة العرض جميلةً ومجاورةً لحانةٍ كبيرةٍ ولائقة، في الحانة نادلٌ، وفي القاعة جهازُ العرض السينمائي، لكنّ داني سيرفر لم يكن حاضراً.

في الحانة قرابةُ سبعة أشخاص أو ثمانية، لكني لم أعرف واحداً منهم. طلبتُ الفودكا بينما راحتْ سارة تشربُ شيئاً أرجوانيّ اللون أو أخضر، أو هو أرجوانيٌّ مُخضرّ. أما جون فبقيَ في الأعلى ليضبطَ إعدادات جهاز العرض.

ثمة رجلٌ في طرف الحانة يحدّق فيّ، يُمعنُ في التحديق، وفي النهاية نظرتُ إليه وقلت: ماذا تفعل؟!

صمتَ لدقيقةٍ، ارتشفَ من كوبه، ثم عاود النظر إليّ قائلاً: احمرّتْ أصابعُ قدميّ وأنا واقفٌ لأقول لكَ إني أعملُ في صناعة الأفلام!

اكتشفتُ لاحقاً أنه فينر زيرغوغ، صانعُ الأفلام الألماني القدير. كان مجنوناً نوعاً ما، فعندما يُنهي عمله يستغلُّ الوقتَ ليقوم بأشياء مجنونة مع نفسه ومع الآخرين. قلتُ له: من الأفضل أن تفعل شيئاً ذا قيمة!

ـ أعلم، لكني لا أجدُ شيئاً ذا قيمة!

ثم دخل جون قائلاً: «تعالوا، سنبدأ العرض». تبعناهُ أنا وسارة إلى

صالة العرض، وكذلك بعضُ روّاد الحانة بمن فيهم فينر والسيدة التي ترافقه.

أثناء جلوسنا أخبرنا جون أن فينر زيرغوغ كان في الحانة الأسبوع الماضي، وهناك تشاجر مع زوجته مُستخدِمَين المسدّسات، أفرغَ كلٌّ منهما مخزنَ مسدّسه، لكنّ أياً منهما لم يستطعْ إصابة الآخر. قلتُ لجون: آملُ أنْ يكون حظه في صناعة الأفلام أفضل.

ـ هو كذلك.

أطفئت الأنوارُ في صالة العرض، وظهرَ عنوان الفيلم على الشاشة: «الوحش الضاحك».

كان ليدو مامين رجلاً ضخماً بالحجم والطموح، لكنه يحكم بلداً صغيراً وفقيراً، وكان يجيدُ اللعب مع الدول الكبرى، فتراهُ يرمي أوراقه يميناً ويساراً، يتحالف مع معسكرٍ ثم يتحالف مع المعسكر المعادي له، فالمهمّ أن يكسب المال والطعام والسلاح. في الحقيقة كان يريد أن يحكم العالم. هذا الوغدُ الدمويّ يتحلّى بحسٍّ فكاهيّ مدهش، لقد أدركَ تمام الإدراك أن الحياة بكاملها لا تساوي شيئاً، ولا تستحقّ سوى السخرية منها. في بلد مامين؛ كان أيّ فردٍ تشكُّ فيه السلطاتُ مجرّد شك؛ يُعدمُ فوراً وتُرمى جثته في النهر، النهر الذي يطفو على سطحه عددٌ كبير من الجثث، وتنتفخُ التماسيحُ على ضفافه من كثرة الأكل.

كان مامين يعشقُ الظهور أمام الكاميرا، فقد صوّره بينشو يعقد اجتماعاً فقط ليجلس أمام الكاميرا، بينما كان أتباعه يرتجفون أمامه وهو يطرح عليهم الأسئلة، أو يُلقى الخطبَ السياسية. الغريب أنه يضحك دائماً، كاشفاً عن أسنانه الصفراء الضخمة. وحينما لا يقتل أحداً أو يأمر

بقتل أحد، فإنه يمارس الجنس، لديه أكثر من اثنتي عشرة زوجةً، وأبناءً لا يعرف عددهم.

أثناء اجتماعه في المجلس، توقف مامين عن توزيع الابتسامات، وصار وجهُهُ إرادةَ الله على الأرض، طالما أنه قادرٌ على فعل ما يريد. كان يحسُّ بالرعب المتفشّي في قلوب أتباعه، مستمتعاً بهذا الرعب ومستفيداً منه.

انتهى اجتماع المجلس دون أنْ يُقتلَ أحدٌ، ثم دعا إلى اجتماع يضمُّ كافة الأطباء في البلاد.

جمع مامين الأطباء في المشفى المركزي، في غرفة العمليات الكبرى جلس الأطباء على كراسٍ متحلّقةٍ حوله، بينما وقف مامين في منتصف الغرفة ليتحدث: «أنتم أطباء، لكنكم لا شيءَ حتى أقول لكم أنا إنكم شيءٌ ما. تظنّون أنكم تعرفون حقائق مؤكدة، لكنها مجرّد أوهام. جميعكم تعلّمتم في مدرسة صغيرة، فليكنْ هذا العلم لمصلحة بلدكم لا لمصالحكم الشخصية. نحن نعيش على أرضٍ... آخرُ من يبقى حيّاً عليها، يثبتُ أنه كان على صواب. سأعلّمكم كيف تستخدمون أدواتكم الجراحية وحيواتكم. أرجو ألاّ تكونوا حمقى وتسيروا عكسَ رغباتي، فلا أريدُ أن أضيّع تعليمكم وجماجمكم سُدى. تذكّروا دائماً أنكم لا تعرفون سوى ما درستموه، لكنني أعرف أكثر مما في كتب الدراسة. عليكمْ دائماً أن تُنفّذوا ما أقوله، أريد أن تدركوا هذا جيداً، هل تفهمون؟»

عمّ الصمتُ، بينما تابع مامين: «هل يوجد من يحلم بأن يعارض الكلام الذي قلته؟»

عمّ صمتٌ أعمق.

كان مامين دميةً، دميةً متوحشة، بطريقة ما قد تعجبك قسوته وأسلوبه الرهيب، طالما أنك لا تشاهد عمليات القتل والتعذيب بأمّ عينيك.

في المشهد التالي كان مامين يستعرض قواته الجوية، في الحقيقة لم تكن لديه قوات جوية، عنده طيّارون وبزّاتٌ للطيران فقط. قال مامين: «هذه هي قواتنا الجوية».

جاء الطيار الأول راكضاً بمحاذاة المنصة الطويلة، راكضاً بسرعة كبيرة، وعندما وصل إلى نهاية المنصّة قفز في الهواء، رفرفَ بذراعيه، ثم هبط. بعده جاء الطيار الثاني، كرّر الحركة ذاتها، ثم الطيار الثالث والرابع... كانوا قرابة خمسة عشر طياراً، وكلما قفز واحدٌ منهم كانَ يطلقُ صيحةً في الهواء، بينما ترتسمُ علامات الفرح والابتهاج على وجوه الحاضرين. يعتريك شعورٌ غريبٌ وأنتَ تشاهدهم، فالكلّ يضحكون! لكن على ماذا؟ على سخافة الاستعراض؟ على هذه الحماقة المقتنعين بها؟!

بعد آخر طلعةٍ جويةٍ وهبوط الطيار بسلام، وقف مامين أمام الكاميرا: «قد يبدو ذلك حماقةً، إلا أنه مهم جداً، ما فعلناه لم يكن حقيقياً، لكننا نملك الروح لتحقيقه. يوماً ما ستكون لدينا قوات جوية، ومن الآن إلى ذلك الحين، لن نجلس عابسين تحت ظلال اليأس. شكراً لكم جميعاً».

المشهد التالي كان تصويراً داخلياً لحجرات التعذيب، كانت الحجرات فارغةً إلا من السلاسل والفضلات البشرية والدماء العالقة على الجدران. قال مامين: «هنا يعترف الخونة والكذّابون، ويقولون الحقيقة».

في المشهد الأخير، كان مامين في حديقة واسعة محاطاً بعدد من حرّاسه الشخصيين، وزوجاته وأبنائه جميعاً، لم يكن الأطفال يبتسمون أو يقفزون، بينما كانت الزوجات يبتسمنَ وبعضُهنّ يحملنَ أطفالهنّ. ابتسم ليدو مامين مكشّراً عن أسنانه الصفراء الضخمة، بدا شخصاً ودوداً، وربما محبوباً.

آخر لقطات الفيلم كانت لنهر التماسيح البدينة، تماسيحُ تسبحُ ببلادةٍ وتثاقل، وعيونُها تتحرك ببطء، بينما تطفو جثثُ القتلى على سطح الماء. النهاية!

لقد كان فيلماً وثائقياً خلاباً، وكنتُ سعيداً عندما أخبرتُ بينشو بذلك، فأجاب: نعم! أحبّ الرجال غريبي الأطوار، ولهذا اخترتكَ أنت.

ـ إنه شرف عظيم لي أن أكون مثل ليدو مامين.

ـ صحيح.

قالها، ثم غادرنا عائدين إلى منزله.

٤

حين وصلنا إلى المنزل، كان فرانسوا راسين منكبّاً على قرص الروليت الدوّار، من الواضح أنه شرب كمية كبيرة من النبيذ، إذ بدا وجهُه محمرّاً كلياً. وكانت أمامَه كومةٌ ضخمة من أحجار اللعب، وقضيبٌ من الرماد على وشك السقوط من طرف سيجاره المشتعل، سقطَ على الطاولة. ثم قال: لقد ربحتُ مليوناً وأربعمائة وخمسين ألف دولار.

توقفت الكرةُ الصغيرة عند رقم ما، نظر فرانسوا إلى أحجار اللعب: هذا يكفي، لا ينبغي أنْ أكون طمّاعاً.

مشينا إلى غرفة الجلوس وجلسنا، ذهبَ جون ليحضر الزجاجة والكؤوس، بينما سألتْ سارة فرانسوا: ماذا ستفعل بكلّ هذه الأموال التي جنيتها؟

ـ سوف أهبُها للناس، إنها لا شيء، الحياة لا تساوي شيئاً، والمال ـ من ضمنها ـ لا يساوي شيئاً.

قلتُ له: المال مثل الجنس، يبدو مهماً جداً عندما لا تملك شيئاً منه.

ـ تتحدّث بلغة الكتّاب!

عاد جون، فتح الزجاجة الأولى، وصبَّ كؤوساً للجميع. قال لي فرانسوا: عليكَ أن تذهب إلى باريس، لديك مكانة مرموقة هناك، بينما تعاملُك بلادُك وكأنكَ شحّاذ.

ـ هل توجد حلبة لسباق الخيل هناك؟

ـ طبعاً.

قالت سارة: إنه يكره السفر، كما توجد حلبات سباق هنا.

ردّ فرانسوا: لا مكان في العالم مثل باريس، حين تأتي إلى باريس سوف نذهب معاً إلى حلبة السباق.

ـ سحقاً! عليّ أن أكتب ذلك السيناريو.

ـ نراهن على أحصنة السبق في النهار، ونكتب السيناريو في الليل.

ـ دعني أحسبها جيداً.

أشعل جون سيجاراً، كما وجد فرانسوا سيجاراً جديداً وأشعله، كان السيجاران طويلين وملتفّين ويصدران صوت هسيسٍ من طرفيهما المشتعلين. قال جون: ذهبتُ مع فرانسوا الليلة الماضية إلى لاس فيغاس.

سألتْ سارة: وماذا فعلتُما هناك؟

تناول فرانسوا جرعةً كبيرة من النبيذ، استنشق سيجاره بعمق، أطلقَ زفرةً طويلةً شكّلتْ ريشةً سحريةً من الدخان. وقال: اسمعي، أصغي إليّ، كنتُ متقدماً على منافسي بخمسة آلاف دولار، كنتُ مسيطراً على العالم، ممسكاً القدر بأصابعي مثلما أمسك ولاعة السجائر، أعرف كل شيء، أنا كل شيء، لا شيء يمكنه إيقافي، القاراتُ الخمسُ ترتجف

تحتي. ثم جاء جون، ربتَ على كتفي وقال: «لنذهبْ لمشاهدة تاب جونز»، سألته: «من تاب جونز هذا؟»، فقال: «لا يهمّ،لنذهبْ ونرهْ».

أنهى فرانسوا كأس النبيذ، فسكب له جون من جديد، وتابع فرانسوا كلامه:

ذهبنا إلى القاعة المجاورة حيث تاب جونز، كان يغنّي بقميصٍ مفتوحٍ مُظهراً الشعيرات السوداء على صدره، شعيرات متعرّقة، وكان يعلّق صليباً فضياً كبيرا فوق تلك الشعيرات المتعرّقة. فمُهُ مثلُ الحفرة العميقة التي تكون في منتصف قالب الكعك، يرتدي بنطالاً ضيقاً جداً، وقضيباً اصطناعياً أيضاً. كان يمسك خصيتيه ويغنّي متحدثاً عن الأشياء الرائعة التي يستطيع فعلها للنساء، لكنه مزيّف، ويستحقّ أن يلعقَ مؤخرةً ما. كدتُ أتقيأ وأنا أستمع لغنائه، خاصةً بعد أن دفعنا ذلك المبلغ لندخل، وعندما تدفع مالاً لتشاهد كابوساً؛ فأنتَ أبله بامتياز! من تاب جونز هذا؟ كيف يدفع الناسُ الأموال لمشاهدة شخصٍ يضع قضيباً اصطناعياً، ويمسك خصيتيه لتتراقص الأضواء على صليبه البرّاق؟! الرجالُ الأفاضل يتضوّرون جوعاً في الطرقات، وهنا مجرّد أبله! ويعبده الناس! النساءُ يصرخنَ! يحسبنه شيئاً حقيقياً! لكنه رجلٌ من ورقٍ لا يساوي شيئاً في أقصى أحلامه. قلتُ لجون: «أرجوك دعنا نذهب، رأسي يكاد ينفجر، إني متعبٌ على وشك الإغماء». فقال: «انتظر، ربما يتحسّن أداؤه». لكنه لم يتحسّن، بل ازداد رداءةً، وازداد صوته زعيقاً وقميصه انفتاحاً حتى رأينا سُرّته. إحدى النساء كانت تنوح بجواري، وتمدّ يدها داخل بنطالها، سألتها: «سيدتي هل أضعتِ شيئاً؟»... كانت سُرّته مثل عينٍ ميتة، كانت متسخةً، حتى الطائر يأنفُ أن يرمي برازه فيها.

ثم استدار هذا الشيء المدعو تاب جونز، وكشف عن أردافه! يمكنني أن أرى أردافاً في أي وقت، ولا أريد ذلك أصلاً، وهنا دفعنا نقوداً لنشاهد ردفيه البدينين القبيحين! تعلمون؟ مررتُ بأوقاتٍ عصيبةٍ في حياتي، فمثلاً تعرّضتُ للضرب من رجال الشرطة دون سبب، غالباً دون سبب، لكني برؤية ردفيه البليدين شعرتُ بسوءٍ أكبر من شعوري حين ضربني الشرطيُّ دون سبب. قلتُ لجون: «علينا أن نرحل، أو تنتهي حياتي هنا». ابتسم جون: «حسناً فلنذهبْ، أردتُ فقط أن أرى تاب جونز».

وصل فرانسوا إلى حالة من الحنق الشديد، بدأتْ قطراتٌ بيضاء صغيرة تتشكل على جانبي فمه، ورذاذٌ من اللُعاب يتطاير أثناء كلامه، بينما تبلّل طرف سيجارته تماماً. وتابع:

تاب جونز! من تاب جونز هذا؟ ما شأني بـ تاب جونز؟! تاب جونز مجرّد أبله! كنتُ متقدماً بخمسة آلاف دولار.. وماذا فعلنا؟ ذهبنا لمشاهدة تاب جونز! من تاب جونز هذا؟ لا أعرف أحداً اسمه تاب جونز، اسم أخي ليس تاب جونز، ولا حتى اسم أمي! تاب جونز هذا مجرّد أحمق!

قال جون: لكنا عدنا إلى قرص الروليت.

فقال فرانسوا: كنتُ متقدماً بخمسة آلاف دولار، ثم ذهبنا لمشاهدة ذلك القضيب الاصطناعي الميّت وهو يغنّي، فقدتُ التركيز تماماً، من تاب جونز هذا؟ كان من الأحسن أن أشاهد أناساً ينظّفون براز النوارس على الشاطئ، بدلاً من تاب جونز. أدرتُ قرصَ الروليت فبدا غريباً عني، كنتُ مثلَ طفلٍ مرميّ في برميل مليء بالرُتّيلات، ما هذي الأرقام التي أراها؟ ما هذي الألوان؟ بدتِ الكرةُ البيضاءُ الصغيرةُ وكأنها تقفزُ

من مكانها لتنغرز في قلبي، ثم تلتهمني من الداخل. لم تكن لديّ أدنى فرصة للربح، فقدتُ التركيز تماماً. قضيبٌ اصطناعيّ يفتخر بنفسه بينما يصرخ الجمهور مطالباً بالمزيد، أصبتُ بالدُوَار بعد أنْ كنتُ أحملُ كومة من أحجار اللعب، وأكادُ أرى جمجمتي تبرقُ من تحت قبعتي. من تاب جونز هذا؟ لقد خسرتُ! لم أكن أعرف أين أنا، عندما تفقد تركيزك تبدأ الخسارات، سقوطٌ لا صعودَ بعده. وحين عرفتُ بأن الحظّ يخالفني، رميتُ أحجاري كاملةً، قمتُ بجميع الحركات الخاطئة، وكأنّ عدوّي واقفٌ مكاني ويتحكّم بعقلي. ولِمَ حدثَ ذلك؟ لأننا ذهبنا لمشاهدة تاب جونز! أسألكم لآخر مرة: من تاب جونز اللعين هذا؟!

أنهى فرانسوا كلامه متعباً، سقطَ سيجارهُ من بين شفتيه، التقطتْهُ سارة ووضعته في منفضة السجائر. سحبَ فرانسوا سيجاراً جديداً من جيب قميصه، أخرجه من علبته الفضية، لعقهُ بلسانه وأدارهُ بين أصابعه ثم غرزه في فمه. استجمعَ كاملَ قواه ثم أشعلَه بأناقةٍ مذهلة، مدّ يده إلى الزجاجة وسكبَ كؤوساً للجميع، وقف منتصباً، ابتسم وقال: اللعنة! ربما كنتُ سأخسرُ في جميع الأحوال، لكنّ المقامر الذي لا يجدُ عذراً لنفسه، لا يستطيع الاستمرار.

قلتُ له: تتحدّث بلغة الكتّاب!

- لو أستطيع الكتابة مثلهم، لكنتُ كتبتُ السيناريو لأجلك.

- شكراً.

- كم سيدفعون لك؟

- (لوّحتُ بيدي في الهواء مُعطياً جواباً ضبابياً).

- سوف أكتبه لأجلك، ونتقاسم أجرة كتابته مناصفةً، ما رأيك؟

- ممتاز!

تدخّل جون: أستطيع التميز بين كتابتك وكتابته.

فقال فرانسوا: حسناً، اطلُبْ من تاب جونز أن يكتبه بقضيبه الاصطناعي!

وافقنا جميعاً على هذا الاقتراح، رفعنا الكؤوس لنشرب نخباً، وكان ذلك بدايةً لسهرة رائعة.

٥

كنتُ جالساً قُبالة البار في موسّو، بينما كانت سارة في غرفة السيّدات. أحبُّ هذي الحانة في موسّو، إنها كما ينبغي للحانة أنْ تكون، تسمّى اليوم «الصالة الجديدة»، فالصالة القديمة تقع في الطرف الثاني، وكنتُ أختارُ الذهاب إليها لتناول الطعام، فهي أكثرُ عتمةً وهدوءً. في الأيام الخوالي كنتُ أرتادُ الصالة القديمة لآكل، لكني لم آكل يوماً، كنتُ أحدّقُ في قائمة المأكولات وأجيبُ: «ليس الآن!» ثم أتابع طلبَ المشروبات. من اللواتي كنَّ يجئنَ معي إلى هنا؛ أذكرُ سيدةً سيئة السمعة، كلما بدأنا الشربَ وأدرنا الكؤوس ندخل في نقاشاتٍ حادة، يتخلّلها تكسير كؤوسٍ وسفكُ نبيذ، واستحضارُ كؤوس جديدة. غالباً ما كنتُ أعطي السيدات أجرةَ سيارة التاكسي، وأطلبُ منهنّ أن يتركنني لأشربَ وحدي، وأشكُّ بأنهنّ ينفقنَ المالَ كأجرةِ تاكسي. لكنّ ألطف ما في الحانة؛ أني عندما أرتادها ـ حتى بعد أن قاموا بتخريبها ـ يرحّبُ الجميعُ بي بابتساماتٍ حارة، غريب!

على كل حال، كنتُ جالساً قبالة البار في الصالة الجديدة الممتلئة، معظمهم سيّاحٌ ثرثارون، يهزّون رؤوسهم ويبثّون أشعة الموت في المكان. طلبتُ كأساً جديدة، وإذا بشخصٍ يربت على كتفي: تشيناسكي كيف حالك؟

التفتُّ ونظرتُ لكني لم أعرف أحداً من الموجودين، فقد ألتقي بكَ في الليلةِ الماضية ولا أعرفك في اليوم التالي، حتى لو استخرجوا أمي من قبرها لما عرفتُها. أجبتُه: أنا بخير، هل تريد شراباً؟

ـ لا شكراً، لم نلتقِ من قبل، أنا هارولد فيزانت.

ـ أووو... أخبرني جون أنك كنتَ تفكّر بـ....

ـ نعم أريد تمويل السيناريو، قرأتُ أعمالك، لديكَ أسلوبٌ مدهشٌ في الحوار، قرأتُ كتبكَ، وهي مناسبة جداً للسينما.

ـ متأكد أنك لا تريد أن تشرب؟

ـ لا، عليّ أن أعود إلى طاولتي.

ـ حسناً، ما آخر أعمالك يا فيزانت؟

ـ مؤخراً أنتجتُ فيلماً عن حياة ماك ديرواك.

ـ ما اسمُ الفيلم؟

ـ أغنية القلب.

ـ (رشفتُ من كأسي) لحظة، أنتَ تمزح، لن تسمي الفيلم «أغنية القلب»؟

ـ بلى، هذا العنوان الذي اخترته (مبتسماً).

ـ لا تضحكْ عليّ يا فيزانت، أنت كثير المزاح، أغنية القلب؟ يا إلهي! ما هذا؟

ـ أنا جادّ في كلامي.

وفجأةً استدار وسار بعيداً.

عادت سارة ونظرت إليّ: علامَ تضحك؟

ـ دعيني أطلب لك كأساً ثم أخبرك.

ذهبتُ لعند النادل، وأحضرتُ كأساً لي أيضاً، قالت سارة: احزرْ من رأيتُ في الصالة القديمة؟

ـ من؟

ـ جوناثان وينتر.

ـ حسناً، احزري مع من كنتُ أتحدثُ في غيابكِ؟

ـ مع إحدى عاهراتكَ السابقات؟

ـ لا، أسوأ من ذلك.

ـ لا شيء أسوأ منهنّ.

ـ تحدثتُ مع هارولد فيزانت.

ـ المنتج؟

ـ نعم، إنه هناك على الطاولة التي في الزاوية.

ـ نعم، رأيته.

ـ لا، لا تنظري إليه ولا تلوّحي بيدك، اشربي كأسكِ ريثما أشرب كأسي.

ـ ماذا حدث لك؟

ـ كما ترين، إنه المنتج الذي يريد إنتاج السيناريو الذي لم أكتبه بعد.

ـ أعلم.

ـ حين كنتِ هناك، جاء إليّ ليحدثني.

ـ قلتَ لي ذلك.

ـ لم يرغبْ حتى في شربِ كأس.

ـ نعم، وقد أفسدتَ كلَّ شيء، مع أنك لستَ ثملاً بعد.

ـ انتظري، كان يحدثني عن الفيلم الذي أنتجه مؤخراً.

ـ وكيف أفسدتَ اللقاء؟

ـ لستُ أنا، هو من أفسدَ اللقاء.

ـ طبعاً، أخبرني...

نظرتُ إلى المرآة، أحببتُ شكلي لكني لم أحبَّ شكلي المنعكس في المرآة، فلم أبدُ يوماً هكذا. أنهيتُ الشراب وقلتُ لسارة: اشربي كأسك.

ـ أخبرني، ما الذي حدث؟

ـ هذه المرة الثانية التي تقولين فيها «أخبرني».

ـ ذاكرتكَ مدهشة، مع أنك لم تسكرْ بعد.

طلبتُ من النادل أن يأتي بشرابٍ جديد، وقلتُ: حسناً، جاء فيزانت إليّ وحدّثني عن الفيلم الذي أنتجه، الفيلم عن حياة كاتب لا يُجيد الكتابة، لكنه مشهورٌ لأنه يشبه مروّض الأحصنة في السيرك.

ـ من هو؟

ـ ماك ديرواك.

ـ وهذا ما أزعجك؟

ـ لا، لا بأس بذلك، كانت الأمور على ما يرام إلى أن أخبرني باسم الفيلم.

ـ وما اسمه؟

ـ أرجوك، إني أحاول طرده من دماغي، إن مجرّد النطقِ به يعتبرُ حماقةً.

ـ أخبرني!

ـ حسناً... (ما زالت المرآةُ اللعينةُ أمامي)...

ـ أخبرني، أخبرني، أخبرني...

ـ حسناً، اسمه «الذبابات المتجوّلة ذات الفراء»!

ـ أعجبني الاسم.

ـ لكنه لم يعجبني، وأخبرته بذلك، وحينها تركني وذهب، وهكذا خسرنا الداعم الوحيد لنا.

ـ عليكَ أن تذهب إليه لتعتذر منه.

ـ مستحيل، فالاسم فظيع جداً.

ـ أو لأنك تريد أن يكون فيلمه عنك أنت.

ـ صحيح، ولهذا سأكتب السيناريو عني.

ـ هل وجدتَ عنواناً له؟

ـ نعم، «الذبابات أثناء تجوالها بالفراء»!

ـ فلنذهبْ من هنا.

وهكذا خرجنا.

٦

كنا ذاهبين للقاء بينشو في بهو فندق «بفرلي هيلز شيشاير» عند الساعة الثانية عصراً، ما يعني ذلك أني سأتغيّب يوماً عن حلبة سباق الخيل، وهذا ما أزعجني، لكن جون أصرَّ على اللقاء. في الفندق سنلتقي بشخص قادر على جلب التمويل للأفلام، هذا الرجل المسمّى جان بول سانرا لا يملك مالاً فعلياً، لكنّ ذلك لا يهمّ، يقولون إنه يستطيع أن ينحت تمثالاً في حديقة عامة، فتبدأ النقود بالانسكاب من عضو التمثال. عظيم! كان الموعد في الجناح رقم ٥٣٠ من الفندق، الذي بدا لي مكاناً مناسباً للتخلّص من السيناريو.

وكذلك سنلتقي جون لوك مودار في الجناح رقم ٥٣٠، وهو مخرج سينمائي فرنسي، أخبرني جون أنه معجبٌ كثيراً بكتاباتي، رائع!

رافقتْني سارة في حال احتجتُ إلى مساعدةٍ في طريق العودة، كما أنها توقّعتْ وجودَ ممثلاتٍ شابات في الجناح ٥٣٠، يتلألأ في أعينهنّ لونُ البحر.

دخلنا الفندق، كان جون جالساً على كرسيّ جلديّ كبير، وكعادته يبحث عن المجانين وغريبي الأطوار. رآنا فنهض نافخاً صدره إلى الأمام، ومع أنه رجل ضخم حقاً، لكنه يحبّ أن يبدو أضخمَ مما هو

عليه. تبادلنا التحية، ومشينا مع جون نحو المصعد، سألني: إلى أين وصلتَ في كتابة السيناريو؟

ـ يمكنك القول؛ بدأتْ معالمه تتوضح.

ـ عمَّ يتحدث؟

ـ عن سكّير، عن عدد كبير من السكّيرين.

فُتح باب المصعد، كان جميلاً حقاً من الداخل، جدرانه مغطاة بقماش مخمليّ أخضر، وتُزيّن القماش الأخضر رسوماتٌ لطواويس، العديدُ من الطواويس على الجدران والسقف. قلتُ: باذخ!

ردت سارة: جداً جداً.

توقف المصعد في الطابق الخامس، وخرجنا منه، كانت الممراتُ مفروشة بسجّاد صوفيّ أخضر، مزيّنٍ بعدد أكبر من الطواويس، كنا نمشي على الطواويس. ثم دخلنا إلى الجناح رقم ٥٣٠، كان بابه ضخماً ثقيلاً أسود اللون، أكبر بكثير من الأبواب العادية، ربما أكبر منها بضعفين، فيبدو مثل باب القلعة تماماً.

قرع جون البابَ بمقرعة الباب المعدنية المصنوعة على شكل رأس بلزاك.

لم يجب أحد.

قرع مرةً أخرى بقوة أكبر.

وبقينا منتظرين.

ثم فُتح الباب ببطء، رجلٌ هزيل أبيضُ اللون مثل خروفٍ مصنوع من الورق، هو من فتحَ الباب. قال جون بينشو: هنري ليون!

ـ جون! تفضلوا جميعاً.

دخلنا خلفَ جون، كان الجناح فسيحاً وكلُّ ما فيه ضخم، كراسٍ كبيرة، طاولات واسعة، جدران عالية، سقوف شاهقة. لكنْ ثمة رائحة عفنٍ غريبة، رغمَ رحابة المكان أحسستُ أني في القبر.

تعارفنا على بعضنا البعض.

الرجل الأبيض مثل خروف ورقيّ، هو هنري ليون سانرا، شقيق جان بول سانرا حلاّب المال. وكان معنا أيضاً جون لوك مودار الذي ظلَّ واقفاً بهدوءٍ لا ينبس بكلمة، يخطرُ في بالك أنه واقف ليتّخذ وضعيّة العبقريّ الشارد. كان نحيلاً أسمر اللون، يبدو أنه قد حلقَ ذقنه بآلة حلاقة رخيصة ورديئة.

قال لي هنري ليون سانرا: ها قد جلبتَ معك ابنتك، سمعتُ عن ابنتك رينا.

ـ لا لا، هذه سارة زوجتي.

ـ ثمة مشروبات على الطاولة، خمورٌ شتى، وأطعمةٌ متنوعة، اخدمْ نفسك بنفسك، سأذهب لآتي بجان بول.

انصرف هنري ليون إلى الغرفة المجاورة ليحضرَ جان بول، بينما سار جون لوك مودار إلى زاوية معتمة، وجلس فيها ليراقبنا. نهضنا إلى الطاولة، وقلتُ لـ بينشو: افتح النبيذ الأحمر، افتحْ عدة زجاجات حمراء.

صار بينشو يعمل كفتّاحةٍ للنبيذ، بينما تنتشر الأطعمة على أطباقها الفضية في كل مكان. قالت سارة: لا تأكل اللحم، ولا الحلويات، فيها كثير من السكّر.

أعتقد أن الآلهة قد أرسلتْ سارة لتزيد على عمري عشرَ سنوات، الآلهة يجرّونني دائماً إلى شفرة المقصلة، ثم وفي اللحظة الأخيرة،

يرفعون رأسي عن الخشبة. غريبون جداً هؤلاء الآلهة، ها هم الآن يدفعونني لكتابة سيناريو لا أملك أدنى رغبةٍ في كتابته. بالطبع أعلم أني إذا كتبتُه سيكون نصّاً جيداً، ليس عظيماً لكنه جيد، فأنا بارعٌ في اللعب بالكلمات.

سكب بينشو النبيذ، ورفعنا أقداحنا إلى الأعلى، قالت سارة: أمم... هممم...

ردّ بينشو: تتحدثين الفرنسية؟

قلتُ: سأسامحكِ على هذا.

أثناء شربنا كنتُ أراقب الغرفة المجاورة، إذ كان البابُ الكبير مفتوحاً من المنتصف، وكان هنري ليون يحاول إيقاظ جسدٍ ضخمٍ مسجّى على سرير واسع، لكنّ الجسد لم يستيقظ.

شاهدتُ هنري ليون يجلب وعاءً ويأخذ منه حفنةً من مكعّبات الثلج، ملأ قبضتيه بمكعبات الثلج، ثم ضغط بالثلج على صدغيْ الجسد النائم، وبعدها فتح القميص ومرّر الثلج على الصدر.

لكنّ الجسد لم يصحُ بعدُ.

ثم نهض فجأةً وصرخ: يا ابن العاهرة! ماذا فعلت؟ عليّ الآن أنْ أذوّبَ جسدي المتجمّد!

ـ جان بول، جان بول، لدينا ضيوف.

ـ ضيوف؟ ضيوف؟ حاجتي للضيوف مثل حاجة الكلب إلى البراغيث! اذهبْ إليهم وارمِ ضفادعَ في أفواههم، تبوّلْ عليهم، أحرقهم!

ـ جان بول، جانْ بول، لديك موعد مع جون بينشو وكاتب السيناريو.

ـ حسناً، اللعنة! سآتي بعد قليل، يجب أن أبولَ أولاً، لا.. لا.. سأنتظر شيئاً يستحقّ أنّ أبولَ عليه!

عاد هنري ليون وحدّثنا: سيأتي حالاً، إنه يمرّ بفترةٍ عصيبة، ظنَّ أنّ زوجته سوف تتركه، وصباحَ اليوم وصلتْه برقيةٌ من باريس تخبره فيها بأنها غيّرتْ رأيها. لو حصل ذلك لكانت ضربةً قاضيةً بالنسبة إليه، مثلَ ثورٍ ضخمٍ ينهشهُ قطيعٌ من الكلاب.

لم نجد شيئاً لنقوله.

ثم جاء جان بول مترنحاً، كان يلبس بنطالاً أبيض مقلّماً بخطوط صفراء عريضة، وجوارب زهريّة اللون من دون حذاء. كان شعره بنياً جعداً لا يحتاج إلى تمشيط، لكنه بنيٌّ شاحب، وكأنّ شعرهُ يُحتضَرُ ولمْ يقرّرْ بعدُ على أيّ لونٍ يستقرّ. كان يرتدي قميصاً داخلياً ويحكُّ جلده باستمرار، وبعكس أخيه فقد كان ضخم الجثة ورديَّ اللونِ، بل هو أحمر، ذاك الأحمر الذي اشتعلَ مرةً وانطفأ، انطفأ ليصبحَ أبيض مثل أخيه، ثم اشتعل بحُمرةٍ أكبر.

تبادلنا التحية والتعارف. تنحنحَ قليلاً وقال: «أين مودار؟»، ثم نظر حوله وشاهد مودار قابعاً في زاويته: «مختبئٌ كالعادة؟! ليتكَ تأتي بأمرٍ جديد!». وفجأةً استدار جان بول وركض إلى غرفة النوم صافقاً الباب خلفه.

سمعنا صوت مودار لأول مرة وهو يسعلُ من زاويته البعيدة، ونحن منشغلون بالشرب. كان كلُّ شيء ممتازاً، حياةٌ رائعة بكافة تفاصيلها، كلُّ ما عليكَ فعله في هذا العالم الصغير؛ هو أن تكون كاتباً أو فناناً أو

راقص باليه، وبعدها تقف أو تجلس في أي مكان، تسحب الدخان وتنفُثه، تشرب الخمر، وتدّعي أنكَ تعرف كل شيء.

عاد جان بول مرتطماً بالباب في طريقه، حسبتُ أن كتفه قد تأذى، لكنه توقّف.. تحسَّسَ كتفه ثم صرف النظر عنه، وتابع خطاه منشغلاً بحكّ جلده، ثم راح يدور حول الطاولة بسرعة منتظمة وهو يصيح: كلٌّ منا لديه فتحة شرج، صحيح؟ هل يوجد أحدٌ في هذي الغرفة ليس لديه فتحة شرج؟ إذا كان موجوداً فلْيتحدثْ حالاً، هل تسمعون؟

نكزني جون بينشو بكوعه وهمس في أذني: رأيت؟ إنه عبقريّ! هل رأيت؟

تابع جان بول دورانه بذات السرعة وهو يصرخ: كلٌّ منا لديه ردفانِ في أسفل الظهر، صحيح؟ وهنا في الأسفل، تحديداً في المنتصف، يخرج الغائط، صحيح؟ أو على الأقل نأملُ ذلك، أن يخرج ما بداخلنا من غائط حتى الممات. فكّروا في كمية الغائط التي نطرحها طوال حياتنا، والتي تمتصُّها الأرض! لكن البحار والأنهار تتقيأ آخر لحظات في حيواتها وهي تبتلع برازنا، ما أقذرنا! ما أقذرنا! ما أقذرنا! أكرهنا جميعاً، في كل مرةٍ أمسحُ فيها مؤخرتي أكره البشرية جمعاء.

ثم توقف أمام بينشو وقال: «تريد مالاً؟ أليس كذلك؟»، ابتسم بينشو، فتابع جان بول: أيها النذل! سوف أعطيك المال اللعين الذي تريده.

ـ شكراً، منذ قليل قلتُ لـ تشيناسكي إنك عبقري.

ـ اخرس!

ثم نظر جان بول إليّ: أفضلُ ما في كتاباتك، هي أنها تستفزّ النقّاد الأكاديميين، حتى هؤلاء يجب استفزازهم، وهذه الفكرة تنتشر بين

الملايين، فقط حافظْ على بلاهتك النقية، يوماً ما.. قد يأتيك اتصال من الجحيم!

ـ جان بول، هذه الاتصالات تأتيني عادة.

ـ نعم؟ كيف؟ من؟

ـ عشيقاتي السابقات!

ـ هل تسخر مني؟

صرخَ في وجهي وعاد للدوران حول الطاولة، ولحكَّ جلده بذات الطريقة. ثمّ وبعد آخر دورةٍ كبيرة، ركض إلى غرفة النوم صافقاً الباب خلفه. قال هنري ليون: أخي ليس على ما يرام، إنه محبَط.

أخذتُ الزجاجة وسكبتُ الكؤوس، اقتربَ بينشو مني وهمسَ في أذني: يُقيمان في هذا الجناح منذ أيام، يأكلان ويشربان، وفي النهاية لن يدفعا فاتورة الفندق.

ـ حقاً؟

ـ حجزُ الفندق على حساب فرانسز فورد لوبالا، فهو يعتبر جان بول عبقرياً.

ـ الحبّ والعبقرية أكثرُ كلمتين مُبتذَلَتين في اللغة، من كثرة استعمالهما.

تدخّلت سارة: بدأتَ تقول أشياء سخيفة، ها قد بدأت تفضح نفسك.

حينئذٍ، أطلَّ جون لوك مودار من زاويته ومشى باتجاهي، طلبَ مني أن أسكب له كأساً، فشربها دفعةً واحدةً، ثم سكبتُ له كأساً أخرى.

وقال: لقد قرأتُ تفاهاتك! أفضلُ ما فيها أسلوبك البسيط، أنتَ تعاني من خلَل في الدماغ؟ أليس كذلك؟

- ربما، نزفتُ كمياتٍ كبيرة من الدماء عام ١٩٥٧، تقريباً معظمَ الدم الذي في جسدي، كنتُ مرمياً في قبو دار الرعاية لمدة يومين، إلى أن جاء طبيب حيُّ الضمير وأنقذني. وأعتقد أني نزفتُ كثيراً من الأشياء بعدها، غالباً من عقلي لا من جسدي.

قالت سارة: هذه واحدة من قصصه المفضّلة، صحيح أني أحبه، لكني لا أعرف كم مرةً أرغمني على سماع هذه القصة.

- وأنا أحبك يا سارة، لكن تكرار القصص القديمة، مرةً تلو الأخرى، يجعلُها تبدو أقرب مما هي عليه.

- حسناً عزيزي، أعتذر.

قال جون لوك: اسمعني، أريد أن أطلب منك أن تصوغ الترجمة الإنكليزية لفيلمي الجديد، وهنالك مشهدٌ في الفيلم سآخذه من إحدى قصصك، عندما يكون أحدُهم جالساً خلف مكتبه في العمل، وإحدى النساء تلعق قضيبه من تحت المكتب، بينما يتابع عمله ويجيبُ على الاتصالات... وغيرها، اتفقنا؟

- اتفقنا.

بدأنا الشرب من جديد، وراح جون لو يتحدث، يتحدث ويتحدث ويتحدث، ناظراً إليّ فقط. في البداية سررتُ لاهتمامه، ثم زالتْ حماستي. تابع جون لوك حديثه بلا هوادة، كان شاباً أسمرَ يمثل دور العبقري، ربما كان عبقرياً حقاً، لا أريد السخرية منه. لكني عرفتُ الكثير من العباقرة الذين فُرضُوا عليّ أيام الدراسة: شكسبير، تولستوي، إبسن، جورج برنارد شو، تشيخوف، وكل أولئك المملّين! والأسوأ

منهم: مارك توين، هاوثون، الشقيقتان برونتي، دريزر، سينكلير لويس... جميعهم يهبطون على رأسك مثل سقف إسمنتيّ، وتحاول الهرب منهم وبعيداً عنهم، هؤلاء هم الآباء الأغبياء ثقيلُو الظلّ، يُصرّون دائماً على الالتزام بالقواعد، وبالأساليب التي تجعل الموتى يرتعدون في قبورهم.

استمرّ جون لوك في حديثه المتمدّد، هذا كلُّ ما أذكره، بينما كانت سارة الطيبة تنبّهني كلّ حين: هانك، لا تشرب كثيراً، أبطئ قليلاً، لا أريدكَ أن تموت في الصباح.

لكن جون لوك واظبَ على الكلام.

لم أعد أعرف عما يتحدث، كنتُ أرى فقط شفاهاً تتحرّك، ولم يكن مستاءً مني، كان شيئاً موجوداً هنا فحسب، شيئاً تحتاجُ ذقنُه لحلاقة. وكنا في ذاك الفندق الغريب في «بفرلي هيلز» حيث يسيرُ المرءُ على الطواويس، يا لهُ من عالم سحريّ! أحببته لأني لم أرَ شيئاً مثله من قبل، كنتُ منطفئ الإحساس ومبتهجاً وآمناً.

سكبتُ كؤوساً جديدة، وما زال جون لوك يتكلم.

دخلتُ في حالةٍ من الكآبة والانقطاع عن العالم، فغالباً عندما أجالس الناسَ، سواءٌ كانوا طيبين أو أشراراً، تتعطّل حواسي عن العمل، تتعبُ حواسي فأستسلم. ولأني مهذّبٌ أهزُّ لهم برأسي، وأتظاهرُ بأني أفهم ما يقولونه لكيلا أجرح أحداً. هذه نقطة ضعفي الوحيدة التي أقحمتْني في مشاكل عديدة، أحاول أن أكون لطيفاً مع الجميع إلى درجةٍ تتمزّق فيها روحي، وتتحوّل إلى نوعٍ من المعكرونة الروحية. حتى بعد أن يتوقف دماغي عن العمل، أُصغي إليهم

وأستجيب، وغالباً ما يكونون حمقى بشكلٍ لا ينتبهون فيه إلى أني في مكان آخر.

تُفرَغُ الكؤوس وتُملأُ الكؤوس، وجون لوك لا يتوقف عن الكلام. أنا واثقٌ أنه يقول أشياء مهمة، لكني لم أستطع التركيز إلا على حركة حاجبيه.

في اليوم التالي، كنتُ نائماً بجوار سارة، عندما رنّ الهاتف في الحادية عشرة صباحاً، كان بينشو: اسمعْ، سأخبرك بشيء.

- تفضل.

- مودار لا يتكلّم أبداً، لم يستطعْ أحدٌ من قبل، أي أحد، أن يجعله يتحدث مثلما فعلت أنتَ البارحة. لقد تحدث لساعات، والجميعُ كانوا مسحورين بحديثه.

- حسناً، حسناً.

- أنت لا تفهم! إنه لا يحكي أبداً، لكنه تحدّثَ معك لساعات!

- اسمعني جون، آسف أنا مريض، دعني أعود للنوم.

- لا بأس، لكني سأخبرك بأمر آخر.

- اسرعْ.

- جان بول سانرا.

- ما به؟

- قال إنه ينبغي عليّ أن أتعذّب، فلمْ أتعذّب بما فيه الكفاية، وعندما أتعذّب كثيراً فإنه سيؤمّن لي التمويل.

- جيد جداً.

- إنه رجل غريب، غريب جداً، عبقريّ حقيقي!

- بلى، إنه كذلك.

أغلقتُ الهاتف.

كانت سارة لا تزال نائمة، استلقيتُ على جانبي الأيمن متّجهاً إلى النافذة، لأنني أشخرُ خلال نومي أحياناً، وأريد توجيه الصوت بعيداً عنها.

بدأتُ السقوط في الظلام الوديع، في الراحة الوحيدة المكتوبة لنا قبل الموت، عندما جاءتْ قطةُ سارة المفضلة، وعبرتْ فوق الوسادة نحوي، صعدتْ على وجعي غارزةً مخالبَ قدمها في أذني، ثم قفزت إلى الأرض. وبعدها ارتقتْ إلى حافة النافذة المفتوحة، وراحتْ تنظرُ نحو الشرق.

وعندما تصعدُ الشمس الحمراء إلى كبد السماء، أفقد السيطرة على الأفكار الخلابة التي كانت تراودني.

٧

ذات ليلة، جلستُ أمام الآلة الكاتبة، سكبتُ كأسين وشربتهما، ثم دخّنتُ ثلاث سجائر وأنا أستمع لسيمفونية برامز الثالثة عبر الراديو. أحسستُ أني أريد أمراً ما ليساعدني على كتابة السيناريو، ضربتُ رقم هاتف بينشو:

ـ آلو.

ـ جون، أنا هانك.

ـ هانك، كيف حالك؟

ـ جيد، اسمعني، أريد العشرة آلاف دولار.

ـ لكنك قلتَ إن العملية الإبداعية تتعرقل في حال أخذتَ المال مسبقاً.

ـ غيرتُ رأيي، لم أبدأ بالعمل عليه بعد.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أني أرتب الأفكار في عقلي، لكني لم أكتب حرفاً على الورق.

ـ وما الموضوع الذي يدور في رأسك؟

ـ شابٌ سكّير، يجلس على كرسيّ البار ليلاً ونهاراً.

ـ وهل تعتقد أن الجمهور سيهتمّ بشابٍ كهذا؟

ـ افهمني جون، إذا كنتُ سأفكّر بما قد يُعجب الجمهور فإني لن أكتب شيئاً في حياتي.

ـ حسناً، هل آتي لأجلب لك الشيك؟

ـ لا، أرسله بالبريد هذه الليلة، وشكراً.

ـ شكراً لك.

عدتُ إلى الآلة الكاتبة، بدأتِ الكلماتُ تخرج من تلقاء ذاتها، كتبتُ:

«السكّير ذو الروح الزرقاء الصفراء»

خارجي/داخلي ـ حانة داني ـ نهاراً:

تتجول الكاميرا من الأعلى إلى الأسفل، تسير ببطء عند مدخل الحانة وفي أرجائها. ثمة شابٌ جالسٌ على كرسيّ البار، وكأنه خالدٌ في هذا المكان، يرفع كوبه...

ها قد دخلتُ في حالة الكتابة، كلُّ ما تحتاجه هو السطر الأول، ثم تتدفق الكلمات. الأفكارُ دائماً جاهزة، تحتاج فقط لشيءٍ ما يُطلق سراحها.

عادتْ تلك الحانة القديمة إلى ذهني، تذكّرتُ كيف تشُمُّ رائحة المَبْوَلة أينما جلستَ فيها، فتطلب كأساً على الفور لتقاوم الرائحة، وقبل أن تضطّر لزيارة المبولة، تكون قد استهلكتَ أربع كؤوس أو خمسا. كلُّ روّاد الحانة بأجسادهم ووجوههم وأصواتهم عادوا إليّ في هذه اللحظة، أو أنا عدتُ إليها، لأرى البيرة تبرقُ وتتوهّجُ وهي تنسكبُ في الكوب

الكبير، ثم تطفو على سطحها الرغوةُ البيضاءُ كأنها تدعوك إليها، وتستمرُّ بالرُّغاء. كانت البيرة خضراء اللون، وبعد أول رشفةٍ منها، الرشفة التي تذهب بربع الكوب، تنخطفُ أنفاسُك. وأذكر ذاك الشاب الودود الذي كان يعمل فيها نهاراً. بدأ الحوار السينمائي يتشكّل في ذهني، وما عليّ سوى كتابته، فشرعتُ في الكتابة...

ثم رنّ الهاتف، كان اتصالاً من مكان بعيد، إنه مترجمي ووكيل أعمالي في ألمانيا: كارل فوسنر، يحبّ كارل أن يتكلّم بطريقة يحسب أن الأمريكيين يتحدثون بها: مرحباً يا ابن القحبة، ماذا تفعل؟

ـ أنا بخير يا كارل، أما زلتَ تمشي على قضيبك؟

ـ طبعاً، سقف بيتي صار كالغربال، مثقّباً ببقع سائلي الجافة.

ـ رجل رائع!

ـ شكراً عزيزي، كل الأشياء الرائعة تعلمتُها منك. عندي أخبار جيدة، ألا تودّ سماعها؟ يا ابن القحبة؟

ـ نعم، طبعاً عزيزي.

ـ حسناً، بعد أن أزحتُ كتابك «ديكسي» عن مؤخرتي، ترجمتُ ثلاثة من كتبك: ديوان «قملة القدر المُميت»، المجموعة القصصية «أحلام البالوعة»، ورواية «إحراق المحطة المركزية».

ـ تستحق أن أهديك خصيتي اليسرى يا كارول.

ـ حسناً، أرسِلْها بالبريد، لكن ثمة أخبار أخرى.

ـ أكملْ.. أكملْ..

ـ كان عندنا معرض للكتاب الشهر الماضي، والتقيتُ فيه بأهمّ ستة ناشرين في ألمانيا، ودعني أقل لك: إنهم متشوّقون جداً لجسدك.

ـ جسدي؟!

ـ جسد كتاباتك، هل تعلم؟ خمّنْ...

ـ خمّنت.

ـ جمعتُ أولئك الناشرين الستة في صالة فندق، فرَشْتُ أمامهم زجاجات البيرة والنبيذ وأطباق الجبنة والمكسرات. ثم أخبرتهم أنها مُزايدة مفتوحة لاختيار دار النشر التي ستدفع أكثر، وإعطائها حقوق الكتب الثلاثة. ضحكوا وهم يقرعون الكؤوس، لقد جعلتُهم دمىً بين أيدينا. أنت كاتب مثير وهم يدركون ذلك، أخبرتُهم عدّة نُكاتٍ ليصبح الجوّ ألطف، ثم بدأت المزايدة... ولكي أختصر لك، كرومف دفعَ المبلغ الأكبر، وجعلتُه يوقع العقد فوراً، ثم شرعنا نشربُ حتى سكرنا جميعاً، خاصةً كرومف، وهكذا سجّلنا هدفاً، بل ضربنا ضربةً قاضية!

ـ أنت رائع جداً يا كارل، وما هي حصتي من العقد؟

ـ عزيزي، أعتقد أنها قرابة ٣٥ ألف دولار، سأرسلها لك خلال أسبوع.

ـ يا رجُل! يا رجل! هذا خبر صاعق!

ـ أجملُ من تكسير الأقداح على الأرض، يا ابن القحبة.

ـ صحيح، كارل هل سمعتَ بهذي النكتة؟ ما هو الفرق بين فتحة شرج الدجاجة وفتحة شرج الأرنب؟

ـ لا أعرف، ما الفرق؟

ـ اسألْ قضيباً صغيراً.

ـ فهمتها، مذهلة!

وهكذا انتهت المحادثة بيننا.

خلال ساعة واحدة صرتُ أغنى بـ ٤٥ ألف دولار، ثلاثون عاماً من الجوع والمذلّة باتت على وشك الأفول.

عدتُ إلى الآلة الكاتبة، سكبتُ كوباً كبيراً وكرعته، ثم سكبتُ آخر. وجدتُ ثلاثة أرباع سيجار قديم، فأشعلته. كانت السيمفونية الخامسة لـ شوستاكوفيتش على الراديو، ضربتُ على الآلة الكاتبة:

انحنى لوك (ساقي الحانة) على طاولته، محدّقاً في الشاب...

لوك: اسمع، أنت قابع في هذا المكان ليلاً نهاراً، لا تفعل شيئاً سوى شرب البيرة.

الشاب: نعم.

لوك: حسناً، انظر، لا أريد جرحَ مشاعرك، لكنّ هذا الهُراء لن يقودك إلى أي مكان.

الشاب: هذا صحيح يا لوك، لا تقلق عليّ، فقط أحضرْ لي البيرة دائماً.

لوك: بالتأكيد يا ولد، لكن ألا يوجد جزءٌ من حياتك خارج هذي الحانة؟

الشاب: لوك، هل سمعتَ بهذي النكتة من قبل؟ ما الفرق بين فتحة شرج الدجاجة وفتحة شرج الأرنب؟

لوك: لا أريد سماع أي نكتة، يا رجل أريد أن أعرف؛ ألا يوجد جانب من شخصيتك خارج هذا المكان؟

الشاب: نعم، اللعنة، عندما كنتُ في الصف السادس على ما أذكر،

طلب منا المعلّم أن نكتب عن تجربة شكّلتْ نقلةً في حياتنا، طبعاً لا أقصد نقلةً من مدينة إلى أخرى.

لوك: طيب.

الشاب: بكل حال، كتبت عن ضفدع عثرتُ عليه في الحديقة، كانت إحدى ساقيه عالقة في سلك السياج، ولا يستطيع الحركة. أخرجتُ ساقه من السياج، لكنه لم يتحرك أيضاً.

لوك: (يتثاءب) وماذا؟

الشاب: وضعته في حضني ورحتُ أتحدث إليه، أخبرته أني أنا أيضاً عالقٌ في الشرَك، حياتي عالقة في سلك ما، تحدثت إليه لساعات، وفي النهاية قفز من حضني وراح يثبُ على العشب، إلى أن اختفى بين الشجيرات. وقلتُ لنفسي: إنه أول شخصٍ في حياتي كلها.. سأشتاق إليه.

لوك: وماذا أيضاً؟

الشاب: قرأها المعلّم أمام جميع التلاميذ، فبكوا جميعاً.

لوك: نعم، وماذا؟

الشاب: أحسستُ أني في يوم من الأيام قد أصبح كاتباً.

لوك: (منحنياً إلى الأمام) يا ولد، أنت مجنون!

قررتُ أن ما كتبتُه من السيناريو كافٍ لليلة واحدة، فجلستُ أستمعُ إلى الموسيقى عبر الراديو، ولا أذكر أني ذهبتُ إلى السرير، لكني في الصباح استيقظتُ فيه.

٨

فين مرباد، رجلٌ نصحني به مايكل هنتنغتون وأثنى عليه، مايكل كان مصوّري الرسمي، ولطالما صدمَني بخدماته اللطيفة، لكنني لا أتصلُ به لأشكره عليها، ولا أعرف لماذا.

أما فين مرباد فهو مستشار في الضرائب، رجل أسمرُ صغير الحجم، زارنا ذات ليلةٍ حاملاً حقيبة العمل. كنتُ قد بدأتُ الشرب منذ ساعات، وكنا جالسَين أنا وسارة نشاهد فيلماً على تلفازي الأبيض والأسود القديم.

نقرَ الباب بسرعة وأناقة، فتحتُ له وعرّفته على سارة، وسكبتُ له قدح نبيذ. أخذ رشفة وقال: شكراً، هل تعلم أنك في الولايات المتحدة، إذا لم تنفق النقود التي معك، فإنهم سيأخذونها منك؟

- نعم، وماذا تريدني أن أفعل؟

- انفقْ قسماً منها كدفعة أولى لشراء منزل.

- نعم!

- دفعاتُ الرهن العقاري عليها حسم ضريبي.

- حسناً، وماذا غير ذلك؟

- اشترِ سيارة، يوجدُ حسم ضريبي أيضاً.

ـ ولِمَ كلّ هذا؟

ـ ليس كل المال، جزء منه فقط، ما أريده هو أن أبني لك حمايةً من الضرائب، انظر هنا.

فتح فين مرباد حقيبته، أخرج منها أوراقاً كثيرة، نهض واتجه صوبي حاملاً أوراقه، وقال: إنها سندات مُلكية حقيقية، اشتريتُ قطعة أرض في «أوريغون»، معفاة من الضرائب كلياً، وما زالت بعضُ الفدادين معروضة للبيع، ويمكنك الشراء الآن. نتوقع أن يزداد سعر هذه العقارات ٢٣٪ سنوياً، وبكلام آخر؛ بعد أربع سنوات سوف تحصل على ضعف المبلغ الذي دفعته.

ـ لا.. لا.. أرجوك عُدْ إلى مكانك.

ـ ما الخطب؟

ـ لا أريد شراء شيء لا أراه، لا أريد شراء شيء لا يمكنني الوصول إليه أو لمسه بيدي.

ـ تعني أنك لا تثق بي؟

ـ لم التقِ بكَ إلا منذ قليل.

ـ لكن سُمعتي عالمية!

ـ أتبعُ حدسي دائماً.

استدار فين مرباد عائداً إلى الأريكة، ارتدى معطفه، حمل حقيبة الأوراق، وسارع نحو الباب. فتح الباب، ثم خرج، وأغلقه بعدها.

قالت سارة: لقد جرحتَ مشاعره، الرجل يحاول أن يعرض عليكَ أساليب لحفظ المال.

ـ لديّ قاعدتان في الحياة، الأولى: لا تثقْ برجلٍ يدخّن الغليون، الثانية: لا تثق برجل يلبس حذاءً لامعاً.

ـ لم يكن يدخّن غليوناً.

ـ لكنه يبدو مثل مدخّني الغلايين.

ـ لقد جرحتَ الرجل!

ـ لا تقلقي، سوف يعود.

فُتحَ البابُ بعُجالة، وها هو فين مرباد، دخل مسرعاً إلى مكانه السابق على الأريكة، خلع معطفه ثانية، وضع حقيبة الأوراق على قدميه، ونظرَ إليّ: أخبرني مايكل أنك تراهن على أحصنة السبق؟

ـ هذا صحيح.

ـ أوّل عملٍ حصلتُ عليه عند مجيئي إلى هنا قادماً من الهند، كان في حديقة «بفرلي هيلز»، كنتُ ناطور الحديقة، هل تعرف المكانس التي تستخدم لكنس البطاقات المرمية؟

ـ نعم.

ـ هل لاحظتَ كم هي عريضة؟

ـ نعم.

ـ هذه فكرتي أنا! كانت المكانسُ المستخدمة سابقاً عاديّة الحجم، لكني صمّمتُ مكنسةً جديدة، حملتُها وذهبتُ بها إلى الإدارة، فوافقوا على اعتمادها. بعد ذلك تمّتْ ترقيتي لأصبح في الكادر الإداري، وما زلتُ أصعدُ حتى اليوم.

سكبتُ له كأس نبيذ جديد، فعبَّ منه وقال: هل تشرب أثناء الكتابة؟

ـ نعم، كمية كبيرة.

ـ وهذا يساعدُ في الإلهام الإبداعي، سأجعل على المشروبات تخفيضاً ضريبياً.

ـ هل تستطيع ذلك؟

ـ طبعاً، أنا الشخص الذي أطلقَ التخفيض الضريبي على بنزين السيارات، إنها فكرتي.

ـ يا ابن العاهرة!

قاطعتْ سارة: عمل مهم جداً.

تابع مرباد: سوف أنظّم أمورك بشكلٍ لا تدفع فيه أية ضريبة، وكل ذلك ضمن القانون.

ـ يبدو أمراً رائعاً.

ـ مايكل هنتنغتون لا يدفع ضرائب، اسأله.

ـ أصدّق كلامك، دعنا لا ندفع ضرائب.

ـ حسناً، لكن عليك أن تفعل ما أقوله لك، في البداية تدفع عربوناً لشراء منزل، ثم لشراء سيارة. ابدأ بهذا، انتقِ سيارةً جيدة، «بي إم دبليو» مثلاً.

ـ حسناً.

ـ ما نوع الآلة الكاتبة التي تستخدمها؟ يدوية؟

ـ نعم.

ـ اشترِ إلكترونية، عليها تخفيض ضريبي أيضاً.

ـ لا أعرف إن كنتُ أستطيع الكتابة على الإلكترونية.

ـ يمكنك شراؤها خلال يومين.

ـ أقصد لا أعرف إن كنتُ سأُبدع على الإلكترونية.

ـ تعني أنك خائفٌ من التغيير؟

أجابت سارة: نعم إنه كذلك، انظرْ إلى الكتّاب في القرون الماضية، كانوا يكتبون بأقلام الرّيش، فربما هو مستعدّ للكتابة بالريش، بدلاً من تجريب شيء جديد.

قلتُ: إني قلقٌ جداً على روحي الملعونة من السماء.

سأل فين: ألا تغيّر أنواع البيرة التي تشربها؟ أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ حسناً، هكذا.

رفع فين كأسه وشربها، فسكبتُ له من جديد، ثم قال: ما نريد فعله هو أن نفتتح شركة باسمك، لتحظى بكافة التسهيلات الضريبية.

ـ يبدو الأمر مُريعاً.

ـ قلتُ لك، إذا أردتَ ألا تدفع ضرائب، فعليك أن تفعل ما أقوله لك.

ـ كل ما أريده هو أن أكتب، لا أريد أعباءً ثقيلة فوق ظهري.

ـ كل ما عليك هو تعيين مجلس إدارة للشركة، وسكرتاريا، وأمين الخزنة... إلخ. أمرٌ سهل.

ـ يبدو أمراً مرعباً، هذا هُراء، ربما من الأفضل لي أن أدفع الضرائب، كلُّ ما أريده هو ألا يزعجني أحد، لا أريد لجابي الضرائب أن يقرع بابي في منتصف الليل. بل إني مستعدٌ أن أدفع فوق الضرائب، لأضمن أن يتركوني وشأني.

ـ هذا غباء! لا ينبغي لأحد أن يدفع الضرائب.

تدخلت سارة: لماذا لا تعطي فين فرصةً؟ إنه يريد مساعدتك فحسب.

تابع فين: انظر، سأرسل لك أوراق الشركة عبر البريد، اقرأها عدة مراتٍ ثم وقّعْ عليها، سوف ترى أنْ لا شيء فيها يدعو إلى الخوف.

ـ كل هذه الأشياء ستشكّل عوائق في طريقي، إني أعمل على كتابة سيناريو، وأريد ذهني صافياً.

ـ سيناريو؟ عن ماذا؟

ـ عن سكّير.

ـ هو أنت؟

ـ وهناك آخرون أيضاً.

قالت سارة: أنا من أجعلُه يشرب النبيذ الآن، حين تعرفتُ عليه كان على وشك الموت، إذ كان يشرب الويسكي والفودكا والجِنّ...

عاد فين: عملتُ مستشاراً لدى داربي إيفنز لعدة سنوات، تعرفه؟ إنه كاتب سيناريو.

ـ لا أذهب إلى السينما.

ـ هو من كتبَ فيلم «الأرنب الذي قفز إلى السماء»، «لولو وكعكة الشوكولا»، «هلَعٌ في حديقة الحيوان»، وحوالي ستة أفلام مهمة أخرى، ولديه شركة.

لم أجبْ، فتابعَ: لم يدفع سنتاً واحداً للضرائب، وكل ذلك ضمن القانون.

قالت سارة: أعطِ فين فرصة.

رفعتُ كأسي وقلت: حسناً، فليكُنْ ذلك!

قال فين: أنت عظيم!

شربتُ كأسي ونهضتُ أبحث عن زجاجة جديدة، جلبتُ فتّاحة النبيذ وسكبتُ للجميع.

تركتُ عقلي يشرُدُ في التفكير ويحدثُني: أنتَ بارعٌ في الصفقات! أنت ماكر! لماذا تدفع الضرائب التي تُنفَقُ على القنابل التي تمزّق الأطفال المساكين؟ اركبْ «بي إم دبليو»، اسكنْ بيتاً مطلاً على البحر، انتخبْ الحزب الجمهوري.

الفكرة التالية التي خطرتْ في رأسي: هل أنت تصبح الشخصَ الذي كنتَ دائماً تكرهه؟

ثم جاءني الجواب: اللعنة! أنت لا تملك أية نقود بين يديك حالياً، فلمَ لا تعتبر كلّ هذا لعبةً مسليّة؟!

ثم رحنا نشرب احتفالاً بشيء ما.

٩

هكذا إذن، صار عمري ٦٥ عاماً، وها أنا ذا أبحث عن شراء منزلي الأول، أتذكُّر أن أبي رهنَ حياته بأكملها لشراء منزل، يومها قال لي: «سوف أدفع ثمنَ البيت طوال حياتي، وعندما أموتُ سترثُه عني، ومن ثم سوف تقضي حياتك وأنتَ تدفع ثمن بيت آخر، وحين تموت سيرثُ ابنك بيتين، وهكذا يصيرُ البيت الواحد بيتين، ومن ثم يجيءُ دور ابنك...»

تبدو هذه العملية بطيئة ورتيبة جداً: بيت بعد بيت، موت بعد موت، عشرة أجيال عشرة بيوت. ثم يأتي شخص واحد فقط؛ يقامرُ بهذه البيوت جميعاً ويخسرها، أو يحرقها كلها بعود ثقاب، ثم يركض في الشارع حاملاً خصيتيه ودلوَ الماء.

الآن سأبحث عن بيتٍ لا أريده حقاً، وكنت سأكتب سيناريو لا أريد كتابته أبداً. بدأتُ أفقد السيطرة على حياتي، أدرك ذلك، لكني لست قادراً على مقاومة ما يحصل.

أوّل شركة عقارية ذهبنا إليها كانت في «سانتا مونيكا»، اسمها «مساكن القرن خلال عشرين ثانية»، يبدو أنها بيوت حديثة. نزلتُ مع سارة من السيارة ودخلنا إلى الشركة، ثمة شاب خلف مكتبه يضع ربطة عنق على شكل فراشة، ويرتدي قميصاً مقلّماً جميلاً، وبنطالاً أحمر ذا

حمّالات. يبدو أبله، كان يخلط أوراقاً على مكتبه، ثم توقف ونظر إلينا: هل من خدمة؟

قلت: نريد شراء منزل.

أدار الشاب وجهه جانباً، وراح ينظر إلى البعيد. مرت دقيقة، مرت دقيقتان.

قالت سارة: فلنذهب.

عدنا إلى السيارة وشغّلت المحرك. سألتْ سارة: لماذا فعل ذلك؟

- لا يريد العمل معنا، لقد قرأ ملامحنا واستنتج أننا فقراء بلا أية قيمة، حسبَ أننا سنضيّع وقته.

- لكن هذا غير صحيح.

- ربما، لكنّ الموقف بأكمله جعلني أحسُّ وكأنّ بقعاً من الوحل تغطي كامل جسدي.

قدتُ السيارة وأنا لا أعرف إلى أين أذهب. بطريقةٍ ما آلمني ما حدث، صحيح أن بقايا سكرة البارحة باديةٌ على وجهي، وذقني تحتاج إلى حلاقة، وعادةً أرتدي ملابس ليستْ على مقاسي تماماً، وربما تركتْ سنواتُ الفقر آثارها على مظهري، وأعطتْني هيئة معينة. لكنْ ليس من الحكمة أن تحكم على الآخرين من خلال مظهرهم الخارجي، من الأفضل أن تحكم على رجل من خلال تصرفاته وكلامه.

ضحكتُ: يا إلهي! قد لا نجد أحداً يبيعنا بيتاً.

- ذاك الشابّ أخرق.

- «مساكن القرن خلال عشرين ثانية» واحدة من كبرى شركات العقارات في البلاد.

ـ ذاك الشاب أخرق!

ما زلتُ أشعر بالإهانة، ربما كنتُ شخصاً رثاً فعلاً، فأنا لا أجيد سوى الكتابة، أحياناً.

وصلتْ بنا السيارة إلى منطقة مرتفعة، سألتُ: أين نحن؟

ـ في وادي توبانغا.

ـ يبدو مكاناً مريعاً.

ـ إنه جميل، لولا الفيضانات والحرائق، والنماذج الجديدة من الهيبيين.

ثم قرأتُ لافتةً كُتب عليها «جنّة السعادين»، إنها حانة! ركنتُ السيارة ونزلنا منها، ثمة حشدٌ من الدراجات الهوائية عند باب الحانة، أحياناً يسمّون الدرّاجات خنازير.

دخلنا الحانة، كانت ممتلئة تقريباً، شبابٌ بمعاطف جلدية، شباب بثياب متّسخة، بعضُهم تظهر آثارٌ لجروح قديمة على وجوههم. ولبعضهم لحىً مُطالة بشكل عشوائي. معظم العيون كانت زرقاء شاحبة، ومدوّرة كسلى. كانوا جالسين بهدوء وكأنهم هنا منذ أسابيع.

وجدنا كرسيّين، وطلبتُ من الساقي زجاجتي بيرة فانصرف لإحضارهما. جاءت البيرة وأخذ كل منا جرعة كبيرة.

ثم لاحظتُ وجهاً يندفع في الحانة وهو ينظر إلينا، كان وجهاً مدوّراً بديناً، تبدو عليه سمات البلاهة. كان شاباً ذا شعر ولحيةٍ أحمرين، لكنّ حاجبيه أبيضان. شفَتُهُ السفلى تتدلّى نحو الأرض، وكأنّ وزناً لا مرئياً معلّقٌ بها ويشدُّها. كانت الشفة ملتفّةً حتى رأيناها من الداخل، مبلّلة ولمّاعة. قال: تشيناسكي! تشيناسكي يا ابن العاهرة! إنه تشيناسكي!

لوّحتُ بيدي قليلاً، ثم أعدتُ نظري، وقلتُ لسارة: إنه واحد من قرّائي.

ـ أووو... أووو...

ثم سمعتُ صوتاً من جهة اليمين: «تشيناسكي»، وآخر من اليسار: «تشيناسكي».

ظهر الويسكي فجأة أمامي، رفعتُ الكأس وقلتُ: «شكراً يا أصدقاء»، وشربتها.

قالت سارة: على رِسْلك، تعرف حالتك الصحية، بهذه الطريقة لن تستطيع الخروج من هنا.

أحضر الساقي قدح ويسكي آخر، كان شاباً نحيلاً وجهُهُ مغطىً ببثورٍ حمراء غامقة، يبدو لئيماً أكثر من كل الموجودين هنا، وقفَ محدقاً فيّ وقال: تشيناسكي، أنت أعظم كاتب في العالم!

ـ كما تريد.

قلتُها رافعاً قدح الويسكي، ثم مررته لسارة لكي تشربه. سعلَتْ قليلاً، ثم وضعتْه على الطاولة وقالت: شربتُها لأساعدك فقط.

وبعدها بدأ مجموعة من الأشخاص يحتشدون خلفنا: «تشيناسكي، تشيناسكي، يا ابن القحبة، لقد قرأتُ كل كتبك، كل كتبك.. كلها، أستطيع أن أهزمك الآن. تشيناسكي، تشيناسكي، أما زال ينتصبُ معك؟ تشيناسكي، تشيناسكي، هل أقرأ لكَ إحدى قصائدي؟»

دفعتُ للساقي، ونهضنا عن كراسينا، ومشينا إلى الباب. ومرةً أخرى لاحظتُ المعاطف الجلدية، والوجوه الشاحبة الخالية من أي فرح أو جرأة. ثمة شيءٌ ناقصٌ حتماً في شخصية هؤلاء الشباب، وشيءٌ آخر يجذبني بقوةٍ إليهم. فقط لدقيقةٍ واحدة؛ تمنيتُ لو أحيطهم بذراعيّ،

أعانقهم وأواسيهم، وكأني ديستويفسكي جديد. لكني أعرف أن هذا التصرف لن يقودني في النهاية إلا إلى السخرية والمهانة، لي ولهُم. أصبح العالمُ اليوم غريباً جداً، فما عادت اللطافة والعفوية أمراً سهلاً، صارتْ شيئاً ينبغي أن نتدرّب عليه جميعاً.

تبعَنا الشبابُ إلى الخارج وهم يصيحون: «تشيناسكي، تشيناسكي، مَن الحسناء التي معك؟ أنت لا تستحقها يا رجل! تشيناسكي.. تعال واشربْ معنا، كن رجلاً جيداً، كن مثل كتاباتك! تشيناسكي.. لا تكن مثل القضيب!»

طبعاً، كانوا على حق في ذلك.

ركبنا السيارة وأدرتُ المحرّك، ورحنا نسير ببطء بينهم، وهم يتجمّعون حول السيارة، بعضهم يرسل لنا القبلات، وآخرون يرفعون لنا إصبعهم الوسطى، وقلّة يضربون على النوافذ، ولكن.. عبرنا.

وصلنا إلى الطريق العام، وانطلقنا، قالت سارة: إذاً هؤلاء هم قرّاؤك؟

- هؤلاء بعضهم على ما أعتقد.

- ألا يوجدُ أناسٌ أذكياءُ يقرؤون كتاباتك؟!

- آملُ ذلك.

تابعنا طريقنا بالسيارة دون كلام، إلى أن سألت سارة: فيمَ تفكّر؟

- دينيس بودي.

- دينيس بودي، من هذا؟

- كان صديقي الوحيد في المدرسة الثانوية، أتساءل ماذا حلّ به.

١٠

أثناء سيرنا بالسيارة، رأيتُ لافتةً كُتبَ عليها «حقيقة قوس قزح» فاتجهتُ إليها، كان مربض السيارات غير معبّد، ومليئاً بالحفر والأخاديد وآثار العجلات، بحثتُ عن رُقعةٍ مستويةٍ وركنتُ السيارة فيها. ترجّلنا وذهبنا إلى المكتب، كان بابه مفتوحاً وثمة دجاجة بيضاء، بدينة ومتسخة، تجلس عند الباب. لكأتُها بقدمي، نقنقتْ قليلاً، ومشت داخل المكتب، وجدتْ لنفسها مكاناً في الزاوية وجلست فيه.

وراء طاولة المكتب، سيدة في أواسط الأربعينيات، شَعرُها بنيٌّ منسدل، مزيّنٌ بوردة حمراء. كانت تشرب البيرة وتدخّن سجائر من ماركة «بول مول»، رحّبت بنا قائلةً: اللعنة! كيف حالُكما؟ تبحثان عن بيت؟ هنا في هذه المنطقة؟

ـ يمكنك قول ذلك.

ـ قلْها أنت.

أزاحت زجاجة البيرة، وناولتْني بطاقة مكتوب عليها: «حقيقة قوس قزح ـ لدينا ما تريد ـ ليلى غانت في خدمتك»، نهضتْ ليلى وقالتْ: اتبعاني.

لم تقفلْ باب المكتب إثر خروجنا، ركبتْ سيارتها الـ «كوميت»

موديل ٦٢، عرفتُ نوع السيارة فوراً، فقد كان عندي سيارة «كوميت ٦٢»، وفي الحقيقة تبدو هذه السيارة مثل سيارتي التي بعتُها خردةً تماماً.

سرنا خلفها على طريق ريفيّ مغبرّ عاصف الرياح، مضتْ بضعُ دقائق على مسيرنا، لاحظتُ عدم وجودِ أضواء على جانبيّ الطريق، ووجودَ منحدراتٍ شاهقةٍ على كلا الجانبين. استنتجتُ حالاً أن القيادة على هذا الطريق ليلاً، برفقة مجموعة من السكارى، مجازفة حقيقية.

وأخيراً، وصلنا إلى بيت خشبيّ غير مطليّ الجدران، في الحقيقة كان البيت مطلياً ذات يوم، لكنّ العوامل الجوية أزالت الطلاء الذي كان أبيض على ما يبدو. كان البيتُ مائلاً باتجاه الأمام واليسار - يسارنا حيث ترجّلنا من السيارة، بيتٌ كبير يبدو مريحاً وعملياً.

كلّ ما يحصل معي الآن، سببُه أني قبلتُ أن أقبض سلفةً من أجرة السيناريو، ولأني سمعتُ نصيحة مستشار الضرائب. دخلنا إلى رواق المنزل، صارت الألواح الخشبية تنحني تحت أقدامنا، يبلغ وزني اليوم ٢٢٨ رطلاً، وكله بسبب السُمنة الزائدة لا العضلات، راحتْ أيام المشاجرات يوم كان وزني ١٤٤ رطلاً وطولي ستة أقدام. رحم الله أيام الجوع الرائعة، حين كتبتُ أفضل ما عندي.

قرعتْ ليلى باب المنزل، ونادتْ: عزيزتي دارلين؟ هل أنت لابسة؟ أرجو أن تكوني بثيابك لأني أتيتُ بضيوف معي، يريدون رؤية قلعتك! هاهاها.

دفعتْ ليلى الباب، ودخلنا خلفها.

كان البيت معتماً من الداخل، له رائحة ديكٍ روميّ يحترق في الفرن، كما تحسُّ بأن مخلوقاتٍ مجنّحةً تحلّق فوقك، وتلقي بظلالها عليك. ثمة مصباحٌ يتدلّى من السقف بسلكٍ كهربائي، لكن المادة العازلة

امّحتْ منذ زمن، حتى بانَ معدن السلك. شعرتُ بريح باردة تهبّ على رقبتي من الخلف، ثم عرفتُ أنها نوبة من الخوف، لكني أزحتُ الخوف عندما فطِنتُ إلى أنّ بيتاً كهذا سيكون رخيص السعر.

خرجتْ دارلين من جوف العتمة، بفمٍ كبيرٍ مطليّ بأحمر الشفاه، وشَعرٍ يسافر في شتى الاتجاهات، وعينينِ تنضحانِ باللطفِ لتكشفا عن سنواتٍ من اللهو. تبدو مكتنزة الجسم ببنطالها الجينز الأزرق، وقميصها المزيّن بالورود الزاهية. كانت تضع قِرْطَين على شكل عينين مدوّرتين، تتأرجحان قليلاً مثلما تتحرّك المُقلةُ داخل العين. مشتْ نحونا وهي تحمل سيجارة ماريوانا بيدها، وقالت: ليلى، أيتها الرخيصة؟ ماذا تفعلين هنا؟!

أخذتْ ليلى السيجارة من يد دارلين، سحبتْ منها وأعادتها، ثم سألت: كيف حال أخيكِ السكّير العتيق ويلي؟

ـ اللعنة، لقد رموه في سجن الولاية منذ مدة قريبة، وهو خائفٌ جداً من أن يقوم أحدهم بالاعتداء عليه.

ـ لا تقلقي يا عزيزتي، إنه قبيح كالخنزير.

ـ تظنّين ذلك؟

ـ نعم.

ـ آملُ ذلك.

بعد التعارف والتحيات، سادَ صمت طويل، وقفنا صامتين وكأننا فقدنا أدنى قدرة على التفكير، أو ربما نسينا لماذا جئنا إلى هنا. أعجبني البيت قليلاً، لكني لا أستطيع الوقوف صامتاً هكذا، ولذلك رحتُ أتأمل السلك الكهربائي المتعرّج، الذي يحمل مصباحاً في آخره.

دخل رجلٌ طويل نحيل بتؤدة، سار نحونا وهو يجرّ رجْلاً ميتة،

يقدّم الأولى إلى الأمام ثم يسحب الثانية بتروٍّ إلى جوارها. كان أشبه برجل أعمى دون عكاز، وجهُه يجمع لحيةً شعثاء مع شعرٍ أجعد متشابك. لكنّ عينيه جميلتان، خضراوان غامقتان، ذاك الأخضر الزمرّديّ. اللعين فيه شيء جميل، وله ابتسامة عريضة. اقترب منا، ثم توقف في مكانه، وراح يبتسم ويبتسم.

قالت دارلين: هذا زوجي دبل كوارتت.

أومأ لنا برأسه، فأومأنا أنا وسارة بالمقابل. مالتْ ليلى عليّ وقالت: كلاهما يعملان في صناعة الأفلام.

سئمتْ سارة من الوقت الطويل الذي أضعناه، فقالت: دعونا نلقي نظرة على البيت.

ردت ليلى: لماذا؟ نعم بالتأكيد يا عزيزتي، احملوا أردافكم واتبعوني.

تبعنا ليلى إلى الغرفة الثانية، أثناء سيرنا التفتُّ إلى الخلف، فرأيتُ دبل كوارتت يأخذ سيجارة الماريوانا من دارلين ويدخّنان. يا إلهي! عيناه ساحرتان جداً، عيناه انعكاس حقيقي لروحه، لكن ابتسامته العريضة الواسعة تفسدُ محيّاهُ كلّه.

كنا كما يبدو في غرفة الطعام أو غرفة الجلوس، إذ لا يوجد أثاث في الغرفة، يوجد فراشٌ مائي متكئٌ على أحد الجدران، مكتوبٌ على الفراش بالخطّ الأحمر العريض: «العنكبوت تغنّي وحيدةً».

قالت ليلى: انظرا إلى ساحة الدار، إنها جميلة حقاً.

نظرنا عبر النافذة، كانت الساحة مثل الطريق، لكنها تفوقه بعدد الحفر والأخاديد العميقة، وأكوام الحجارة والقاذورات. وهناك في

الخارج، في طرف الساحة، ثمة مرحاضٌ وحيد منزوٍ، مخلوعُ الباب أيضاً. قلتُ: ساحةٌ جميلة، غريبة عما نعرف.

ردّت السّمْسَارة: هؤلاء الناس فنانون!

أثناء عودتنا إلى الداخل، لمستُ الستارة التي تغطي النافذة، فهرّتْ قطعةٌ من قماش الستارة حيث لمستُها. قالت ليلى: هؤلاء أشخاصٌ عميقون جداً، لا يشغلون أنفسهم بتوافه الأمور، كما تعلم.

صعدنا إلى الطابق العلوي، كان الدرج متيناً على عكس بقية البيت، فشعرنا بالارتياح ونحن نخطو على شيء ثابتٍ وصلب.

في غرفة النوم، ثمة فراش مائي مركون في الزاوية وحيداً، فيه شيء غريب، فهو منتفخ من أحد أطرافه، ما يعطي انطباعاً بأن الانفجار قادمٌ عما قريب.

كانت أرض الحمّام مبلّطة، لكنها لم تنظّف منذ زمنٍ سحيق، فاختفى لون البلاط تحت طبقات الأوساخ ودعسات الأقدام. أما المرحاض فهو مكسوٌّ بقشرة بنيةٍ كسوةً أبدية، لا شيء يمكنه إزالتها، فطبقاتُ الأوساخ تتراكم فوق بعضها بعضاً. كان أشنعَ من أيِّ مرحاضٍ رأيته في أشنع حانة رديئة، من بين كل الحانات التي عرفتها في حياتي. وصرتُ أحاول طردَ صُور تلك المراحيض المقرفة من رأسي، وصورة هذا أيضاً. خرجتُ قليلاً لأعيد التوازن إلى نفسي، استنشقتُ هواءً، أمرتُ عقلي بألاّ يتذكّر أياً منها، ثم دخلتُ معتذراً.

فهمتْني ليلى فقالت: اللعنة، لا بأس يا صديقي.

لم أنظر إلى داخل حوض الاستحمام، لكنني لاحظتُ خربشاتٍ على جداره، وبألوانٍ شتى، عباراتِ مثل:

«إذا لم يكن تيم ليري هو الله، فإن الله مات»(*).

«مات أبي وهو يحارب في لواء ابراهام لينكولن، وللشيطان عضو أنثوي».

«تشارلز ليندبرغ شخص حقير»(**).

هنالك عبارات أخرى مكتوبة على حوض الاستحمام، لكنها مخربشة وصعبة القراءة.

قالت ليلى: سأترككما تتجولان في المكان، لتقرّرا بهدوء. كما تعلمان؛ شراءُ منزل جديد يسبّب الصداع، ولا أريدكما أن تتسرّعا.

ما إن سمعنا وقْعَ أقدام ليلى وهي تبتعد، حتى خرجنا إلى الشرفة، وهناك رأينا ركوةَ قهوةٍ عتيقة صدئة، معلّقة ببقايا ثوب منسول. فجأةً صاحت سارة: يا إلهي! يا إلهي!

ـ ماذا بكِ؟

ـ لقد رأيتُ صوراً لهذا المنزل من قبل، تذكّرت الآن، إنه المنزل ذاته!

ـ ماذا؟ ما الأمر؟

ـ إنه واحدٌ من المنازل التي ارتكبَ فيها تشارلز مانسون إحدى جرائمه(***).

ـ متأكدة؟

(*) تيم ليري (١٩٢٠ ـ ١٩٩٦): كاتب وعالم نفس أمريكي. (م)

(**) تشارلز ليندبرغ (١٩٠٢ ـ ١٩٧٤): كاتب وناشط اجتماعي أمريكي. (م)

(***) تشارلز مانسون (١٩٣٤ ـ): زعيم طائفة دينية أمريكي، محكوم عليه بالسجن المؤبد، بسبب جرائم القتل التي ارتكبها وتابعوه في عدة ولايات. (م)

ـ نعم، نعم.

ـ هيّا نخرج من هنا.

نزلنا إلى الطابق السفلي، فوجدناهم بانتظارنا؛ ليلى، دارلين، دبل كوارتت. سألتْ ليلى: إذاً؟ ما رأيكما؟

أخبرتُها: عندي بطاقتك مع رقم الهاتف، سنبقى على اتصال.

قالت دارلين: إن كنتُما فنانَين، يمكننا أن نخفّض السعر قليلاً، فنحنُ نحبّ الفنانين، هل أنتما فنانان؟

أجبتها: لا، أنا لستُ فناناً على الإطلاق.

قالت ليلى: يمكنني أن أُريكم منازل أخرى.

ردّت سارة: لا لا، رأينا ما يكفي اليوم، يجب أن نرتاح.

كان علينا أن ندفعهم حتى نستطيع الخروج، وطوال الوقت، كان دبل كوارتت يبتسم ويبتسم ويبتسم.

١١

عدتُ إلى بيتي، فوجدتُ مغلَّفين في صندوق البريد، وبينما راحتْ سارة لتجلب زجاجة النبيذ، فتحتُ أحدهما.

كان مخطوطاً مجهولَ المصدر، كُتبَ على غلافه ملاحظة:

«تشيناسكي! تباً لك! كنتَ كاتباً عظيماً يوماً ما، لكنكَ الآن رديء! لقد بعتَ نفسك! جدّتي تكتب أفضل منك! عليكَ أن تدفن رأسك في مؤخرتك لزمن طويل! أرسلتُ كتاباتي إلى الناشر الذي تنشر عنده، فردّ عليّ برسالة يقول فيها: «شكراً على الإرسال، لكننا مُتخمون بالمخطوطات»، ذاك القضيب! سوف أُتخم مؤخرته! سوف أطعمُه برازاً على الفطور!

الشعراءُ العظام يتمّ تجاهلهم، إنهم خائفون من الشعراء العظام! كنتَ شاعراً عظيماً يوماً ما، لكنك الآن مجرّدُ ضمّادة تغطي جرحاً متقيّحاً! أنتَ الآن تبتلع قضيبك تحت سماء تمطر قيئاً! لقد بعتَ خصيتيك للجزار! لقد قتلتَ طفلَ حبيبتك! أنت قردٌ عفن! دائماً وأبداً.

أرفقُ لك بعضاً من آخر ما كتبت...»

تحت الملاحظة، وقّع اسمه بحروف متقافزة إلى الأسفل ثم إلى اليمين، راسماً خطاً منحنياً منبثقاً من آخر حروف اسمه. وتحت الاسم

ثمة رسمٌ لوجه. كان المغلّف مليئاً بقصائد مكتوبة بخطّ اليد، مكتوبةٍ بعجالةٍ بحبرٍ أزرق على ورق أصفر، وبقلم رفيع الخط.

جلبت سارة زجاجة النبيذ والفتاحة، فتحتِ الزجاجة وصبّت كأسين، ثم قالت: تشارلز مانسون! لا غرابة في أن يكون سعر البيت رخيصاً.

ـ إني سعيد لأنك تذكرت تلك الصور.

أمسكتْ سارة جريدة «هيرالد إكزامينر»، وبدأتُ أنا بقراءة أولى قصائد المخطوط:

[الشاعر]

يذبحون الشاعر

يحرقون الشاعر

يتجاهلون الشاعر

يكرهون الشاعر

لكن القمر يعرف الشاعر

والعاهرات يعرفن ألمه المبرح

ولذلك يمنحنه الجنس مجانا

ويلعقن خصيتيه في ابتهال وخشوع

الشاعر لا يموت

وحتى عندما يموت

فإنه يجلس على القمر

ويرفع اصبعه الوسطى في وجه الكون!

[الشاعر أثناء اللعب]

أقبّلُ حبّتي الفراولة ـ حلْمتيها

ألعقُ الوبرَ على أردافها

أشربُ سائلها بطعم الفانيلا

وعند الفجر تلعقُ أصابعَ قدمي

فأعطسُ من مؤخرتي

تضحكُ، ثم ننام.

لم أشعر برغبة لمتابعة قراءة المخطوط، عرفتُ أن بقية القصائد ستكون عن الشاعر. قالت سارة دون أن ترفع عينيها عن الجريدة: هل أرسلوا لكَ قصائد لكي تقرأها؟

ـ نعم، يحدث هذا ثلاث أو أربع مرات في الشهر.

ـ لكنك لست صاحب دار نشر، فلمَ يفعلون ذلك؟

ـ تجمعُنا علاقة كراهية ومحبّة، هكذا يشعرون تجاهي.

ـ وكيف رأيت القصائد؟

ـ ليس بارعاً كما يحسب نفسه، ومعظمُ الشعراء يقعون بنفس الوهم.

ـ هل تصلك قصائد من نساء أيضاً؟

ـ نعم، وبعضها مرفقة بصور عارية ومغرية، يحسبنَ أني قادر على مساعدتهنّ بالنشر، أو يطلبن مني أن أكتب عنهنّ في الصحافة.

ـ يا لهنّ من عاهرات!

ـ صحيح.

قرعنا كأسينا وشربنا، ثم سكبتُ كأسين جديدين. فتحتُ المغلّف الثاني، كان مرسلاً من فين مرباد تحت عنوان: «بنود تأسيس الشركة». بدأتُ بالقراءة فوجدته مكتوباً بصياغةٍ ومصطلحاتٍ قانونية، حاولتُ تفكيكها وتحويلها إلى لغةٍ واضحة، أحد البنود التي كرهتُها من النظرة الأولى، يقول:

«إذا حُكمَ على رئيس الشركة بالجنون، وفقاً لتقرير الطبيب النفسي المعيّن من قبل المحكمة، يحقّ لبقية أعضاء الشركة المذكورة، التصويت بالأغلبية على تقسيم موجودات الشركة المذكورة بالتساوي فيما بينهم».

أخذتُ قلمي، وشطبتُ على هذا البند بخطوط عريضة. سكبتُ شراباً جديداً، وتابعتُ القراءة:

«إذا حُكم على رئيس الشركة المذكورة بأنه غير قادر على أداء واجباته، بسبب تناوله المخدّرات أو المواد المُسكِرة، أو اعتُبرَ مُفرطاً في ممارسة الجنس بشكلٍ يضرُّ المصلحة العامة للمجتمع أو الشركة، وبعد تصويت أغلبية الأعضاء المذكورين، يتمّ تجريد رئيس الشركة المذكورة من سلطاته، وتقسيم موجوداتها بالتساوي بين الأعضاء المتبقين».

سحبتُ قلمي، ووضعتُ دائرةً حول هذا البند، ثم أكملتُ القراءة:

«إذا حُكم على رئيس الشركة بالخرَف الشيخوخي...»

تركتُ البند،

«إذا كان رئيس الشركة مدمناً على لعب القمار...»

شطبتُ عليه،

«يكون لرئيس الشركة صوتٌ واحد يعادل صوت أي عضو في الشركة، وتحتسب جميع الأصوات بالتساوي...»

شطبته.

قرأتُ وقرأت، كان ما أقرأه مريعاً، بربرياً، ضرباً من الإرهاب. رحتُ أشطب بنداً تلو الآخر، كانوا قرابة ١٧ أو ١٨ صفحة، وعندما انتهيتُ كانت الصفحاتُ كتلةً من الخطوط والأسطر المشطوبة.

جاءت سارة بزجاجة جديدة، دفعتُ الأوراق جانباً وقلتُ: يا إلهي! يا إلهي! هذه الشروط طيّرتْ عقلي! إنها حقيرة ومجحفة وتعيسة! شيء لا يصدّق!

- إذاً، لا توقّع على هذا الهراء.

- أبداً.

وجدتُ ورقة بجواري فكتبتُ عليها:

«فين: لا أستطيع القيام بذلك، إنه كابوس في الجحيم». ثم وضعتُ جميع الأوراق في مغلّف بريدي، ودفعتها جانباً لأرسلها في وقت آخر. قالت سارة: يا لهُ من يومٍ حافل!

- اكتشفتُ أن تشارلز مانسون ليس القاتل الوحيد.

- صحيح، فهو يفجّر الناس مباشرةً، أما الآخرون فيقتلون عن بعد، ونادراً ما يُلقى القبضُ عليهم.

- فلنشربْ قليلاً، لعلّنا نستعيد حياتنا الطبيعية.

ـ فلنشربْ حتى طلوع الشمس.

ـ حقاً؟

ـ نعم، لمَ لا؟!

ـ أنتِ خارقة.

وبدأتْ نفسيّتي تتحسّن فوراً.

١٢

للمنزل الذي كنتُ أقيمُ فيه في تلك الأيام؛ عدّة ميزات. منها غرفة النوم المطلية بالأزرق الغامق، الأزرق المعتم. كان هذا الأزرق الغامق المعتم بمثابة جنّةٍ حين أستيقظُ مُصاباً بالصداع، بعد سهرةٍ طويلة. كنتُ أصاب بصداع حادٍّ وحشيّ، يدفعني أحياناً إلى درجة القتل، خاصةً حينما كنتُ أتناول حبوباً، يعطيني إياها أشخاصٌ دون أن أسألهم ما هي. في بعض الليالي كنتُ أعرف أني إذا ما غفوتُ سوف أموت، ولذلك أتمشّى طوال الليل من غرفة النوم إلى الحمّام، ومن الحمّام إلى غرفة الجلوس فالمطبخ. أفتحُ الثلاجة وأغلقها مراراً وتكراراً، أفتح صنبور الماء وأغلقه، ثم أعود إلى الحمّام لأفتح الصنابير وأغلقها، ثم أفتح الماء على المرحاض. أشدُّ أذنيّ، أستنشقُ الهواء وأزفِرُ. إلى أن تطلع الشمس فأعرف أني صرتُ بأمان، ثم أخلد للنوم في الغرفة ذات الجدران الزرقاء الغامقة المعتمة، وأتعافى.

من الميزات الأخرى للمنزل؛ زياراتُ بعض السيدات المطرودات في الساعة الثالثة أو الرابعة فجراً، في الحقيقة لم يكنّ سيداتٍ فاتنات، لكنهنّ مخبولاتُ العقل، وهذا ما أغراني بالمغامرة معهنّ. الحقيقة المريرة أنّ معظمهنّ لم يجدنَ مكاناً يأوينَ إليه، وقد أحببنَ توافر المشروبات في بيتي، ولأني لا أحاول جاهداً أخذهنّ إلى السرير.

طبعاً بعدما التقيتُ بسارة، تغيّر هذا الجزءُ من حياتي. كما أن سكّان الجادّة الغربية من حيّنا «كارلتون واي» قد تغيّروا أيضاً، فلقد كانوا سابقاً من البيض الفقراء، لكنّ المشكلات السياسية في أمريكا الوسطى ومناطق أخرى من العالم، جلبتْ أشكالاً جديدة من السكان إلى الحيّ. رجالٌ صغارٌ في الحجم وفي السنّ، ذوو بشرةٍ سمراء، وكذلك نساؤهم وأطفالهم وأقرباؤهم وأصدقاؤهم، بدؤوا يملؤون الشقق والساحات، كانوا يقيمون بأعداد كبيرةٍ في شقة واحدة، وكنتُ واحداً من البيض القلائل المتبقين في هذا الحيّ الملوّن.

ترى أطفالهم يركضون جيئةً وذهاباً على الطرقات، وجميعهم تبدو أعمارهم بين سنتين وسبع سنوات، لم تكن لديهم أيةُ درّاجات أو ألعاب. أما النساء فنادراً ما أرى إحداهنّ، لكونهنّ مختبئاتٍ في الداخل. ثمة رجال يختبئون في البيوت أيضاً، حتى لا يعرف مالكُ العقار بعدد الأشخاص القاطنين في شقة واحدة. الرجال القلائل الذين نراهم في الخارج، هم المستأجرون بعقدٍ رسمي، فهم على الأقل يدفعون الإيجار، أما كيف يؤمّنون معيشتهم فلا أعلم.

كان الرجال ضئيلي الحجم، نحيلي الجسم، صامتين عابسين. معظمهم يجلسون عند مداخل البيوت بقمصانهم الداخلية، مُنحنينَ إلى الأمام قليلاً، ونادراً ما أرى أحدهم يدخن سيجارة، يجلسون عند مداخل البيوت والأبنية دون أية حركة.

في بعض الأحيان، يشتري أحدهم سيارة قديمة منسّقة، فتراه يتجوّل فيها ضمن الحي، إذ لم يكن لهذي السيارات أيُّ تأمين، ولا يحمل السائق رخصة قيادة، وتكون أوراق السيارة منتهية الصلاحية وبحاجة إلى تجديد. كانت مكابحُ هذه السيارات غير فعالةٍ، فغالباً لا تقفُ عند نقاط

التوقف والتقاطعات، وكذلك تتجاوز الإشارات الحمراء في أغلب المرات. مع ذلك كان عدد حوادث السير قليلاً، وكأنّ قوىً غامضةً ما تحميهم.

بعد فترة قريبة تتعطّل هذه السيارات، لكنّ جيراني الجُدد لا يتخلّصون منها، فتراهم يجرّونها إلى مدخل البيت، ويركنونها أمام الباب تماماً. في البداية يعملون على المحرك، ينزعون غطاءه ليتركوه يصدأ تحت المطر. ثم يرفعون السيارة على أحجارٍ ويفكّون عجلاتها، يحملون العجلات إلى داخل البيت، ويخبّئونها خوفاً من أن تُسرَق في الليل.

حين كنتُ مقيماً هناك، كان في الساحة صفّان من السيارات المركونة على أحجار. بينما يجلس الرجال دون حركة عند مداخل البيوت، مرتدين قمصانهم الداخلية فقط. أحياناً كنتُ أومئُ أو ألوّح لهم، لكنهم لا يردّون السلام. ومن الواضح أنهم لا يفهمون أو لا يقرؤون إنذارات الطرد التي تصلهم، فيمزّقونها. مع أني رأيتهم مرّاتٍ يقرؤون صحيفة لوس آنجلس اليومية. رغم ذلك كانوا صَبُورين وجَلُودين، فمقارنةً مع حيواتهم السابقة، تبدو الحياة هنا سهلة.

على كل حال، اقترح مستشارُ الضرائب أن أشتري منزلاً، ولم يكن الموضوع كما أراه، جزءاً من هجرة البيض من المناطق المختلطة الأعراق إلى المناطق ذات الأكثرية البيضاء. لكن من يعرف؟ فقد لاحظتُ أن جميع تنقلاتي السكنية في لوس آنجلس، خلال السنوات الماضية، كانت باتجاه الشمال والغرب.

وأخيراً، وبعد أسابيع من البحث المتواصل، وجدنا بيتاً سندفع له - بعد الدفعة الأولى - قسطاً شهرياً قدره ٧٨٩ دولار. كان للبيت سورٌ من

الشجيرات يحيط به من جهة الشارع، وله حديقة أمامية، فيغدو بذلك معزولاً قليلاً عن الضجيج. أحسستُ أنه المكان المناسب للعزلة والاختباء. كان البيت مؤلفاً من طابقين، الطابق العلوي يحوي غرف النوم والحمّامات والغرفة التي سأخصّصها للكتابة. كما وجدتُ في البيت طاولة كتابة كبيرة، عتيقة وغليظة الشكل، وأخيراً بعد عقود من الكتابة سيكون عندي مكتب. نعم أشعر بالخوف، بالخوف من التحوّل إلى شخص يشبه الآخرين، والأسوأ أني وقّعتُ عقداً لكتابة سيناريو. أتُراني ملعوناً من الآلهة؟ ومُقدّراً عليّ العذاب والهلاك؟! هل باتتْ نهايتي وشيكة؟ لا أحسُّ باقتراب النهاية، وهل يشعرُ المرء باقتراب نهايته عند اقترابها؟!

بعد أن قمتُ وسارة بنقل بعض ممتلكاتنا القليلة إلى المنزل الجديد، حانتِ اللحظة الحاسمة، وضعتُ الآلة الكاتبة على الطاولة الكبيرة، ملأتها بالورق الأبيض، وضربتُ على الأحرف. ما زالت الآلة تعمل بشكل جيد. كانت الغرفة الجديدة واسعةً، فيها أماكن متعددة لوضع منفضة السجائر والراديو والقنينة.

لا تصدّقْ مَنْ يقول غير هذا: تبدأ الحياةُ في الخامسة والستين من العمر.

١٣

في «مارينا ديل ري» تغدو تفاصيل الحياة أصعب، فمن أجل التنقّل كان جون بينشو يقود سيارة «بونتياك ١٩٦٨» خضراء مكشوفة السقف، وفرانسوا راسين سيارة «فورد ١٩٥٨» بنية اللون. وكان لديهما دراجتان ناريتان من نوع «كاوازاكي»، واحدة ٧٥٠ والأخرى ١٠٠٠ سنتمتر مربع.

استعار فينر زيرغوغ سيارة الـ «فورد ١٩٥٨»، لكنه نسيَ أن يملأ المبرّد بالماء، فانكسر جسم المحرّك. قال جون معلّقاً على ذلك: إنه عبقريّ، لا يفطنُ لهذه الأمور التافهة.

كانت الدراجتان الناريتان خيارهما الأول للتنقل، أما الـ «فورد ١٩٥٨» فتستعملُ للرحلات القصيرة. وعندما سافر فرانسوا إلى فرنسا، قام جون ببيع الـ «فورد ١٩٥٨».

ومن ثم، وكما العادة، جاء اليوم الذي اتصل فيه جون: يجب أن أنتقل من بيتي، لأنهم يريدون هدم البناء، وإنشاءَ فندق أو شيء ما في مكانه. اللعنة! لا أعرف إلى أين أذهب، كنتُ أفضّل البقاء في هذه المدينة، لأبحث عن مموّل للسيناريو الذي تكتبه، وبالمناسبة ما أخبار السيناريو؟

ـ أعمل عليه.

ـ إني على وشك التوقيع مع مموّل، وفي حال فشلت الصفقة سوف أتعاقد مع مموّل آخر في كندا. الجرافات في طريقها إلى بيتي.

ـ اسمع جون، يمكنك المجيء إلى بيتي، لدينا غرفة نوم في الطابق السفلي.

ـ هل أنت جاد؟

ـ طبعاً.

ـ سأكون خارج البيت في معظم الأوقات، لن تحسّ بوجودي.

ـ أما زالت سيارتك الـ «بونتياك ١٩٦٨» معك؟

ـ نعم.

ـ إذن احزمْ أمتعتك وتعال فوراً.

نزلتُ إلى الطابق السفلي وأخبرتُ سارة: جون قادم ليسكن معنا فترة من الزمن.

ـ ماذا؟

ـ جون بينشو، الجرافات تهدم بيته، سيبقى عندنا لفترة.

ـ هانك، تعرف أنك لا تطيق العيش مع الناس، سوف تُجنّ.

ـ إنها فترة مؤقتة فقط.

ـ سوف تجلس في الطابق العلوي لتكتب، بينما يجلس هو في الطابق السفلي، لن تسير الأمور بهذه الطريقة.

ـ سوف أُسيّرُها، لا تنسي أن جون دفع لي نقوداً لكي أكتب السيناريو.

ـ حظاً موفقاً.

استدارتْ وعادتْ إلى المطبخ.

لم تكن الليلتان الأُوليان سيئتين، جلستُ مع جون وسارة نشربُ ونتحدث. حكى جون عدة قصص، لا سيما عن مشاكله مع الممثلين، والأمور التي يقوم بها ليدفعهم إلى التمثيل. فمرةً امتنع أحد الممثلين، في وسط التصوير، عن الكلام. كان يحفظ الدور لكنّه يرفض أداءه، ويصرّ على أن يتمّ تصوير أحد المشاهد كما يريده هو. كان التصوير يجري وسط غابة ما، ولم يكن لديهم المال أو الوقت للمماطلة، وفي النهاية قال جون للممثل: «اللعنة! مثّلْ كما تريد». فقام الممثل بأداء المشهد كما يريد، وبحوارٍ من عنده، لكنه لم يكن يدري أنهم لم يضعوا فيلماً في الكاميرا، وهكذا حُلّت المشكلة.

في الليلة الثانية سفكنا النبيذ بضراوة، تحدثتُ عني قليلاً، كرّرتُ حوادث سبق لي أن كتبتها منذ زمن. كان الوقت بعد منتصف الليل حين قال جون: «جيزيل مغرمة بمخرج ذي خصية واحدة»، وجيزيل تكون عشيقة جون المقيمة في باريس، قلتُ له: يؤسفني سماع ذلك.

ـ لكن الأمر ازداد سوءاً، فالرجل مصاب بالسرطان، وقد استأصلوا خصيته الثانية أيضاً، وجيزيل على حافة الجنون.

ـ معها حق، حظها مريع!

ـ بالتأكيد، أراسلها، أتصل بها، أفعل كل ما بوسعي فعله. وعندما كانوا في وسط التصوير...

(كل الأحداث التي يسردها جون تقع في وسط التصوير).

جيزيل ممثلة مشهورة في فرنسا، كانت تسكن مع جون في باريس. حاولنا مواساة جون حول عشيقته وحظها الفظيع، بينما كان يلفُّ سيجاراً، يلعقه بلسانه، يضعه في فمه ويشعله، يستنشق بعمقٍ، ثم يطلق غيمةً من الدخان. قال جون: تعرف يا هانك، كنتُ واثقاً دائماً من أنك

ستكتب سيناريو لأجلي، ثمة أشياء يدركها المرء غريزياً. كنتُ أعلم بذلك منذ زمن بعيد، وأبحث عن المال اللازم لسنوات، قبل أن أتواصل معك بزمن.

ـ قد أكتب سيناريو رديئاً جداً.

ـ لن تفعل، لقد قرأتُ كل كتبك.

ـ كان ذلك في الماضي، وفي مهنة الكتابة.. لا أكثرَ من النجوم الآفلة.

ـ هذا لا ينطبق عليك.

تدخلت سارة: معه حق يا هانك، أنت كاتب موهوب بالفطرة.

ـ لكنه سيناريو! اللعنة! كأنْ تأخذ شخصاً يركب مزلجةً ذات عجلات، وتضعه على مزلجة الجليد.

عاد جون: ستفعلها، أعرف ذلك، وثقتُ بذلك منذ أن كنتُ في روسيا.

ـ روسيا؟

ـ نعم، فقبل أن ألتقي بك سافرتُ إلى روسيا، بحثاً عن المال اللازم لإنتاج السيناريو المستقبليّ.

ـ والذي لا أعرف شيئاً عنه لحد اللحظة!

ـ بالضبط! أنا الوحيد الذي يعرف عنه. بكل حال سمعتُ من مصدر موثوق بأن هناك سيدة في روسيا، تملك ثمانين مليون دولار في حسابٍ مصرفي في سويسرا.

ـ تبدو قصة مناسبة لفيلم سوقيّ.

ـ أعرف، لكني بحثتُ عنها، لديّ مصادر مفيدة في أمر كهذا، وموثوقة أيضاً، لا أستطيع البوح بها.

قالت سارة: لا نريد أن نعرفها.

تابع جون: وصلني أخيراً عنوان السيدة، وبدأتُ تنفيذ خطة طويلة الأمد، ورحتُ أرسل إليها رسائل...

سألت سارة: ماذا فعلت؟ وهل أرفقت صوراً إباحية مع الرسائل؟

أضفتُ: مؤخرات عارية؟!

ردّ جون: ليس من البداية، ففي البداية كانت الرسائل رسمية جداً. أخبرتُها أني حصلت على عنوانها بطريقة غريبة، إذ وجدتُه مكتوباً على قطعة ورق موضوعةٍ في علبة حذاء متروكةٍ في خزانة بباريس. وخمّنتُ بناءً على ذلك بأن القدر يريدنا أن نجتمع سوياً، آه أنتما لا تعرفان كم تعبتُ في صياغة تلك الرسائل.

ـ تفعل كل هذا لكي تحصل على المال اللازم لإنتاج فيلم سينمائي؟

ـ أفعل أكثر من هذا.

ـ هل تقتل من أجل فيلم؟

ـ أرجوك لا تسأل سؤالاً كهذا. المهمّ أرسلتُ رسالة تلو الأخرى، وتدريجياً كنتُ أحوّلها إلى رسائل غرامية.

قالت سارة: لم أكن أعرف أنك تجيد اللغة الروسية.

أجاب جون: كنتُ أكتب بالفرنسية، فلدى تلك السيدة مترجمة، وكانت السيدة تردّ على رسائلي بالروسية، ثم أعطيها لمترجمي ليترجمها إلى الفرنسية.

قلتُ: قصة كهذه، لا تحدث حتى في الأفلام السخيفة!

ـ أعلم، لكني فكرتُ بمبلغ الثمانين مليون دولار المودَع في مصرف سويسري، وراحت رسائلي تتطور يوماً بعد يوم، من رسائل غرامية إلى شغفٍ وهيام، ثم إثارة واشتهاء.

ملأتُ كأس جون وقلتُ: اشربْ مزيداً من النبيذ.

ـ وأخيراً، قبلتْ السيدة أن آتي لزيارتها، وفجأةً دون حسبان وجدتُ نفسي بين ثلوج موسكو...

ـ ثلوج موسكو!

ـ حجزتُ غرفة هناك، أظنّها كانت مراقبةً بأجهزة تنصّت سرية، زرعتها الاستخبارات السوفييتية. حتى المرحاض كان مراقباً، وربما كانوا يسمعون برازي وهو يسقط.

ـ وأنا كنتُ أسمعه.

ـ لا لا، صدقني. وأخيراً اتفقنا على موعدٍ للقاء، ذهبتُ إلى بيتها وطرقتُ الباب، فُتحَ البابُ لأرى فتاةً ساحرة الجمال! لم أرَ أجملَ منها في حياتي!

ـ يا إلهي! جون يكفي هذا.

ـ لكنها لم تكن السيدة، بل مترجمتها.

سألتْ سارة: جون، هل شربت شيئاً غير هذا النبيذ؟

ـ لا أبداً، إنها الحقيقة، دخلتُ إلى الغرفة فرأيت عجوزاً شمطاء متشحة بالأسود، لم تكن لديها أية أسنان، لكنها تملك الكثير من البثور والثآليل. اقتربتُ منها، انحنيتُ وأمسكتُ يدها، أغمضتُ عينيّ وقبّلتُ اليد. كانت المترجمة جالسةً بجوارنا، التفتُّ إليها وقلتُ: «أريد أن نكون وحدنا». تكلّمت المترجمة مع العجوز ثم

التفتت إلي وقالت: «ميترا ترغب أن تكونا لوحدكما أيضاً، لكن في الكنيسة، ميترا متديّنة جداً». قلتُ: «لكني أؤمن بالحبّ الذي بيننا». تكلمت المترجمة مع العجوز، والعجوز مع المترجمة، ثم ردّت المترجمة: «ميترا تقول إن الحب ممكن، لكن عليك أن تذهب معها إلى الكنيسة أولاً». أجبتُ بنعم، فراحت العجوز تنهض عن كرسيها بتثاقل، ثم غادرنا الغرفة معاً، تاركين الفتاة الجميلة وراءنا.

قلتُ: هذه القصة اللعينة، تستحقُّ جائزة الأوسكار.

ـ أرجوك، تذكّر أني كنتُ أبحث عن المال من أجل السيناريو الذي ستكتبه.

ـ نعم، لطفاً جون، تابع سرد القصة.

ـ حسناً، ذهبنا إلى الكنيسة، جلسنا في القاعة خاشعين، مع أني لستُ متديناً، انحنينا عدة مرات بصمت، ثم لكأنّني فنهضنا ومشينا إلى المذبح حيث الكثير من الشموع. كانت بعض الشموع مشتعلةً وأخرى منطفئة، شرعتْ تشعلُ العديد من الشموع بشغف واستمتاع. كان فمها يرتجف، وثمة جدولان صغيران من اللُعاب يسيلان من جانبيْ فمها، يسيلان ثم يختفيان بين التجاعيد. أرجوكما صدّقاني، ليس عندي أية كراهية تجاه كبار السنّ، لكنْ لماذا يشيخُ بعضُ الناس بشكلٍ أسوأ مما يشيخ البقية؟

ـ لا أعرف، لكني أؤمن بفكرة مفادُها أن الأشخاص الذين لا يفكّرون كثيراً؛ يبدون أكثر شباباً من عمرهم الحقيقي.

ـ لا أعتقد أن هذه العجوز تفكر كثيراً. على كل حال، بعدَ أن أشعلت العديد من الشموع، وابتهجتْ لمنظرها، أمسكتْ يدي

وعصرتها. كانت قوية فعلاً، عجوز شمطاء قوية. ثم جرّتني خلفها، وأخذتني إلى تمثال للسيد المسيح.

- أكملْ.

- نسيتُ أني معها، فانحنتْ وراحتْ تقبّل قدميّ المسيح، حتى صارتْ أصابع التمثال مبلّلة بلُعابها. كانت في حالة من الخشوع والانفعال، جسدها يرتجف، ثم استقامتْ وأمسكت بيدي، وأشارتْ إلى أصابع المسيح. ابتسمتُ، لكنها أشارتْ ثانيةً، ثم أمسكتْ بي ودفعتْني عنوةً باتجاه القدمين. شعرتُ بغضبٍ في البداية، ثم فكّرتُ بمبلغ الثمانين مليون دولار، فانحنيتُ وقبّلتُ قدميّ التمثال. كما تعلم، إنهم لا ينظّفون الأقدام في روسيا، لُعابُ ميترا.. ومعه الغبار.. لولا إرادتي العظيمة لما استطعتُ التقبيل. وبعدها أخذتْني ميترا إلى قاعة الكنيسة مرة أخرى، جلسنا مطأطأيّ الرأس، وفجأةً أمسكتْ بي ووضعتْ فمها على فمي! أرجو أن تفهماني! ليس عندي أيّ عداء لكبار السنّ والعجائز، لكن تقبيلها أشبهُ بتقبيل فتحة المجاري. سحبتُ فمي، بدأتْ أشياء تتحرك وتنقلب في معدتي، ذهبتُ إلى حجرة الاعتراف، أسدلتُ الستائر خلفي، نزلتُ على ركبتيّ وتقيّأت. ثم خرجتُ وغادرنا الكنيسة، تركتُها عند باب بيتها، واشتريتُ زجاجة فودكا، وعدتُ إلى غرفتي.

- هل تعرف أني لو كتبتُ سيناريو سينمائياً مثل هذه القصة، لطردت من البلدة.

- أعرف، لكن انتظر، لم تنتهِ الحكاية بعد. أثناء شرب الفودكا أحسستُ أن المغامرة قد انتهت، ولا حاجة إلى الانسحاب منها

أصلاً، فمن الواضح أنها امرأة مجنونة، فلا أحد يقبّل في الكنيسة، هل سمعت بذلك من قبل؟ ربما أثناء الزفاف فقط، ولذا قررتُ...

ـ أن تتزوّجها وتقبّلها؟!

ـ لا، قررتُ أن أتأكد من مبلغ الثمانين مليون دولار. بعدما أنهيتُ الفودكا، شرعتُ بكتابة رسالة غرامية طويلة لـ ميترا، لكني كنتُ أتخيّل المترجمة طوال الوقت. كانت الرسالة غرامية، ولكن بين سطور العشق والهيام؛ شرحتُ لها أني أريد صناعة فيلم عني وعنها، وأني سمعتُ بأنها تملك مالاً في مصرف سويسري، لكن المال لم يكنْ سبب وجودي إلى جانبها، فأنا فقط أحتاجُ إلى تمويلٍ لإنتاج فيلم عن قصة غرامنا، وأعرضه على شاشات السينما، ليشاهده جميع الناس، وعشاق المسيح كذلك.

سألت سارة: فعلتَ كل ذلك لتحصل على المال اللازم لإنتاج سيناريو سينمائي لا يعرف هانك شيئاً عنه، ولم يكتبه لحد الآن!

ـ بالضبط!

قلتُ: أنتَ مجنون!

ـ ربما، وهكذا وصلتْ رسالتي الغرامية إلى السيدة العجوز، وتوقعتُ أن توافق على الذهاب معي إلى سويسرا لنسحب المبلغ. بدأتُ بترتيب أمور السفر، وخلال ذلك قمنا برحلتين أُخريين لتقبيل قدميّ المسيح، ولإشعال بعض الشموع، ولتقبّلني ذات القبلة. لكنْ بعد مدة، اتصل بي أحد مصادري الموثوقة، وأخبرني أن المرأة التي تملك ثمانين مليون دولار في مصرف سويسري، تحمل نفس اسم هذه السيدة، وهي في عمرها ذاته، لكنها مولودة

في مدينة أخرى من أبوين آخرين. كانت مصادفةً حمقاء، وانتهى كل شيء. لقد خُدعتُ، وصار عليّ أن أبحث عن المال في مكان آخر.

ـ هذه واحدة من أكثر القصص مأساوية، لم أسمع بمثلها في حياتي.

ـ أنا آسف، لكنها قصة حقيقية.

سألت سارة: لماذا تعاني كل هذه المعاناة من أجل صناعة الأفلام؟

ـ لأني أعشق هذه المهنة.

١٤

بعد يومين، ذهبنا إلى استديو داني سيرفر في فينيس للمرة الثانية، أوضح جون: «أحدهم كتب فيلماً عن الأحياء الفقيرة والسكارى، فلمَ لا نذهب ونرى؟

ذهبتُ مع جون وسارة، كنا آخر الواصِلين إلى الصالة، لكنّ الحانة القريبة كانت مقفلة. قلتُ لجون: الحانة مغلقة!

ـ صحيح.

ـ اسمع، علينا أن نجلب شيئاً لنشربه.

ـ يوجد بائع خمور قريب من هنا، باتجاه البركة، على الطرف الثاني من الطريق.

ـ سنعود حالاً.

ذهبنا إذاً، اشترينا زجاجتي نبيذ أحمر مع فتاحة، وفي طريق العودة اضطررنا للتوقف مرتين بسبب المتسولين. وصلنا إلى الاستديو، دفعتُ الباب ودخلنا. كانت الصالة معتمة، وقد بدأ عرض الفيلم قبل وصولنا. قلتُ: سحقاً! إني لا أرى، لا أستطيع رؤية أي شيء!

قال أحدهم: «اسكُتْ»، فقلتُ: «وأنت أيضاً». ثم قالت امرأة: «كُنْ هادئاً أرجوك».

قلتُ لسارة: فلنذهب إلى الصف الأول، أظنّ أني أرى كرسيين شاغرين هناك، لستُ متأكداً. نزلنا باتجاه الصف الأول، دستُ على قدم أحدهم، فسمعتُه يقول: «أيها الوغد»، فأجبتُه: «إلى جهنّم».

وأخيراً وجدنا كرسيين وجلسنا، أخرجتْ سارة علبة السجائر والولاعة، بينما كنتُ أفتحُ قنينة النبيذ. لم يكن معنا كؤوس للشرب، ولذا أخذتُ رشفة من القنينة ومرّرتُها إلى سارة، فعلتْ سارة الشيء ذاته، ثم أشعلتْ سيجارتين لنا.

الرجل الذي كتب هذا الفيلم: «عائدٌ من عالم الموتى»، كان يكتب مسلسلات تلفزيونية، تلك المسلسلات التي يتابعها جميع أفراد العائلة، إنه: بات سيلرز. استمرّ عرضُ مسلسلاته سنوات طويلة، إلى أن أدمن الكحول وتوقف عن الكتابة، ثم انفصل عن زوجته وخسر عائلته، ثم بيته. فعاش في الحي الفقير الذي كتب الفيلم عنه، وأراد لهذا الفيلم أن يشكّل عودةً قوية له. كان الرجل مفلساً، وقد رأيته عند تقديم الفيلم، يحاول التودُّد من الجميع.

أخذتُ جرعة من النبيذ، وأعدتُ القنينة لسارة.

بدأتُ بمتابعة الفيلم، كان المشهد في الحيّ الفقير، مشهداً مضاءً بمشاعل النار، ويبدو الرجال والنساء مرتدين ملابسَ أنيقة لا تناسب الحي الفقير. لا تظهر عليهم هيئة المشردين، فهُم كالأشخاص الذين يعملون في صناعة الأفلام في هوليوود، مظهرُهم يوحي بأنهم ممثلون. كل واحد منهم يجرّ أمامه عربةً مثل عربة التسوّق، يضع فيها أغراضه. لكن العربات كانت جديدة جداً، تلمع في ضوءِ المشاعل، ولم يسبقْ لي أن رأيتُ عربات تسوّق جديدة في أي متجرٍ كان، من الواضح أنهم اشتروا هذه العربات الجديدة لغرض تصوير الفيلم فقط.

قلتُ لسارة: «هاتي الزجاجة»، رفعتُها عالياً ورحتُ أعبُّ منها، بينما يتهامسُ الناس من خلفي، قلتُ لسارة: هؤلاء أناسٌ بشعون، ما هي مشكلتهم؟

ـ لا أدري.

عدتُ إلى الفيلم، وإلى الأشخاص المتجوّلين مع عربات التسوق تحت أضواء المشاعل، كان أحدُ أبطال الفيلم يتحدث، بينما يستمع الآخرون له:

«أستيقظُ فلا أعرف السرير الذي نمتُ عليه، لا أعرف أين أنا. أرتدي ملابسي وأخرج لأبحث عن سيارتي، لكني لا أذكر أين وضعتُها، أحياناً يستغرق البحث عنها ساعاتٍ حتى أجدها...»

قلتُ لسارة: مشهد موفق، فهذا ما يحصل معي مراراً.

هَسْهَسَ أحدُهم ليسكتني أيضاً.

تابع بطل الفيلم حديثه: «عشتُ حياتي بين دنان الخمر، أضعتُ محفظتي مراراً، فقدتُ أسناني أثناء المشاجرات، كنتُ روحاً ضالّة، ضالة.. ضالة.. ضالة. إلى أن مات صديقي ونديمي مايك، في حادث سيارة ناجم عن شرب الكحول، فانتهى كل شيء.

لكني أعيش بسلام الآن، أنام جيداً، وبدأتُ أحسُّ بأني كائن بشري طبيعي من جديد. المسيح هو مثالي الأعلى، فهو أعظم من كل الخمور، ومن كل المغريات التي يزرعها الشيطان في الأرض».

تلألأتْ عيناه بالدموع، ثم تابع مُلقياً ما يشبه قصيدة: «وجدتُ نفسي ثانية / عدتُ طفلاً في العاشرة / تخلّيتُ عن الشهوات / وتقرّبتُ ممن يشبهونني / وجدتُ نفسي ثانية».

حنى رأسه، بينما شرع الجميع بالتصفيق.

ثم وقفت امرأة في مكانه وراحت تتكلم، قالت إنها تعلّمت الشرب من الحفلات، ثم صارت تشرب وحيدةً في بيتها. وهكذا ماتت نباتاتُ الزينة في أحواض البيت، لأنها نسيتْ أن تسقيها. وأثناء نقاشٍ حادّ مع ابنتها، صفعتها بسكّين الفواكه. ثم صار زوجها يشرب أيضاً، وبعدها خسرَ عمله، فجلس في البيت ليشرب معها، ثم صفعتُه بسكّين الفواكه. في يوم من الأيام ركبتْ سيارتها، آخذةً معها حقيبتها وبطاقات الائتمان فقط، وراحت تشرب في الفنادق الرخيصة، تشرب وتدخن وتشاهد التلفاز. فودكا! كانت تحبّ الفودكا.

مرةً تسببتْ بنشوب حريق في سريرها، جاءت سيارة الإطفاء إلى الفندق، كانت سكْرى بثوب النوم فقط. أحدُ رجال الإطفاء وضع يديه على ردفيها، وعصرَهما. فركضت إلى سيارتها بثوب النوم والحقيبة. وراحت تقود السيارة لساعات طويلة، دون وجهة محددة، استمرتْ بالقيادة والتجوّل حتى ظهر اليوم التالي، حين وصلت إلى شارع «برودواي» في نيويورك. كانت عجلتان من الأربع قد صارتا على الأرض، بسبب القيادة لساعات، تمزّقت العجلتان فراحتْ تسير على حديد العجلة، راسمةً أخاديد عميقة في الإسفلت. إلى أن أوقفها الشرطيّ وأخذها لإجراء فحص الكحول.

مرت الأيام ولم يأتِ زوجها ولا ابنتها لزيارتها، كانت وحيدة تماماً، وفي يوم من الأيام كانت جالسة مع الطبيب النفسي، وقد سألها الطبيب: «لماذا تُصرّين على تدمير نفسك؟»، وأضافت أنه أثناء هذا السؤال، لم يكن وجه الطبيب مَنْ ينظر إليها، بل وجه السيد المسيح.

سألتُ بصوتٍ عالٍ: كيف عرفتْ أنّ الوجه وجه المسيح؟

فسأل أحدهم: من هذا الرجل؟!

فرغتْ زجاجة النبيذ، ففتحتُ الثانية.

ثم ظهر شاب جديد في الفيلم، ليروي حكايته. كانت نيران المشاعل لا تزال مشتعلة، دون أن يزوّدها أحد بالوقود، ودون أن يأتي أحد المشرّدين ليعبث بها. عندما أنهى الشاب حكايته، مدّ يده إلى عربة التسوق التي معه، وأخرج منها غيتاراً باهظ الثمن.

أخذتُ جرعة نبيذ كبيرة، ومرّرت الزجاجة إلى سارة.

قام الشاب بدوزنة الغيتار، ثم شرع بالعزف والغناء. كان موفقاً بالعزف، متدرّباً على الغناء، وصوته لا بأس به. جالت الكاميرا لتأخذ لقطاتٍ لوجوه الحاضرين جميعاً، كانت الوجوه مفتونةً بأداء الشاب، بعضهم يبكي، وبعضهم يرسمُ ابتسامةً بهيجة. وما إن أنهى عزفه حتى بدأ الجميع بالتصفيق والصياح والهياج.

قلتُ لسارة: لم أرَ حياً فقيراً مثل هذا من قبل!

عدتُ إلى الفيلم، كانت شخصيات جديدة تتحدث، بعضها يحمل غيتارات فخمة أيضاً، كانت ليلة الغيتار بامتياز. ثم جاء المشهد الختامي، حينما عبرَ شهابٌ في السماء، راسماً قوساً فوق الوجوه الشاخصة. عمّ الصمت، ثم بدأ شخص بالغناء، تبعته امرأة، ثم أصوات أخرى. كانوا جميعاً يحفظون كلمات الأغنية، وفجأةً ظهرت العديد من الغيتارات، لتشكّل جوقةً موسيقية منسجمةً بشكل كامل، تنشر السعادة والأمل.

انتهى الفيلم، وأُنيرت الأضواء في الصالة. صعد بات سيلرز على منصة صغيرة، وراحوا يصفقون له. بدا بات سيلرز مريع الشكل، كان نعساناً، معدوم الحياة، ميتاً. عيناه بيضاوان، ثم تكلّم: «لم أشرب المسكرات منذ خمسمائة وخمسة وتسعين يوماً...»

ردّ الحضور بتصفيق حارّ هستيري، فتابع: «إنني أتعالج من الإدمان، جميعنا هنا نتعالج من الإدمان».

قلتُ لسارة: فلنخرجْ من هنا حالاً.

أنهينا النبيذ، نهضنا وسرنا إلى باب الخروج، ثم إلى السيارة. قلتُ: ابن العاهرة! أين جون؟ لمَ لا أراه هنا؟

ـ إني واثقة بأنه كان يتابع الفيلم.

ـ لقد ورّطنا بهذا الفيلم، يا للسخرية!

ـ هؤلاء جميعاً أعضاء في جمعية علاج المدمنين.

ركبنا السيارة واتجهنا إلى الطريق السريع.

الفكرةُ التي وصلتْني من خلال جميع ما شاهدتُ، أن هؤلاء الأشخاص ليسوا مدمنين على الكحول، إنهم يحسبون أنفسهم مدمنين فقط. فالإدمان حالةٌ لا تستطيع العلاج منها، ويحتاجُ المرءُ إلى عشرين عاماً من الشُرب المتواصل حتى يصبح مدمناً أصيلاً. بلغتُ مرحلة الإدمان في الخامسة والأربعين من عمري، ولستُ نادماً على ذلك.

وصلنا إلى الطريق السريع، وتابعنا السير باتجاه العالم الحقيقي.

١٥

ما زالتْ كتابةُ السيناريو واجباً عليّ. كنتُ في الطابق العلوي من بيتي، جالساً أمام الآلة الكاتبة، بينما كانت سارة في غرفة النوم الواقعة على يميني، أما جون فكان في الطابق السفلي يشاهد التلفاز.

أنهيتُ نصف زجاجة من النبيذ. لم أتعرّض لهذه المشكلة من قبل، فخلال السنوات السابقة لم تنقطع شهّيتي للكتابة، كانت الكتابة تحدثُ من تلقاء ذاتها، أشربُ وأستمع إلى الراديو فتخرج الكلمات.

أعرف أن جون الجالس في الطابق السفلي ينتظرُ سماع صوت الآلة الكاتبة، ينبغي أن أكتب شيئاً، بدأتُ بكتابة رسالة إلى صديق لي، يعمل أستاذاً للأدب الإنكليزي في جامعة كاليفورنيا، وكنا نتبادل الرسائل منذ عقود.

أخرجتُ الرسالة من الآلة الكاتبة، طويتها ووضعتها في مغلف، كتبت العنوان على ظهر المغلف، أغلقته ووضعت عليه طابعاً. وكان هذا كلّ ما كتبته لهذه الليلة. أنهيتُ زجاجة النبيذ وحيداً، ثم فتحتُ أخرى، ونزلتُ بها إلى الطابق الأسفل.

كان جون قد أطفأ التلفاز. أحضرتُ كأسين وجلستُ معه، سكبتُ له فقال: يبدو أن الآلة الكاتبة تضرب بقوة!

ـ جون، كنت أكتب رسالة.

ـ رسالة؟

ـ اشربْ.

ـ حسناً.

شرب كلانا ثم قلتُ: جون، لقد دفعتَ لي نقوداً لكي أكتب هذا السيناريو اللعين.

ـ نعم هذا صحيح.

ـ لا أستطيع كتابته، أحاول أن أكتب في الأعلى، بينما أنت جالس في الأسفل تسمع صوت الآلة الكاتبة، من الصعب أن أكتب بهذا الشكل.

ـ يمكنني الخروج من المنزل ليلاً.

ـ لا، اسمعني، عليكَ أن تنتقلَ من البيت! لا يمكنني الاستمرار بهذه الطريقة، اعذُرني يا رجُل، أنا كلب، أنا حذاء، أنا حذاء كلب، هل للكلاب أحذية؟! على كل حال، ينبغي عليكَ أن تجد مكاناً تعيش فيه. لا يمكنني الكتابة هكذا، ربما لستُ رجلاً بكل ما تعنيه الكلمة.

ـ أتفهّم ذلك.

ـ حقاً؟

ـ طبعاً، لكني كنتُ سأنتقل من عندك بكل الأحوال.

ـ ماذا؟

ـ فرانسوا عائد إلى هنا، بعدما أنهى عمله في فرنسا. سوف نبحث

عن بيت لنا، لقد بدأتُ البحث، في الحقيقة اليوم وجدتُ بيتاً. لكني لم أخبركَ لكيلا أزعجك.

ـ لكن يا صديقي هل أنتما قادران على...؟

ـ لدينا بعض المال، سوف نجمع كلِ ما نملك من المال.

ـ يا إلهي! هل ستسامحني لأني كنت أريد رميك في الشارع؟

ـ لا يوجد ذنب أسامحك عليه، كنتُ قلقاً عليك فقط، وكيف سأخبرك بأني سأغادر.

ـ لن تغضب من عجوز سكّير، أليس كذلك؟

ـ لا، لكن هل كتبت شيئاً؟

ـ كتبتُ القليل.

ـ يمكنني أن أراه؟

ـ بالتأكيد يا عزيزي.

صعدتُ إلى الطابق العلوي، جلبتُ الأوراق وأعطيتها لجون. ثم عدتُ إلى الأعلى وناديتُ سارة: تعالي يا سارة، سوف نحتفل معاً.

ـ نحتفل بماذا؟

ـ جون سوف ينتقل من البيت، ما يعني أني سأعاود الكتابة.

ـ هل جرحتَ مشاعره؟

ـ لا أظنّ ذلك، لكن فرانسوا عائد إلى هنا، وسوف يبحثان عن بيت لهما.

نزلنا إلى الأسفل، أحضرتْ سارة كأساً لها، بينما كان جون منشغلاً بقراءة السيناريو. ضحك لما رآني وقال: هذا عمل رائع! توقعتُ أن يكون كذلك!

ـ لن تزعل من عجوز سكّير، أليس كذلك؟

ـ أبداً.

جلستْ سارة ورحنا نشرب سويةً، قال جون: استخدمتُ هاتف فينر زيرغوغ لأتصل بـ فرانسوا، وجدتُ فرانسوا في حالة مزرية، لقد طردوه من العمل. قبض أجرة التمثيل عن بضعة أيام، ثم طردوه. ولنفس الأسباب القديمة.

سألت سارة: مثل ماذا؟

ـ إنه ممثل عظيم، لكنه يصاب بالجنون بين الفينة والأخرى. فجأةً ينسى النصّ والمشهد الذي ينبغي أداؤه، ويبدأ بالتمثيل على هواه. إنه مرضٌ ما كما أعتقد، فيطلبون منه إعادة المشهد، وهكذا حتى يُطرَد.

سألتُ: ماذا يجري له؟

ـ يحدث نفس الأمر دائماً، يمثّلُ بشكل جيد لفترة، ثم يعجز عن تنفيذ التعليمات. أقول له: «تمشي إلى هناك، وتقول هذه الجملة»، لكنه يمشي إلى مكان آخر، ويقول جملة أخرى. ثم أسأله: «لماذا فعلتَ ذلك؟»، فيجيب: «لا أعرف، ليس لدي أدنى فكرة». مرة أثناء التصوير، مشى لمكان بعيد، أنزل بنطاله وحنى جذعه، ولم يكن يلبس سروالاً داخلياً.

ـ اللعنة!

ـ أو يقول أشياء من قبيل: «علينا أن نسرّع عملية الموت الطبيعية»، أو «حيواتُ كل هؤلاء البشر؛ تُنقِصُ من حياتي».

ـ يبدو فتىً عبقرياً.

ـ هو كذلك.

استمرت سهرتنا حتى الساعات الأولى من الصباح.

استيقظتُ ظهراً، نزلتُ إلى الطابق السفلي، طرقتُ باب غرفة جون، لم يجب أحد. فتحتُ الباب، فلم أجده. لكني وجدتُ رسالةً تقول:

«عزيزي هانك، عزيزتي سارة:

شكراً جزيلاً على كل المشروبات، وعلى كل شيء. شعرتُ بأني ضيفٌ عزيزٌ عندكما.

هانك؛ السيناريو الذي تكتبه تجلٌ عمليّ لإيماني بموهبتك، بل هو أفضل مما توقعت، أرجو أن تثابر عليه.

سأتصل بك لاحقاً، لأعطيك عنواني ورقم هاتفي الجديدين.

يا له من يوم عظيم! اليوم ذكرى ميلاد موزارت، سوف نسمع موسيقى ساحرة طوال اليوم.

جون».

جعلتني الرسالة أحزنُ وأفرحُ بنفس الوقت، وغالباً ما أحسُّ بهذا التناقض في معظم الأوقات. صعدتُ إلى الطابق الأعلى، تبوّلتُ وفرّشتُ أسناني، ثم اندسَسْتُ في السرير بجانب سارة.

١٦

في تلك الليلة، وبعد أنْ غادر جون وما عاد يستمع إليّ من الطابق السلفي، بدأت الآلة الكاتبة بالعمل، كتبتُ عن شابٍ يعشقُ الكتابة والشُرب، لكن معظم نجاحاته كانت في مجال الشُرب.

ذلك الشاب كان أنا. لم تكن حياتي تعيسةً آنذاك، كنتُ أقضي معظم وقتي بين الفراغ والانتظار. وأثناء الكتابة راحت الشخصيات التي عرفتُها في تلك الحانة تراودُني، أرى وجوههم واحداً واحداً وأجسادهم، أسمع أصواتهم وحواراتهم. كان لتلك الحانة سحرٌ خاصّ لا يقاوم. ركّزتُ ذاكرتي على الماضي، رحتُ أسترجع الشجارات المتكررة مع النادل. لم أكن بارعاً في الشجار، فيداي صغيرتا الحجم، وكنت أعاني من سوء تغذية حادّ. لكنني أتمتع بجسارةٍ فريدة، وأجيدُ تصويب اللكمات. مشكلتي الرئيسية أثناء المشاجرات هي أنني لا أغضب بما فيه الكفاية، حتى ولو كانت حياتي على حافة الخطر. كان الأمر أشبه بادّعاء حالةٍ من الغضب، وكأن حياتي لا تهمني أو تهمّني. كانت المشاجرات مع النادل أمراً لافتاً، يجلب المتعة لروّاد الحانة، وقد كانوا مجموعة أصدقاء مغلقة، بينما كنتُ غريباً عنهم. ثمة أمرٌ مهم ينبغي ذكره عن أيام الشُرب، إذ كان من الممكن لأي مشاجرة أن تودي بحياتي، هل كنتُ أدرك هذا؟ أم كانت الخمرة تحوّل جسمي إلى مطّاط ورأسي إلى كتلة

إسمنتية؟ أستيقظ في اليوم التالي بمعصمين ملتويين، وشفتين منتفختين، وركبتين معطوبتين، مع بضع كدماتٍ في الرأس. كيف لهذه الأحداث أن تصبح سيناريو؟ لا أعرف، لكني أعرف أنها الفترة الوحيدة من حياتي التي لم أكتب عنها ما يكفي. أظنّ أني كنتُ مجنوناً في تلك الفترة، مجنوناً مثل الجميع. وعرفتُ حينها أن للأرواح الضالّة حضارةً كاملة، تزدهر داخل الحانات وخارجها، ليلاً ونهاراً وإلى الأبد، حتى يموت أصحابها. لم أقرأ عن هذه الحضارة من قبل، ولذا قررتُ الكتابة عنها كما أتذكّرها، طالما أن آلتي الكاتبة القديمة تعمل بشكل جيد.

في اليوم التالي، رنّ الهاتف ظهراً، كان جون: وجدتُ بيتاً، فرانسوا معي، بيتٌ جميل فيه مطبخان، وأجرته لا تساوي شيئاً، حقاً لا شيء...

ـ أين يقع البيت؟

ـ نحن في حيّ الأجانب(*) في فينيس، جادّة «بروكس». كلّ سكّان الحيّ من السود، تحسّ بأن الشوارع تشهدُ حرباً مدمرة، رائع!

ـ حقاً؟

ـ تعال وشاهد المكان.

ـ متى؟

ـ اليوم!

ـ لا أعرف.

(*) حي الأجانب (ghetto): تسمية كانت تُطلَق على الحيّ الذي يقطنه اليهود في إيطاليا، ثم انتشرتْ في أوروبا. أما في الولايات المتحدة، فإنها تُطلق على الحيّ الذي يسكنه السُود والمهاجرون من أمريكا اللاتينية. (م)

ـ لا تفوّت عليك الفرصة! ثمة أناسٌ يعيشون في القبو تحت بيتنا، يمكنك سماع أحاديثهم ومذياعهم! العصابات تملأ المنطقة! وهناك فندق كبير بناه أحدهم على مقربة من هنا، لكنْ لا أحد من المقيمين فيه يدفع الأجرة. قام أصحابه بإغلاقه بالألواح الخشبية، وبقطع الماء والكهرباء والغاز عنه، وما زال الناس مقيمين فيه. هنا ساحة المعركة! لا تجرؤ الشرطة على الاقتراب من هنا، وكأنها ولاية مستقلة بقوانينها الخاصة. كم أحبّ ذلك! عليك أن تأتي حالاً!

ـ كيف أصل إلى هذا المكان؟

أعطاني جون العنوان وأغلق الهاتف. ناديتُ سارة: اسمعي، عليّ الذهاب للقاء جون وفرانسوا.

ـ حسناً، سأذهب معك.

ـ لا، لا يمكنك، سيكون اللقاء في حي الأجانب في فينيس.

ـ أوووه... حيّ الأجانب! لن أفوّت فرصةً كهذه أبداً!

ـ أرجوكِ، كُرمى لي، لا تذهبي معي.

ـ ماذا؟ هل تظن بأني سأدعك تذهب وحيداً إلى هناك؟

وضعتُ سكّيني في جيبي، أخفيتُ نقودي في الحذاء، وقلتُ لها: حسناً...

دخلنا حيّ الأجانب ونحن نقود السيارة بحذر، ليس صحيحاً أن جميع السكان من السُود، فهناك مهاجرون من أمريكا اللاتينية عند أطراف الحي. لحظتُ مجموعةً من سبعة أو ثمانية شبّان مكسيكيين مجتمعين حول سيارة عتيقة، معظمهم بقمصانهم الداخلية أو عراة الصدر، عبرتُ قربهم ببطء ودون النظر إليهم. لا يبدو أنهم يفعلون

شيئاً، لكنهم ينتظرون شيئاً ما، ينتظرون في حالةٍ من التأهّب. ربما كانوا يعانون من الضجر فحسب، أحسستُ أنهم شبابٌ لطفاء لا يأبهون لأي شيء في العالم.

دخلنا في طرقاتٍ ترابية سوداء مفروشة بأشياء مبعثرة: فردة حذاء، قميص برتقالي، محفظة رثة... عنقود عنب متعفن... فردة حذاء أخرى... بنطال جينز... سلك بلاستيكي...

كنتُ أقود السيارة متعرّجاً بين هذي الأشياء. مرّ ولدان أسودان بحدود الحادية عشرة من العمر، مُلقيَيْن علينا نظراتٍ من الكراهية الواضحة. أحسستُ بها، فالفقراء من السُود يكرهون البيض، والفقراء من البيض يكرهون السود، فقط ميسورو الحال من السُود والبيض يختلطون ببعضهم بعضاً، ويعطوننا دروساً في المدنيّة. قليلٌ من البيض يحبّون السود، قليل جداً، إذا ما افترضنا وجود أسودٍ واحد يحبُّ البيض. ما زال الأمرُ صعباً عليهم، وربما لا ينبغي عليهم ذلك، ففي المجتمع الرأسمالي يصبح الخاسرون عبيداً لدى الرابحين، بمَ أفكّر؟! أعرف أن السياسة لن تحلّ هذه المعضلة، ولم يبقَ في العمر ما يكفي لأفعل شيئاً.

وصلتُ إلى العنوان المطلوب، ركنتُ السيارة، خرجنا منها وقرعتُ الباب.

فُتحتْ نافذةٌ صغيرة في أعلى الباب، وظهرتْ عينٌ ما تحدّق بنا: «آه.. هانك وسارة». فُتح الباب ودخلنا.

اتجهتُ إلى النافذة ونظرتُ الخارج، سألني جون: ما بك؟

ـ يجب أن أتفقد السيارة بين الفينة والأخرى.

ـ صحيح، تعال معي لأريك المطبخين!

وبالفعل كان في البيت مطبخان، وفي كل مطبخ فرن وثلاجة وحوض لغسل الأطباق.

- سابقاً كان البيت شقتين، ثم دُمجتا في بيت واحد.

قالت سارة: جميل! يمكنك أن تطهو في أحد المطبخين، بينما يطهو فرانسوا في الآخر.

- حالياً نعيش على البَيْض، لدينا دجاجات تبيضُ كثيراً...

- يا إلهي! جون.. هل الأمور سيئة إلى هذا الحد؟!

- لا ليس كذلك، لقد درسنا موضوع إقامتنا الطويلة هنا، وقررنا أن نخصّص معظم نقودنا لشراء النبيذ والسيجار. ما أخبار السيناريو؟

- يسعدني القول إني كتبتُ صفحاتٍ عديدة، لكني أتعثر أحياناً بمصطلحات التصوير: حركة الكاميرا، تقريب الصورة، تدوير الكاميرا أفقياً وعمودياً... وغيرها من هذا الهُراء.

- لا تقلقْ، اتركها لي.

سألتْ سارة: أين فرانسوا؟

- إنه في الغرفة المجاورة، تعالا...

ذهبنا إلى حيث يجلس فرانسوا ويُدير قرص الروليت. عندما يشرب فرانسوا يغدو أنفه أحمر اللون، وكأنه شخصية من أفلام الكرتون، وكلما أسرف في الشرب تزداد كآبته. كان يمتصّ سيجاراً نصفَ مُنتهٍ، ويطلق غيماتٍ دخانية، وبقربه زجاجة نبيذ فارغة.

قال فرانسوا: اللعنة! لقد ربحتُ ستين ألف دولار توّاً، وما زلتُ أتجرّع هذا النبيذ الرخيص الذي اشتراه جون، قائلاً إنه نوع جيّد، لكنه قذارةٌ مصفّاة! لقد اشترى الزجاجة بدولار وخمسة وثلاثين سنتاً. صارت

معدتي أشبه ببالون مليء بالبول! معي الآن ستون ألف دولار، ولا أرى أيَّ سبب مقنع للعمل أو لفعل أي شيء! يجب أنْ... يجب أنْ أقتل... يجب أن أقتل نفسي!

ردّ جون: على رِسْلك يا فرانسوا، فلنأخذْ ضيوفنا ونريهم الدجاجات.

- الدجاج! البيض! نأكل البيض طوال الوقت! لا شيء سوى البيض! بَقْ بَقْ بَقْ! الدجاجات تقذف البيض! وطول الليل والنهار يقتصرُ عملي على حراسة الدجاج من الأولاد السُود! طوال الوقت يتسلّق الأولاد السود سور المنزل، ويركضون إلى قنّ الدجاج. أضربهم بعصا طويلة، وأصيح: «يا أولاد القحبة! ابتعدوا عن دجاجاتي التي تبيضُ بيضاً!». لم أعد قادراً على التفكير، لم أعد قادراً على التفكير بحياتي أو بموتي. فأنا دائماً أطارد أولئك الأولاد السود بعصاي الطويلة! جون.. اسكبْ لي مزيداً من النبيذ، وأعطني سيجاراً آخر.

أطلق فرانسوا قرصَ الروليت في دورة جديدة، ثم خرجنا إلى ساحة الدار لرؤية قنّ الدجاج الذي شيّده فرانسوا بنفسه، كان بناؤه متقناً، إنه موهوب فعلاً. لكنه لم يستخدم أسلاكاً لإغلاقه، استخدم قضباناً بدلاً منها، ووضع قفلاً على كل باب.

قال فرانسوا: أقوم بتفقّد الدجاج كل ليلة، هكذا: «سيسيل أنتِ هنا؟» فأجابتْ: «بقْ بقْ بق»، «برناديت أنتِ هنا؟» فأجابت: «بقْ بقْ بق» - ثم «نيكول» صحتُ باسم نيكول لكنها لم تجبْ. هل تصدّق ذلك؟ رغم كل هذه القضبان والأقفال وصلوا إلى نيكول، وخطفوها معهم! راحتْ نيكول، راحت إلى الأبد! جون.. جون.. أريد مزيداً من الخمر!

عدنا إلى الداخل، وسكبنا كؤوساً جديدة. أعطى جون سيجاراً لـ فرانسوا فأشعله وقال: عندما أحصل على السيجار في كل مرة أشتهيه، أستطيع الاستمرار في الحياة.

شربنا قليلاً، ثم قالت سارة: جون، هل مالكُ البيت أسود؟

ـ نعم.

ـ ألم يسألكما لماذا تستأجران هنا؟

ـ نعم.

ـ وبماذا أجبته؟

ـ أخبرته أننا مخرج وممثل من فرنسا.

ـ وقال...؟

ـ قال: واووو...

ـ غير ذلك؟

ـ هذا المكان مناسب لكما.

تابعنا الشُرب وتبادُل الأحاديث، وبين الفينة والأخرى أنهضُ وأتجه صوب النافذة، لأتأكّد أنّ السيارة ما زالت في مكانها. أثناء الشُرب صار ضميري يؤنّبني فقلتُ: اسمعْ جون، سأعيدُ لكَ المال الذي أخذته لكتابة السيناريو، لقد تركتُكَ ترتطمُ بالجدار وحيداً، هذا مريع!

ـ لا، أريدكَ أن تكتب السيناريو، سيصير فيلماً، أعِدُك.

ـ حسناً، لعنة الله عليك.

شربنا المزيد ثم قال جون: انظروا...!

من خلال فتحة في الجدار، شاهدنا ما يشبه يداً، يداً سوداء، تتأرجحُ من فتحة الجدار الأبيض. تتشبّثُ بأصابعها، تتحرك. بدتْ لنا مثل حيوان صغير.

صرخ فرانسوا: اذهبْ من هنا! اذهبْ من هنا يا قاتل نيكول! لقد حفرتَ جُرحاً عميقاً في قلبي، وإلى الأبد. اغربْ عن وجهي!

لكن اليد لم تذهب.

مشى فرانسوا باتجاه الجدار واليد: آمرُكَ الآن، اذهبْ من هنا. لا أريد سوى شرب النبيذ وتدخين السيجار بسلام. أنت تشوّشُ مجال رؤيتي! لا يمكنني الشعور بالطمأنينة وأنت تمسك بي، وتحدّق بي، من خلال أصابعكَ السوداء الرخيصة!

لكنّ اليد لم تبتعد.

«حسناً إذن» كانت العصا جاهزة، التقطها فرانسوا بحركة شيطانية، وراح يضرب على الجدار بقوة، يضربُ ويضرب وهو يصيح: يا قاتل الدجاج، لقد أدميتَ قلبي للأبد!

كان صوت فرانسوا عالياً يجلبُ الصَّمَم، ثم توقف الصوت فجأة، واختفت اليد. عاد فرانسوا إلينا: اللعنة يا جون! احترق سيجاري، لمَ لا تشتري نوعاً أحسن؟

قلتُ: اسمعني يا جون، علينا أن نذهب.

ـ لا، أرجوك، بالكاد بدأت السهرة، لم تر شيئاً بعد.

ـ علينا أن نذهب، ينبغي أن أتابع عملي في كتابة السيناريو.

ـ حسناً، في هذه الحالة...

عدتُ إلى البيت، صعدتُ إلى الطابق العلوي لأتابع الكتابة. لكنّ الأمر الغريب، أو ربما ليس غريباً، هو أنّ حياتي السابقة لم تبدُ لي جامحةً ومجنونةً بالمقارنة مع ما يحدث لي في هذه الأيام.

١٧

سارت أمور السيناريو بشكل مقبول. لم أعتبرْ الكتابة يوماً مهنة لي، كانت دائماً حسب ما أذكر: أُديرُ الراديو على محطة الموسيقى الكلاسيكية، أشعل سيجارةً أو سيجاراً، أفتحُ زجاجة الخمر، وتقوم الآلة الكاتبة بالبقية. كلُّ ما عليّ فعله، هو أنْ أتواجد بين هذه الأشياء.

ساعدتني الكتابة على الاستمرار عندما لم تكنْ الحياة تقدّم لي شيئاً، عندما كانت حياتي فيلم رعب. فقد كانت الآلة الكاتبة حاضرةً دوماً لتخفّف عني، لتتكلّم معي، لتسلّيني، لتنقذ مؤخرتي. ولهذا أكتبُ في الأساس: لأنقذ مؤخرتي من مشفى المجانين، ومن النوم في الشوارع، ومني.

إحدى حبيباتي السابقات صرختْ في وجهي: «أنتَ تشربُ لتهربَ من الواقع». أجبتها: «طبعاً يا عزيزتي». عندي زجاجةُ خمر وآلة كاتبة، وأفضّلُ عصفوراً باليد على عشرة عصافير فوق الشجرة.

بكل حال، سارت أمور السيناريو بخير، وبعكس الرواية والقصة القصيرة والشعر (إذ أتوقّفُ عن الكتابة ليلةً أو ليلتين ثم أعاود)، اشتغلتُ على السيناريو في كل ليلة، حتى أنهيتُه. ثم اتصلتُ بجون: لا أعرف ماذا كتبت، لكنه انتهى.

ـ عظيم! أودُّ المجيء لأخذ النصّ، لكننا نقيم حفلة غداء هنا،

مشروبات وطعام وضيوف، فرانسوا هو طبّاخنا. فهل تأتي وتجلب السيناريو معك؟

ـ يسعدني، لكني خائف أن أذهب بسيارتي إلى حارتك.

ـ لا يا هانك، لا أحدَ سيسرق سيارتك الفولكس القديمة.

ـ جون، لقد اشتريتُ سيارة «بي إم دبليو»!

ـ ماذا؟!

ـ أوّل البارحة، قال لي مستشار الضرائب إنّ هناك حسماً ضريبياً عليها.

ـ حسم ضريبي! هذا غير ممكن.

ـ هذا ما قاله. وأضاف أنه في أمريكا... إذا لم تنفقْ نقودكَ... فإنهم سوف يأخذونها منك. والآن لا يمكنهم أخذ نقودي، لأني صرفتُها.

ـ لكن يجب أن أطّلع على السيناريو! فبغيرِ نصٍّ أعرضه على المنتجين، لن تدور العجلة.

ـ لا بأس، هل تعرف متجر «رالف» الواقع خارج حيّ الأجانب؟

ـ نعم.

ـ سأركن سيارتي هناك، وأتّصل بكَ من المتجر، فتأتي أنتَ لتأخذني، ما رأيك؟

ـ جيد، اتفقنا.

انتظرنا أنا وسارة داخل سيارتنا الـ «بي إم دبليو» السوداء، إلى أن جاء جون ليأخذنا معه إلى حيّ الأجانب. قال لي: ماذا سيقول النقّاد والقرّاء والمعجبون... عندما يعرفون أنكَ اشتريتَ «بي إم دبليو»؟

ـ كالعادة، ينبغي على هؤلاء الحمقى أن يحاكموني وفقاً لمستوى كتاباتي.

ـ لكنهم لا يفعلون ذلك دائماً.

ـ هذه مشكلتهم.

ـ هل السيناريو معك؟

أجابت سارة: إنه معي.

ـ شكراً يا سكرتيرتي!

ـ لقد كتبتَ عملاً مهماً.

ـ أنا عبقريّ الـ «بي إم دبليو».

وصلنا إلى بيت جون، ثمة عددٌ من السيارات المركونة عند مدخل البيت. كان الوقت نهاراً، قرابة الساعة الواحدة والنصف ظهراً. دخلنا إلى المنزل، ومن ثم إلى ساحته الخلفية.

كانت حفلة الغداء قد بدأت منذ ساعات، والزجاجات الفارغة مبعثرة على الطاولات الخشبية. ثمّة قِطعٌ نصفُ مأكولةٍ من البطيخ مرميّة في الشمس، يحطُّ عليها الذبابُ لدقيقةٍ ويطير. يبدو على الضيوف أنهم جالسون هنا منذ ثلاث ساعات على الأقل. كانت واحدةً من تلك الحفلات المقسّمة إلى أجزاء، فترى مجموعة من ثلاثة أو أربعة أشخاص هنا، يتجاهلون مجموعة من ثلاثة أو أربعة أشخاص هناك. كانوا مزيجاً من الأوروبيين وأهالي هوليوود وآخرين، أما البقية فلم تكن لديهم ملامحُ مميزة. كانوا جالسين هنا، ومصرّين بقوة على البقاء هنا. أحسستُ بالبغضاء المنتشرة في فضاء المكان، لكني لم أستطع فعلَ شيءٍ حيالها. انتبه جون لذلك، ففتح لي عدة زجاجات من النبيذ.

مشينا باتجاه فرانسوا، كان عند منقَل الشواء، يبدو أنه في حالةٍ سُكْر بيّنٍ واكتئابٍ شديد. راقبناهُ وهو يُقلّب قطع الدجاج على النار، لقد استوتْ قطعُ الدجاج فعلاً، واسودّت أيضاً، لكن فرانسوا لا زال يقلّبها. كان مظهر فرانسوا بائساً، يضع على رأسه قبّعة بيضاء كبيرة كالتي يضعها الطهاة، لكنها وقعت من رأسه إلى الأرض عدة مرات، حتى صارت ملطّخةً ببُقع من الوحل. رآنا فقال: إني أنتظركم! لقد تأخّرتم! ماذا حدث لكم؟ لن أسامحكم!

ـ آسف فرانسوا، كان علينا أن نترك السيارة عند متجر «رالف».

ـ لقد احتفظتُ ببعض الدجاج من أجلكم، تفضّلوا!

أمسكَ صحنين ورقيين، رمى قليلاً من الدجاج في كلّ منهما.

ـ شكراً فرانسوا.

وجدتُ طاولةً وجلستُ مع سارة، جلس جون كذلك، وقال: فرانسوا مُحبَط، يظنّ أني قتلتُ إحدى دجاجاته من أجل وليمة الغداء. لم تُولدْ دجاجةٌ من قبلُ لها كلُّ هذا العدد من الأفخاذ والأجنحة والصدور. قُمنا بإحصاء الدجاجات عدة مرات، كان العددُ مكتملاً، لكنه عندما يسكر؛ يحسبُ أني قتلتُ إحدى دجاجاته. لقد اشتريتُ قطع الدجاج هذه من متجر «رالف».

قالت سارة: فرانسوا حسّاس جداً.

أضاف جون: وليجعل الأمور أكثر سوءاً، صار يتبجّحُ ويفتخر بنفسه، بحجّة أنه حامي الدجاج من السرقة. لقد نشر أسلاكاً شائكةً ومؤشّراتٍ للإنذار في كل مكان، مؤشرات حسّاسة جداً، مرّةً أطلقتُ ريحاً فاشتغلَ جهازُ الإنذار.

ـ لا تبالغْ يا جون.

ـ لا، هذه هي الحقيقة. لكنّ الأمور ازدادت سوءاً أيضاً، ففي اليوم التالي خرج فرانسوا ليشغّل سيارته، أدار المحرّك، وضعَ ناقلَ السُرعات بوضعية السير إلى الوراء، لكنّ السيارة لم تتحرك. حسبَ في البداية أنّ العطلَ في ناقل السرعات، وعندما خرج من السيارة، اكتشف أنّ العجلتين الخلفيتين مفقودتان.

ـ لا يُصدّق!

ـ هذا ما حدث، كانت مؤخرة السيارة مرفوعةً على حجرين، والعجلات مختفية!

ـ وتركوا العجلتين الأماميتين؟

ـ نعم.

سألتْ سارة: ومن أين اشتريتُما عجلتين جديدتين؟

ـ اشترينا العجلتين ذاتهما من السارق نفسه.

ـ ماذا؟! اسكبْ لي كأساً جديدة.

ـ لقد قرعوا باب البيت وقالوا: «هل تريدان العجلتين؟ إنهما عندنا». طلبتُ منهم الدخول، بينما صاح فرانسوا: «سوف أقتلكم!»، طلبتُ منه أن يهدأ. شربنا معهم بعض النبيذ، وتفاوضنا على السعر، استغرق الأمرُ الكثير من المفاوضات والنبيذ. وفي النهاية وصلنا إلى اتفاق، فأحضروا العجلتين مع إطاريهما المطاطيين ورموهما أمامنا، هكذا.

سألت سارة: كم دفعتُم ثمنهما؟

ـ ثلاثة وثلاثون دولاراً، صفقة موفقة مقابل عجلتين وإطارين.

قلتُ: لا بأس بها.

ـ في الواقع، كلّفنا الأمرُ ثمانية وثلاثون دولاراً، فقد دفعنا لهم خمسة دولارات إضافية، لكي يعِدُونا بألاّ يسرقوا العجلات ثانيةً.

ـ لكن افترضْ أن شخصاً آخر سرق العجلات؟

ـ قالوا إن هذه الدولارات الخمسة تضمنُ أنْ لا أحدَ سيمسُّ العجلات، لكنهم أضافوا أنّ هذه الضمانة تشملُ العجلات فقط، وليس أجزاء السيارة كلَّها.

ـ وهل عقدتُما اتفاقيات أخرى كهذه؟

ـ لا، لقد غادروا. لكننا لاحظنا اختفاء الراديو بعد مغادرتهم. كنا نراقبهم طوال الوقت، ومع ذلك سُرِق الراديو. لا أفهم كيف استطاعوا سرقته، إنه راديو من الحجم الأكبر، كيف أخفوه؟ كيف أخرجوه من الباب؟ لا أفهم! إنه إنجازٌ يثيرُ الدهشة والإعجاب!

ـ فعلاً.

نهض جون حاملاً السيناريو: يجب عليّ إخفاؤه، أعرف مكاناً سرياً. أشكرك يا هانك جزيل الشكر على عملك.

ـ كان عملاً سهلاً، يجلب المال سريعاً.

غادر جون مع السيناريو، نظرتُ إلى قطع الدجاج في الصحن: يا إلهي! لا يمكنني أكلُها، إنها محترقة وقاسية مثل الحجر.

ـ ولا أستطيع أكل صحني كذلك.

ـ توجد سلة مهملات قرب السور، فلْنرمها هناك.

مشينا باتجاه سلة المهملات، وعلى طول السور كانت وجوهٌ سوداء صغيرة تطلّ من الأعلى، وتراقبنا. ثم تصيح: «لنأكلْ بعض الدجاج...

أعطني جناحاً يا ابن الكلب». تابعتُ السير قائلاً: إنه طعامٌ محترق، لا أحد يأكله.

فجأةً انطلقتْ يدٌ صغيرة واختطفت قطعة دجاج، يدٌ أخرى انطلقتْ واختطفتْ قطعة سارة من الدجاج. ثم ركض الولدان بعيداً وهما يصيحان، تبعهُما سيلٌ من الأولاد، وهم يصيحون أيضاً.

قالت سارة: أحياناً أكرهُ كوني بيضاء.

ـ بعض الأجانب بِيْضٌ أيضاً، وبعضُ الأغنياء من السُود كذلك.

ـ لا يمكنك المقارنة.

ـ لكني لا أعرف ما أفعلُ بماذا أجيب!

ـ ابدأ من مكان ما.

ـ لا أملك الجرأة، إني خائف جداً على مؤخرتي البيضاء. دعينا ننضمّ لتلك المجموعة المرحة ونشرب معهم.

ـ هذا جوابكَ لكل شيء: لنشربْ!

ـ لا، هذا جوابي لـ اللاشيء!

ما زالت الحفلة حفلة مجموعات متباعدة. حتى في ساحة الدار المقفرة هذه، ثمة مناطقُ للأجانب، مناطق لأهالي «ماليبو»، مناطق لسكّان «بفرلي هيلز». فعلى سبيل المثال؛ الأكثر أناقةً، ذوو الملابس الفخمة، يتسكعون معاً. كلّ نمطٍ من البشر يستدلّ على نظيره، ولا يبدي أية رغبة بالاختلاط مع الآخرين. أستغربُ كيف جاء بعضهم إلى حيّ الأجانب في فينيس، ربما حسبوه حيّاً فارهاً. وما يجعل الوضعَ أكثر سوءاً وقرَفاً، أنَّ كثيراً من المشاهير هُمْ مجرّدُ حمقى وجبناء وأوغاد. ربما ربحوا صفقة ما، أو مقامرة ما، رفعتهم إلى الأعلى. أو أصبحوا

أغنياءَ بسبب غباء الجماهير، فهم أشخاصٌ عديمو الموهبة، عديمو الأعين، وعديمو الأرواح. إنهم روثٌ يسير على قدمين، لكنهم في نظر الجماهير أنصافُ آلهة! وغايةُ الجمال والجلال. الذائقةُ الرديئة تصنع العديد من أصحاب الملايين، أكثرَ مما تصنعه الذائقة المرهفة. وغالباً ما يُختزَلُ حُكْمُ القيمة بمَنْ يحصلُ على أعلى نسبةٍ في التصويت. في أرض الجرذان... يكون الملكُ جرذاً، فمَن سيأخذ قيمته الحقيقية؟! لا أحد.

كان فرانسوا جالساً على طاولته، فذهبنا وجلسنا معه. كان حزيناً للغاية، منتهياً، بالكاد عرفنا. سيجارٌ مبلّل ومسكورٌ عالقٌ بين شفتيه وهو يشرب، وما زالتْ قبعةُ الطُهاة المتسخة على رأسه. كان فرانسوا أنيق المظهر حتى في أسوأ حالاته، لكنه اليومَ شخصٌ مدمّر كلّياً. قال: لماذا تأخرتم؟ لا أفهم ذلك! لقد أخّرتُ موعد الغداء وانتظرتكم! لماذا تأخرتم؟!

ـ يا صديقي، ما رأيك أن تخلد للنوم؟ وغداً سوف تتحسن.

ـ غداً؟! دائماً يكون الغد مثل اليوم، وهذه هي مشكلتي!

عاد جون: سوف أعتني به، سيكون بخير، تعالا معي لأعرفكما على بعض الضيوف.

ـ لا، يجب أن نرحل.

ـ ما زال الوقت باكراً.

ـ إني قلقٌ على سيارتي الـ «بي إم دبليو».

ـ حسناً، سأوصلك.

كانت السيارة في مكانها. ركبنا ولوّحنا مودّعين جون، بينما تابع طريقه عائداً إلى حي الأجانب والحفلة وفرانسوا.

وصلنا إلى الطريق السريع، قالت سارة: حسناً، ها قد كتبتَ السيناريو، على الأقل أنجزتَ شيئاً.

ـ على الأقل...؟!

ـ هل تعتقد بأنه سيصير فيلماً يوماً ما؟

ـ إنه عن حياة شاب سكّير، من سيهتمّ بحياة سكّير؟

ـ أنا أهتمّ. من تُرشّح لتمثيل دور بطل الفيلم؟

ـ فرانسوا.

ـ فرانسوا؟

ـ نعم.

ـ هل لديك ما تشربه في البيت؟

ـ نصفُ دورقٍ من نبيذ «بوجوليه» الفرنسي.

ـ هذا كافٍ لتفعلها.

ضغطتُ على دوّاسة البنزين، واتجهنا إلى البيت.

١٨

انشغل جون لبضعة أيام، طبعَ عدّة نسخ من السيناريو، وأرسلها إلى منتجين ووكلاء أعمال وممثلين. بينما عدتُ أنا لإضاعة وقتي بكتابة الشعر، وبابتكار طرائق جديدة للمراهنة على أحصنة السبق. كان الرهان على الأحصنة أمراً مهماً بالنسبة لي، فهو يجعلني أنسى بأنني كاتب كما يزعمون. علاقتي مع الكتابة غريبة جداً، أحتاج للكتابة فعلاً، فهي بمثابة المرض العُضال أو الإدمان على المخدرات، هي شيءٌ أجدُ نفسي مُجبراً على فعله. لكني لا أحبُّ اعتبارَ نفسي كاتباً، ربما لأنني التقيتُ عدداً كبيراً من الكتّاب في حياتي، ورأيتُهم يقضُون معظمَ وقتهم في النميمة على كتّابٍ آخرين، بدلاً من العمل على تطوير كتاباتهم. الكتّابُ مُضجرون وثرثارون كالعوانس العجائز، يعضُّون بعضهم بعضاً، يطعنون بعضهم بعضاً، ويملؤون أناهُم بالغرور. أين هم مبدعونا الكبار؟ هل كانوا جميعاً على هذه الشاكلة؟! على الأرجح نعم. وربما كانت الكتابة نوعاً من الخداع، وبعضُهم يجيدُ الخداع أكثر من غيره.

بكل الأحوال، تمّ توزيع عدّة نسخ من السيناريو، لكنّ أحداً لم يتبنّاه. بعضُهم قالوا إنه عملٌ مهم، لكنّ اعتراضهم الرئيسي أنّ فيلماً كهذا لن يحظى بمتابعة جمهور غفير. كانوا يفضّلون أن يكون موضوعُ الفيلم عن رجل عظيم أو استثنائي يُدمّر نفسه بالشُرب، أما أنْ يقتصر

الموضوع على مشرّدٍ سكّير! أو مشرّدين سكّيرين! فهذا غير مقنعٍ لهم. من يأبه لأشخاصٍ مثل هؤلاء؟ ومن يهتمّ كيف يعيشون أو كيف يموتون؟

تلقيتُ اتصالاً هاتفياً من جون: اسمعْ، ماك أوستن قرأ السيناريو وأعجبه، يودُّ إخراج الفيلم، ويريد نفس الممثل الذي أريده للعب دور البطولة.

- من الممثل؟

- توم بيل.

- نعم، سيكون سكّيراً نموذجياً.

- بيل مولعٌ بالسيناريو، ومهووسٌ بكتاباتك، لقد قرأ كلَّ كتبك. وقد طار عقلُه بهذا السيناريو، وقال إنه مستعدٌ لتمثيل الدور مقابلَ دولار واحد.

- يا إلهي!

- لكنه مُصرّ أن يكون الفيلم من إخراج ماك أوستن، وأنا لا أطيقُ ماك أوستن، فهو عدُوّي.

- لماذا؟

- كانت بيننا عدة مشاكل.

- ما رأيك أنْ تتصالحا وتنتهي المشكلة؟

- أبداً! ماك أوستن لن يُخرج هذا الفيلم!

- حسناً جون، فلْنَنْسَ الموضوع إذنْ.

- لا، انتظرْ، أريد أن نلتقي في بيتك أنا وماك أوستن وجيم بيل،

وأنتَ طبعاً. لعلّكَ تقنع جيم بيل بتغيير رأيه، وبتمثيل الفيلم دونَ أوستن. إنه ممثل عظيم كما تعلم.

ـ أعرف، إذن ادعوهم إلى بيتي. هل ستأتي رومانا معه؟

ـ لا.

(كان توم بيل متزوّجاً من رومانا، مغنّية البوب الشهيرة).

ـ حسناً، متى ستأتون؟

ـ اتفقنا أن يكون اللقاء غداً عند الساعة الثامنة والربع مساءً، إذا لم يكن عندكَ مانع.

ـ أراكَ مستعجلاً؟

ـ في لعبة كهذه، إما أن تتصرّف بسرعة أو تموت.

ـ إنها لا تشبه الشطرنج إذنْ؟

ـ هي أقرب إلى لعبةُ الداما بين أحمقين.

ـ وأحدُ الأحمقين سيفوز؟

ـ والآخر سيخسر.

وصلتني معلوماتٌ جديدة عن أسباب الخلاف بين جون بينشو وماك أوستن. بالرغم من أن جون قد صنع معظم أفلامه في أوروبا، وأوستن في أمريكا، إلاّ أن نجوم السينما يرتادون الأماكنَ ذاتها في هوليوود. كان جون وماك أوستن يتناولان الطعام في المطعم ذاته، لستُ متأكداً من كان السكرانُ بينهما ومن كان الصاحي، لكنّ مشادّةً كلاميةً وقعتْ بين المخرجَين وكلٌّ منهما جالسٌ على طاولته. كانت مشاجرةً استُخدمتْ فيها مصطلحات المهنة: التقنيات، الخلفية، التدريب، المشهدية... إلخ.

وفي النهاية نهض ماك، وصرخ في وجه جون: «هل تُسمّي نفسكَ مخرجاً؟ أنت لا تستطيع تصوير حركة السير!». لم أكنْ أعلم أن تصوير حركة السير يحتاج إلى براعة فائقة. على كل حال، سبقَ لأشخاصٍ أن اتهموا ماك علانيةً بأنه لا يجيد تصوير حركة السير، والآن يحظى بالإشادة والإطراء منهم أنفسهم، كلُّ شيءٍ واردٌ في عالم الكذب وهوليوود.

لاحقاً، سمعتُ بأسبابٍ أخرى تكمن وراء الخلاف بين جون وماك. دعنا من ذلك، حان وقتُ اللقاء المرتقب...

داخلي ـ بيت الكاتب ـ الساعة ٨:١٥ مساءً:

وصل جون باكراً: انتظرْ لترى المدعو أوستن هذا، لقد أقلعَ مؤخراً عن الكحول والمخدرات، بعد أن صار جسمه كالإطار المثقوب أو كالجورب الفارغ.

قالت سارة: إنهُ لَعملٌ رائعٌ أن ينظّف جسمه من السموم، وشجاع أيضاً.

ـ ربما.

وصلا قرابة الساعة الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة. كان توم بمعطفه الجلديّ المعتاد، بينما يرتدي ماك معطفاً مصنوعاً من جلد العجل، لهُ أذيال جلدية مسترسلة. ويلبس كذلك نصفَ دزّينةٍ من السلاسل الذهبية حول عنقه. رحّبنا بهما، سكبتُ نبيذاً لـ توم، وجلسنا حول الطاولة.

بدأ توم بالحديث: لقد قرأتُ السيناريو وأحببته. أريدُ أن أغرزَ أسناني في لحم ذاك الساقط... بدأتُ أحسُّ بطعم لحمه... هذه هي الأدوار التي أُجيدها.

ـ شكراً يا رجل، دورُك هو الوحيد الذي وجدنا له ممثلاً.

قال ماك: وجدنا ـ أنا وتوم ـ مُموّلاً، وها نحن جاهزان للانطلاق.

قلتُ: ألا تريد أن تشربَ كأساً يا ماك؟

ـ لا، شكراً.

قالت سارة: سأجلب لك زجاجة صودا، أم هل تفضّل الشاي؟

ـ الصودا مناسبة لي.

ذهبت سارة لتحضر لـ ماك شيئاً يهدّئ أعصابه، كان لدينا بعض الصودا الصحيّة، نخب أوّل!... أنهيتُ كأسي وسكبتُ أخرى. بدأتُ أشعرُ أننا لن نصلَ إلى أية صيغةٍ من التوافق أو التسوية.

قال توم: أريد ماك مُخرجاً للفيلم، أعرف كيف يعمل، وأثق بعمله.

ردّ جون: ولا تثق بعملي؟

ـ ليس الأمر كذلك، لكني أحسُّ بأني أبدعُ أكثرَ أثناء العمل مع ماك.

ـ أنا المخرج الوحيد الذي سوف يخرج هذا الفيلم.

ـ اسمعني جون، أعرف أن هذا الفيلم يعني الكثير بالنسبة لك، سوف نجد لك عملاً في الفيلم، وسندفع لك جيداً، وسنضع تحت إشرافك العديد من الأعمال. أرجو أن تقبل بهذا، أريد للعمل أن ينطلق، أرجو أن تفهمني.

عادت سارة حاملةً صودا ماك، قال ماك: أعرف بأني سأبدعُ بالعمل مع توم.

قفز جون: لن تفعل!

ردّ ماك: اذهبْ وصوّرْ حركة السير.

استمرّ الجدال لبضع ساعات، انغمسنا أنا وسارة وجون بالشرب،

وكذلك توم، بينما تابع ماك الحفاظ على صحته بشرب الصودا. قالت سارة: جميعكم عنيدون كالثيران، بالتأكيد يمكننا التوصل إلى حلّ ما.

لكن المناقشة استمرّتْ مثلما بدأتْ، لم يستسلمْ أحد، ولم تكن لديّ أية أفكار مجدية، ولم أستطع حلَّ المعضلة. حتى أننا بدأنا بتغيير الحديث، فروينا قصصاً ظريفة، وشربنا مزيداً من الأقداح.

وفي النهاية، لا أذكر من كان يحكي قصة مضحكة، لكنها قضتْ على ماك أوستن، صرعتْه أرضاً، رغم اقتصاره على المشروبات والمأكولات الصحية. فقد وقع على ظهره ضاحكاً بصوتٍ مزمجر، بينما تتأرجح السلاسلُ الذهبية على صدره للأعلى وللأسفل. ثمّ استجمع قواه ونهض.

وبعدها حان وقت الفراق، قرّر توم وماك الذهاب فودّعناهما. وبعدما انطلقتْ سيارتهما، نظر جون إليّ وقال: هل سمعت تلك الضحكة المزيّفة؟ هل رأيتَ تلك السلاسل الذهبية اللعينة وهي تتأرجح على صدره؟!

ـ نعم، رأيت.

قالت سارة: لقد كان متوتراً، فهو الوحيد الصاحي بيننا. هل سبقَ لكَ أنْ جلستَ مع مجموعة من السُكارى دون أن تشرب معهم؟

ـ لم يحدثْ ذلك أبداً.

سألني جون: هل يمكنني استعمال الهاتف؟

ـ طبعاً.

ـ يجب أنْ أتصل إلى باريس حالاً.

ـ ماذا؟!

- لا تقلقْ، ستكون أجرة الاتصال محوّلة على المُستقبِل. يجب أنْ أتحدث مع محاميَّ الخاصّ، وأعدّلَ في وصيّة موتي...

- انطلقْ.

مشى جون إلى الهاتف، وبدأ التحضيرات لإجراء مكالمة دولية، بينما ملأتُ الكؤوس مجدداً. قالت سارة: الأمور تسير بشكل سيء مع هذا الفيلم.

- صحيح، لكنْ أنْ يحدث شيءٌ سيّء، أفضلُ من ألاّ يحدث شيءٌ أبداً.

- تظنّ ذلك؟

- لا أعرف، فكّري بالأمر، فلستُ واثقاً مما قلت.

نجح جون بالاتصال إلى باريس، كان مخموراً ومنفعلاً، سمعناه وهو يتكلّم بصوتٍ عالٍ: بول... نعم... أنا جون بينشو! نعم... الموضوع مستعجل! أريد أن أعدّل وصيّة موتي! هل أنت جاهز؟ نعم سأنتظر...

نظر جون إلينا: الأمر في غاية الأهمية.

ثم تابع عبر الهاتف: نعم... بول... ثمة فيلم أملك حقوقه، اسمه «رقصة جيم بيم» كتبه هنري تشيناسكي! جيّد، دوّنْ عندك. في حال موتي يُمنع ماك أوستن من إخراج هذا الفيلم! يمكن لأيّ شخصٍ على كوكب الأرض أن يخرج الفيلم... ما عدا ماك أوستن! هل سجّلتَ ذلك يا بول؟ نعم، شكراً جزيلاً يا بول. نعم أنا بحالٍ جيدة، كيف صحتك؟ حسناً... أيُّ شخصٍ كان إلاّ ماك أوستن! شكراً مرة أخرى، ليلة سعيدة، وداعاً.

بعد المكالمة شربنا كأساً آخر، ثم نهض جون ليغادر، لكنه توقّف عند الباب وقال: هل سمعتَ تلك الضحكة المزيّفة؟ هل رأيتَ تلك السلاسل الذهبية اللعينة وهي تتأرجح على صدره؟!

ـ نعم يا جون.

غادر جون وانتهت السهرة.

خرجتُ مع سارة لنُنادي على قِطَطِنا، كان عندنا قطط، ولا ننام حتى نُدخلها جميعها إلى المنزل. غالباً ما يسمعنا الجيرانُ ونحن ننادي القطط في آخر الليل أو في الساعات الأولى من الصباح، لكنهم لطفاءٌ ولا يتذمّرون. أما تلك القطط اللعينة، فقد كانت تأخذ وقتها وهي تتسكّع في طريقها إلى المنزل.

١٩

بعد ثلاثة أو أربعة أيام، اتصل جون: جاك بليدسو قرأ السيناريو وأعجبه، ويريد التمثيل في الفيلم. حاولتُ إقناعه بأنْ نذهب سويةً لزيارتك، لكنه اعتبرَ ذلك غير لائق بمكانته، وقال إنه ينبغي عليكَ أنتَ الذهاب لزيارته.

ـ وهل ذهابي لزيارته يُحرج مكانته بنسبةٍ أقل؟

ـ أظن أن هذا ما يعتقده.

ـ هل تراه ممثلاً مناسباً لدور البطل؟

ـ نعم، فهو ابن الشوارع، كان يبيع الكستناء على عربة في الشارع، إنه ابن نيويورك!

ـ شاهدتُ بعضاً من أفلامه.

ـ وما رأيك؟

ـ ربما... عليه أن يتوقف عن توزيع الابتسامات طوال الوقت، وعندما لا يجد شيئاً آخر يفعله. وعليه أن يتوقف عن لكم الثلاجة بقبضتيه، وعليه أن يتخلّى عن طريقته المتبجّحة في المشي، تلك التي تعلّمها في نيويورك، حيث يمشي الناس وكأنهم يضعون موزةً في مؤخرتهم.

ـ كان ملاكماً في السابق، جاك بليدسو لا غيره.

ـ اللعنة! جميعنا كنا ملاكمين.

ـ إنه ملائم للدور، ثقْ بي.

ـ جون، لن ينجح ابنُ نيويورك، فبطلُ الفيلم شابٌ من كاليفورنيا، وشبابُ كاليفورنيا يسترخون على مقاعدهم الخشبية، ولا يتصرفون بعجالة، هادئون ويحسبون الخطوة التالية، وأقلُّ هلعاً من شباب نيويورك. لكنهم رغم هذا قادرون على القتل، دون أن يحدثوا جلبةً قبل التنفيذ.

ـ أخبرْه بذلك.

ـ حسناً، متى وأين؟

كان الموعد عند الساعة الثامنة مساءً في شمال هوليوود، وصلنا متأخّرين خمسَ دقائق، كنا نصعد باتجاه الشقة عابرين ممراتٍ ضيّقة ومظلمة: آملُ أنْ يكون عنده ما يُشرب، كان يجبُ أن نحضرَ شيئاً معنا.

قالت سارة: بالتأكيد سيكون لديه ما يشرب.

أضعنا رقم الشقة، ثم رأينا جون واقفاً على الشرفة ينادينا. صعدنا الدرج باتجاه جون، كانت الشقة واحدةً من المخابئ السرية التي يستخدمها جاك.

دفع جون الباب ودخلنا معاً. كان جاك بليدسو جالساً على أريكة عتيقة، برفقة صديقه ليني فيدلو، وهو ممثل يؤدّي أدواراً ثانوية. بدا لي جاك بليدسو كما يبدو تماماً على شاشة السينما، بينما بدا ليني فيدلو أكثر سمنةً وضخامةً ووزناً. ويبدو أنّ الحياة قد تركت آثارها عليه، بل

عركتْه عركاً. نظرتُ إلى عينيه الواسعتين الحزينتين، وإلى يديه الضخمتين، يا لَه من متعبٍ بائس!

تبادلنا التحية والتعارف.

سألتُ جاك مشيراً إلى ليني: من هذا الرجل؟ حارسُك الشخصي؟

ـ نعم.

كان جون واقفاً جانباً وهو يبتسم، يبدو سعيداً وكأنه يشاهد اجتماعاً للأرواح العظمى. سألتُ: هل يوجد لديكم ما نشربه؟

ـ لا يوجد عندي سوى البيرة، هل تناسبك؟

ـ لا بأس بها.

ذهب ليني إلى الغرفة المجاورة ليحضر البيرة، أسِفتُ على سارة فهي لا تحب البيرة.

على كافة جدران الشقة، ثمة صورٌ كبيرة لملاكمين. تجولتُ بين الصور، إنها رائعة! بعضُ الصور أعادتني إلى نزقِ الشباب، وأحسستُ برغبة في اللكم والضرب. كانت بعضُ نوابض الأريكة بارزةً إلى الخارج، بالإضافة إلى الوسائد المرمية على الأرض، والصحف والمجلات والأكياس الورقية. ضحكتْ سارة: إنه وكرٌ ذكوريٌّ بامتياز.

ـ نعم، صحيح، أحببتُ المكان جداً، سبقَ لي أن عشتُ في أماكن مخرّبة كهذا، لكنها لم تكن في روعته.

قال جاك: نحبُّ هذه الشقة أيّما حبّ.

عاد ليني حاملاً علب البيرة، فتحناها وشرعنا نشرب. سألتُ جاك: هل قرأت السيناريو؟

ـ نعم، هل الشاب الذي في السيناريو هو أنت؟

ـ أنا، منذ زمن بعيد.

ـ كنتَ تُهزَمُ أثناء الشجارات؟

ـ غالباً.

ـ وهل حقاً كنتَ تعمل مرسالاً شفوياً من شخص إلى آخر، لكي تحصل على فطيرة؟

ـ غالباً.

كانت البيرة لذيذة حقاً، ثم عمّ الصمتُ في المجلس، فسألتُ جون: ما رأيك إذن؟

ـ تقصد رأيي في جاك؟

ـ نعم.

ـ سوف ينجح في أداء الدور، ربما علينا أن ندرّبه قليلاً.

قال جاك: دعني أرَ مهاراتك في القتال.

نهضتُ ورحتُ ألكمُ الهواء. قالت سارة: لكماتك سريعة.

جلستُ وقلتُ: أجيد تسديد اللكمات بطريقة مميزة، لكنْ تنقصني الرغبة العميقة في اللكم، لا أعرف ماذا كنتُ أفعل. هل لديكم المزيد من البيرة؟

ـ بالتأكيد.

ـ نهض ليني ليجلب مزيداً من البيرة.

كان معروفاً لدى الجميع في هوليوود، أن جاك بليدسو لا يُطيقُ توم بيل، وغالباً ما يتحدّث عنه بالسوء في معظم لقاءاته التلفزيونية: «جاء توم من ماليبو، بينما أتيتُ أنا من الشوارع». في الحقيقة لا يهمّني من أين جاء الممثل، طالما أنه يجيد التمثيل. كلاهما ممثلان بارعان، ولا

حاجة لأيّ منهما بأنْ يتحدّث بهذه الطريقة الرديئة التي يتحدّث بها الكُتّاب.

عاد ليني مع البيرة قائلاً: هذه آخر علبة بيرة.

ـ اللعنة! سحقاً!

ـ سأعود حالاً.

قالها جون وهو يغادر الشقة، ذاهباً لشراء المزيد من البيرة. سألني جاك: هل يعجبك جون بينشو كمخرج؟

ـ ألم تشاهد فيلمه الوثائقي عن ليدو مامين؟

ـ لا.

ـ بينشو لا يخشى شيئاً، يعبث مع الموت ببراعة.

ـ إنه مولَعٌ بالموت، صحيح؟

ـ يبدو كذلك، لكنه أخرج أفلاماً أخرى غير ليدو مامين. إني أثق فيه بوصفه مخرجا، فهو لم يتلوّثْ بجوّ هوليوود، مع أنه قد يتلوّث يوماً ما.

ـ وماذا عنك؟

ـ ماذا عني؟ ما قصدُك؟

ـ هل انتزعتْ هوليوود خصيتيك؟

ـ لا طبعاً.

ـ آخرُ كلامٍ لديك؟

ـ آخرُ كلامٍ لديّ!

قالت سارة: هانك يكره الأفلام، آخر فيلم أعجبه كان «عطلة نهاية الأسبوع الضائعة»، وتعرفُ كمْ هو فيلم قديم.

أضفتُ: راي ميلاند قليلُ التمثيل، لكنه ممثل حاذق.

وبعد البيرة، حان وقتُ التبوُّل، سألتُ عن مكان المرحاض ومضيتُ إليه. قضيتُ حاجتي ثم وقفتُ أمام المغسلة لأغسل يدي، يا إلهي! ما هذا؟! ثمة منشفةٌ بيضاء في حوض المغسلة، أحدُ طرفيها مقحمٌ في بالوعة المغسلة، أما بقية المنشفة فتمتدُّ على المغسلة ثم تتدلّى منها إلى الأرض. كان منظراً شنيعاً جداً، وكانت المنشفة مبلّلة تماماً، ماذا تفعل هنا؟ ما معنى وجودها؟! هل تُركتْ هنا بعد حفلة جنس جماعيّ؟؟ لم أفهم شيئاً، لكني أعرف أنّ وجودها يعني أمراً ما. هل بلغتُ من العمر عتيّاً، وما عدتُ أستوعبُ منتجاتِ العصر الحديث؟! لقد عشتُ أياماً ولياليَ في غاية القذارة، جميعُها لا معنى لها. لكني لم أفهمْ ماذا تفعل هذه المنشفة البيضاء الكبيرة المبللة هنا!

والأسوأ من ذلك، هو أن جاك يعرف أني آتٍ لزيارته، فلماذا يتركُ شيئاً كهذه، في مكان كهذا، بهذي الطريقة؟ أهي رسالة موجّهة لي؟!

عدتُ إليهم، لو كنتُ ابن نيويورك لقلتُ: ماذا تفعل المنشفة البيضاء المبلّلة الوسخة في تلك المغسلة القذرة؟! لكني ابن كاليفورنيا، ولذا عدتُ إلى مكاني وجلستُ في هدوء، ولم أنبسْ ببنت شفة. فكّرتُ: إنّ ما يفعلونه هو من شأنهم، وليس من شأني أنا.

عاد جون حاملاً علب البيرة، وعادت الحياة تسري في عروقي مجدداً. قال جاك: أريد أن تلعب فرانسين باورز دورَ بطلة الفيلم، أعتقد أني أستطيع إقناعها.

ردّ جون: أعرف فرانسين، أستطيع إقناعها أيضاً.

ذهب ليني ليجلب مزيداً من البيرة، يبدو مولعاً بالشرب، إنه نموذجي المفضّل من الرجال. سألني: هل ثمة دورٌ لي في هذا الفيلم؟

نظرتُ إلى جون بصمت. قال جاك: أحبُّ أنْ يشاركني ليني في أفلامي.

قال جون: أعتقدُ أني سأجد لك دوراً في الفيلم.

أجاب ليني: قرأتُ السيناريو، أرى أني مناسبٌ لدور ساقي الحانة.

قلتُ: هذا غير ممكن، هل ستضربُ صديقك جاك؟ لن تفعلها؟!

ـ لا مشكلة عندي.

أضاف جاك: هذا صحيح، لقد ضربني مرة، وأسقطَ واحداً من أسناني أرضاً.

سألت سارة: حقاً؟

ـ ولِمَ لا؟

شربنا البيرة، تبادلنا أحاديث قصيرة، معظمها عن بطولات ليني. فهو يدفع للناس ديونهم، ثم يجمعها منهم مرة أخرى. وعندما أوشكت البيرة على النفاد، أدركتُ أنّ وقت الذهاب قد حان. زرتُ المرحاض اللعين مرة ثانية، ثم خرجنا أنا وسارة في اتجاه الباب. كان جون متأخراً عنا قليلاً، يتابع حديثاً ما كعادته. أمرٌ غريب طرأ لي عند الباب، سألتُ جاك: يا رجُل! ماذا تفعل تلك المنشفة الضخمة المبلّلة اللعينة، التي يسيلُ الماء والصابون من مؤخرتها، فوق المغسلة؟!

ـ عن أي منشفة ضخمة، يسيل والماء والصابون من مؤخرتها، تتحدث؟!

وهكذا انتهت تلك السهرة الاستثنائية.

٢٠

مضت ثلاثة أسابيع أو أربعة. رنّ الهاتف ذات ليلة وكان جون: كيف حالك؟ كيف حال سارة؟

ـ نحن بخير، أما زلت على قيد الحياة؟

ـ نعم، وكذلك «رقصة جيم بيم». فرانسين باورز قرأتْ السيناريو وأحبّته، كما أنها طلبتْ حسماً من راتبها المعتاد لتتفرّغ للعمل، جاك فعلَ الأمر ذاته، لا تخبرْ أحداً.

ـ لن أخبر أحداً، لكن لماذا هذه الحسومات؟

ـ إننا نتعامل مع شركة «فاير باور» للإنتاج، لصاحبيها هاري فريدمان ونيت فيشمان. تقوم الشركة بحسم مبالغ كبيرة من الرواتب الشهرية للممثلين المتعاقدين معها، عندما يريدون التفرّغ للتمثيل في فيلم ما. كانت هناك عقبة في طريقنا، إذ قام وكيلُ أعمال جاك بالاحتجاج قائلاً إنّ عقد جاك يتضمّن عبارة «مثّلْ أو ادفعْ».

ـ ما هذا؟

ـ هذا يعني أن جاك سيتقاضى راتبه الشهري سواءٌ مثّلَ في الفيلم أم لم يمثّلْ. معظمُ الممثلين الكبار يضمّنون عبارة «مثّلْ أو ادفعْ» في عقودهم.

ـ لا أصدّق أن فيلمنا سوف يرى النور.

ـ لعبَ توم بيل دوراً مساعداً في ذلك، فعندما قال إنه سيُؤدّي دورَ البطل مقابلَ دولار واحد، أعطى للفيلم مصداقيّة كبيرة.

ـ أتمنى لو كان توم معنا.

ـ لقد ساعدنا حقاً، فعندما سمع جاك أنّ توم مستعدٌّ لأداء الدور مقابل دولار واحد، أصبحَ مهتماً به، وكذلك شركة «فاير باور». نحن محظوظون.

ـ هل تعرف ماذا يقول ليبي ليو دورروتشر؟

ـ ومن هذا؟!

ـ لاعبُ بيسبول قديم، يقول: أُفضّلُ أنْ أكون محظوظاً على أن أكون جيّداً.

ـ أعتقد أننا محظوظون وجيدون.

ـ ربما، لكن من هؤلاء أصحاب شركة «فاير باور»؟

ـ إنهم جُدُدٌ في هوليوود، منبوذون من الجميع، لا أحد يعرف كيف يتعامل معهم. كانوا ينتجون أفلاماً تجارية رخيصة في أوروبا، ثم انتقلوا إلى هنا، وبين ليلةٍ وضحاها صاروا ينتجون أفلاماً بالجُملة، واحداً تلو الآخر. الجميع يكرههم، لكنهم شغّالون، ولو أنّ العمل معهم متعب.

ـ على الأقلّ أخذوا «رقصة جيم بيم».

ـ نعم، في الوقت الذي لم يأخذه أحد. للشركة مبنى ضخم يقع شمال هوليوود، زرتُهم في مكتبهم والتقيتُ بـ هاري فريدمان، سألني: «أخذتَ جاك بليدسو وفرانسين باورز؟!»، قلتُ: نعم،

فقال: «حسناً سوف ننتج الفيلم»، سألته: ألا تودُّ قراءة السيناريو؟، فأجاب: «لاء».

ـ رجلٌ مثير للاهتمام.

ـ هوليوود تكرهه.

ـ هذا سيء.

ـ يجب أن تلتقي به، فهو رجلٌ ذو ثقلٍ كبير بالمناسبة، سيقيم حفلة عيد ميلاده في منزله مساء الخميس القادم، تعال أنت وسارة. شريكُه نيت فيشمان سيكون موجوداً كذلك.

ـ سوف نذهب، أعطني العنوان...

بعد عشر دقائق، رنّ الهاتف مرة أخرى: هانك، أنا تيم رودي، أحدُ منتجي فيلم «رقصة جيم بيم».

ـ تعمل لدى شركة «فاير باور»؟

ـ لا، أنا أعمل مع جون، نحن المنتجون المساعدون، أنا ولانس إدواردز.

ـ حسناً.

ـ على كل حال، هل تعرف فيكتور نورمان؟

ـ قرأتُ كتبه.

ـ طيّب، وهو قرأ كتبك أيضاً، إنه يكتب ويخرج فيلماً لصالح «فاير باور» حالياً، وهو ذاهبٌ إلى حفلة عيد الميلاد. يريد منك أنْ تمرّ لزيارته في فندق «شاتو مارمون»، ثم تذهبان سويةً إلى الحفلة.

ـ ما رقم جناحه في الفندق؟

ذهبتُ إلى فندق «شاتو مارمون» مساء الخميس، أخذ الخادم سيارتنا عند المدخل، ودخلنا في بهو الفندق. ثمة رجلٌ متبسّمٌ نصفُ أصلع جالسٌ بانتظارنا، إنه تيم رودي. ألقينا التحيّة وتبعناه إلى الجناح، فتحَ فيكتور نورمان الباب. أحببتُ عينيه، يشعُّ منهما الهدوء والفطنة.

كانت سارة مشرقة الجمال في ذاك المساء، فراح نورمان يرمقُها بنظراته ويبتسم. صافحتُه وقلتُ: «السكّير يلتقي بالمعلّم الكبير»، فأعجبه الوصف.

فيكتور نورمان أشهرُ روائي في الولايات المتحدة، يظهرُ على التلفاز بشكل متكرر. كان كاتباً نبيهاً وبليغاً، وأكثرُ ما أحبّه فيه هو أنه لا يخاف من ناشطات الحركة النسوية، كان واحداً من أواخر المدافعين عن الذكورة والخصى في أمريكا، وهذا الأمرُ يتطلب شجاعة نادرة. لم أكنْ معجباً بكل نتاجه الأدبي، ولستُ معجباً بكل نتاجي الأدبي أيضاً.

- لقد أعطوني أكبر جناح في الفندق بسعر مخفّض، كدعايةٍ لهم كما قالوا. لكن في كل الأحوال، شركة «فاير باور» سوف تسدّد الحساب.

تبعناه إلى الشرفة، يا لَها من إطلالة ساحرة على مدينة ساحرة! كان منظراً يُرعشُ الجسد، سألته: أليس لديك ما نشرب؟

تبعْنا فيكتور إلى الغرفتين الواسعتين المتّصلتين ببعضهما بعضاً. هنا تحسُّ بأنك محميٌّ من كل شيء، أنتَ في حصن من الأمان، رائع!... عاد فيكتور حاملاً زجاجة نبيذ: لديّ بعض النبيذ الفرنسي، لكنْ ليس عندي فتاحة...

قلتُ لنفسي: يا لهُ من سكّير مبتدئ!

أمسك فيكتور نورمان الهاتف: نريد فتاحة، فتاحة نبيذ، وبعض النبيذ أيضاً، عدة زجاجات...

ونحن ننتظر وصول النبيذ، نظر إلينا وقال: أعمل على فيلمين مع شركة «فاير باور»، أكتب وأخرج الأول، وأمثّل في الثاني الذي يخرجه جون لوك مودار، وآملُ أن تسير الأمور بيننا على ما يرام.

- حظاً موفقاً.

تبادلنا أطراف الحديث لفترة من الزمن، ثم حدّثنا فيكتور عن لقائه بـ شارلي شابلن، كانت قصة مضحكة وفظيعة.

وصل النبيذ أخيراً، كانت سارة تتكلّم مع تيم رودي، أحسّتْ سارة بأنه محبط، فراحت تحاول رفع معنوياته. سارة تجيد التصرف في حالات كهذه، بعكسي أنا.

نظر فيكتور إلي: هل تكتب شيئاً حالياً؟

- أكتب قصائد.

شعر فيكتور بالأسى لأجلي، ثم قال: أعطوني مليون دولار لأكتب روايتي الجديدة، كان هذا قبل عام، ولحدّ اليوم لم أكتب صفحة واحدة، وصرفتُ المال.

- يا إلهي!

- الله لا يساعدُ في حالات كهذه.

- سمعتُ أنكَ تدفع نفقة لزوجتك المطلقة، لكلّ زوجاتك المطلقات...

- صحيح.

- سمعتُ عن إدمانك الخمر كذلك.

ـ صحيح.

ـ ما هذا الشيء الذي تدخنه؟

ـ إنها سجائر «بيدي» الهندية، يصنعها الغجر...

ـ حقاً؟

شربنا وشربنا إلى أن قال فيكتور: أعتقد أن علينا الذهاب إلى الحفلة.

ـ يمكننا الذهاب بسيارتي.

ـ حسناً.

نزلنا إلى الأسفل معاً، بينما فضّل تيم رودي أن يذهب بسيارته.

أحضر خادم الفندق سيارتي، فأعطيته بقشيشاً. ركبَ فيكتور وسارة معي، ومضينا باتجاه حفلة عيد ميلاد هاري فريدمان. قال فيكتور: عندي سيارة «بي إم دبليو» سوداء أيضاً!

ـ الرجالُ العظماء... يركبون الـ «بي إم دبليو» السوداء!

٢١

تأخّرنا عن موعد الحفلة قليلاً، رغم ذلك كان عدد الواصلين قليلاً. جلس فيكتور نورمان على بعد عدة طاولات منا، وما إن جلستُ مع سارة حتى جاء النادل حاملاً كأسيّ نبيذ أبيض، لا بأس بذلك، طالما أن المشروبات مجانية في الحفل. كرعتُ كأسي، وطلبتُ من النادل أن يملأها مجدداً. لاحظتُ أن فيكتور يحدّق فيّ.

كان المدعوون إلى الحفل يصلون تباعاً، لمحتُ ذاك الممثل الشهير الذي يرتدي ثياباً جلدية دوماً. سمعتُ أنه يرتاد جميع حفلات نجوم هوليوود، أينما كانت.

لكزتني سارة بكوعها، كان جيم سيري (الأب الروحي للمخدرات في الستينات) داخلاً، وهو من عشاق الحفلات أيضاً. يبدو متعباً وحزيناً وشاحباً، شعرتُ بالأسى على حاله. راح يتنقل من طاولة إلى أخرى، ثم جلس إلى طاولتنا. ضحكتْ سارة ببهجة عارمة، فقد كانت طفلة في الستينات. صافحتُه مرحّباً: أهلاً بك يا عزيزي.

وفجأةً راح المكان يعجّ بالناس، لم أكن أعرف معظمهم. تابعتُ التلويح للنادل طالباً المزيد من النبيذ، إلى أن جاء حاملاً زجاجة كاملة، ووضعها أمامي: عندما تنتهي هذه الزجاجة، سآتيك بأخرى.

ـ شكراً أيها الوغد.

كانت سارة قد جلبت معها هدية صغيرة لـ هاري فريدمان، خبّأتُها في حضني. ثم جاء جون وجلس معنا: إني سعيد لحضوركما، انظرا... بدأ المكان يمتلئ بالمدعوّين، يمتلئ بالقتلة ورجال العصابات، بأحطّ أصناف البشر.

جون يستمتع بذلك، فخياله خصبٌ يساعده على تجاوز الصعوبات ليلاً ونهاراً.

ثم دخل رجلٌ ذو مكانة بارزة، راح الناس يصفقون ويحيّونه. حملتُ هدية عيد الميلاد واتجهتُ إليه: سيد فريدمان، عيد ميلاد سـ...

تبعني جون وأمسك بي من الخلف، سحبني معه إلى الطاولة: لا لا، هذا ليس فريدمان! إنه فيشمان!

ـ أووووه...

جلستُ في مكاني مجدداً. لاحظتُ أن فيكتور ما زال يحدّق فيّ، حسبتُ أنه سيتعب بعد فترة من التحديق، نظرتُ إليه مرة أخرى، لكنه ظلّ محدقاً. كان ينظر إليّ وكأنه لا يصدّق عينيه. قلتُ بصوتٍ مرتفع: حسناً يا فيكتور! نعم أنا أبول في ثيابي! هل تريد أن نبدأ حرباً عالميةً ثالثة من أجل ذلك؟!

أزاح نظره عني أخيراً.

نهضتُ ذاهباً إلى حمّام الرجال، لكنني أضعتُ الطريق ووجدتُ نفسي في المطبخ. هناك رأيتُ الشاب الذي ينظّف الطاولات وهو يدخّن سيجارة، مددتُ يدي إلى محفظتي وأخرجتُ عشرة دولارات، أعطيتُه إياها، وضعتُها في جيب قميصه.

ـ لا يا سيدي، لا أستطيع أخذها.

ـ ولِمَ لا؟

ـ لا أستطيعُ فحسب.

ـ جميع العاملين في المطعم يأخذون البقشيش، فلماذا لا يستطيع منظّف الطاولات ذلك؟ لطالما حلمتُ بأنْ أصير منظّف طاولات.

عدتُ إلى الصالة وجلست على الطاولة. اقتربت سارة مني وهمستْ: جاء فيكتور نورمان أثناء غيابك، قال إنه من غاية اللطف أنكَ لم تقلْ كلاماً سيئاً عن كتاباته.

ـ كنتُ لطيفاً معه، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ ألستُ فتى صالحاً على الدوام؟

ـ نعم.

نظرتُ إلى فيكتور نورمان إلى أنْ انتبه إليّ، أومأتُ له برأسي مع غمزة.

وأخيراً وصل هاري فريدمان الحقيقي، وقف بعض الحاضرين وراحوا يصفقون، بينما نظر الآخرون ببلاهة. جلس فريدمان إلى طاولته، وُضعِتْ وجبة العشاء أمامه: معكرونة، وانهمكَ فريدمان في التهام وجبة المعكرونة. كان رجلاً بديناً، يرتدي بذلة عتيقة، وحذاءً مهترئاً. كان رأسه ضخماً وخدّاه بدينان، وكان يُقحِم المعكرونة داخل هذين الخدّين. لديه عينان مدوّرتان كبيرتان، تفيضان حزناً وارتياباً. واحسرتاه أن نعيش في عالم كهذا! كان أحدُ أزرار قميصه الأبيض المجعّد ضائعاً، عند بطنه تماماً، بطنه المندفع من بين الأزرار إلى الخارج. يبدو فريدمان مثل ولد ضخم، أضاعه أهله يوماً، ثم نما بسرعة كبيرة، وفجأةً صار رجلاً. كان في الجوّ شيء من السحر، لكن لا

يمكنني الإقرار بذلك، فقد يُستخدم ضدّي يوماً ما. ومن دون ربطة عنق: عيد ميلاد سعيد يا هاري فريدمان!

جاءت شابة ترتدي زيّ الشرطة، وصلتْ إلى طاولة فريدمان وصاحت: أنتَ رهن الاعتقال!

توقف هاري فريدمان عن الأكل وابتسم، كانت شفتاه مليئتان بالمعكرونة. ثم قامت هذه السيدة الشرطية بخلع معطفها، ثم قميصها. كان نهداها كبيران، وراحت تهزّ نهديها تحت أنف فريدمان، وتصيح: أنت رهن الاعتقال!

صفّق الجميع لها، لا أعرف لماذا. ثم أشار فريدمان إلى السيدة الشرطية بأنْ تقتربَ منه، اقتربتْ فهمسَ في أذنها كلماتٍ لا نعرف ما هي، ربما: «عندما آخذكِ إلى بيتي، سأريكِ ما سأفعل!» أو «أضعتِ ناديكِ الليلي، وتريدينني أن أوصلكِ إليه؟» أو «أتيتِ للقائي هنا، لكي تمثلي في الأفلام؟».

ارتدت السيدة الشرطية قميصها ومعطفها وانصرفت. كان الناس يترددون إلى طاولة فريدمان، ويجرون معه حوارات مقتضبة، بينما كان ينظر إليهم وكأنه لا يعرفهم. أنهى فريدمان وجبة عشائه وبدأ في شرب النبيذ، شرب كمية نالتْ إعجابي.

بعد ذلك، راح يتجول بين الطاولات متحدثاً إلى الحضور. قلتُ لسارة: يا إلهي! انظري إلى ذاك الشيء!

ـ ماذا؟

ـ ثمة قطعة معكرونة عالقة في طرف فمه، ومتدلّية إلى الأسفل، ولا أحد يخبره عنها. إنها متدلّية من فمه!

قال جون: رأيتها.

تابع هاري فريدمان جولته بين الطاولات، متحدثاً إلى هذا وذاك، ولم يخبره أحدٌ عنها. وأخيراً اقتربتُ منه، كان على بعد طاولة منا، نهضتُ وذهبت إليه: سيد فريدمان!

- نعم؟

- لا تتحرك.

- (أمسكتُ قطعة المعكرونة من طرفها وسحبتُها) كنتَ تتمشى بين الناس مع هذه القطعة العالقة بطرف فمك، لم أستطع تحمُّل المنظر.

- شكراً.

عدتُ إلى طاولتي، فسألني جون: كيف رأيت الرجل؟

- أعتقد أنه مثير للبهجة.

- قلت لك، لم التقِ برجل من هذا النوع بعد ليدو مامين.

قالت سارة: على كل حال، كان تصرفاً لطيفاً منك، أنْ تزيل قطعة المعكرونة عن وجهه، بينما لم يملك الآخرون الجرأة لفعل ذلك. كان تصرفاً لائقاً جداً.

- شكراً لك، أنا رجل لطيف حقاً.

- صحيح، ما هي التصرفات اللطيفة التي قمتَ بها مؤخراً؟

فرغتْ زجاجة النبيذ، أشرتُ إلى النادل، فعبسَ في وجهي، ثم جاء حاملاً زجاجة جديدة. لكني لم أتذكر أيّ تصرف لطيفٍ قمتُ به مؤخراً.

٢٢

بدأت تحضيراتُ ما قبل الإنتاج، وكانت الأمور تسير على ما يرام، إلى أنْ رنّ الهاتف وقال جون: نحنُ في ورطة!

- ماذا هناك؟

- فريدمان وفيشمان.

- ما بهما؟

- يريدان التخلّص من مُنتجيَّ المساعدين: تيم رودي ولانس إداوردز.

- التقيتُ بـ رودي، ولم ألتقِ بـ إدوارز، لكن لماذا؟

- هذان الرجلان يعملان معي منذ فترة طويلة على الفيلم، وقد صرفا الكثير من الوقت والمال، الآن يريد فريدمان وفيشمان طردهما. أحسّ بالضغوط تحاصرني من كل الجهات، وكلا المنتجين أجريا حسماً على راتبيهما الشهريين. شركة «فاير باور» في ورطة حقيقية، هيئةُ الأوراق المالية والصرف تقوم بالتحقيق معها، إذ ارتفعتْ أسهم الشركة إلى أربعين دولاراً للسهم الواحد، ثم هبطتْ فجأةً إلى أربعة دولارات للسهم.

- أووووه...

- «تخلّصْ من هذين الرجُلين» هكذا قالوا لي «نحن لا نحتاجهما»، لكني أجبتُ: أنا بحاجة إليهما، لمَ لا تريدونهما؟، فكان جوابهم «ألسنا قادرين على الإنتاج بدلاً من هذين؟». ثم قلت: لكنكم أمضيتُم عقداً معهما، فأجابوني «ألا تعرف ما يعنيه إمضاءُ العقد؟ العقد هو اتفاق مبدئي لكي نتفاوضَ عليه مرةً أخرى».

- يا إلهي!

- هذان الرجلان يضغطان عليك ويعصرانك، يضغطان ويعصران، وسوف يستمران بالضغط حتى لا يبقى فيك شيءٌ يُعصَر. فأنا مسبقاً قد وافقتُ على تصوير الفيلم خلال اثنين وثلاثين يوماً بدلاً من أربعة وثلاثين يوماً. ثم راحوا يخصمون من ميزانية الفيلم يوماً تلو الآخر. لم يعجبهم مهندس الصوت الذي اخترته، لم يعجبهم المصوّر كذلك، يريدون أناساً يقبلون بأجرة أقلّ. ثم يقولون لي: «يجب عليك أن تتخلّص من هذين المنتجين المساعدين... نحن لا نحتاجهما».

- وماذا ستفعل؟

- لا يمكنني التخلّي عن تيم ولانس. لدينا خطة، غداً سنجتمع أنا وتيم مع المحامي عند الغداء، هذا المحامي معروف في جميع أرجاء هوليوود، مجرّدُ ذكْر اسمه يدبُّ الرعب في القلوب. إنه محامٍ قويّ جداً، وهو مدين لـ تيم بخدمة. وبعد الغداء سنذهب برفقةِ المحامي عند فريدمان وفيشمان، ومن المفيد أن تكون حاضراً معنا، ما رأيك؟

- بالتأكيد، متى.وأين؟

كان الغداء في «موسّو»، حجزنا الطاولة الكبرى التي في الزاوية، شربنا وتناولنا الغداء. ثلّةٌ من الأشخاص راحوا يتردّدون إلى طاولتنا، ويتبادلون حواراتٍ مقتضبة مع المحامي. وفي الحقيقة كان الجميع يحترمه ويهابُه. فقد كان المحامي أنيقاً جداً، يرتدي بذلةً باهظةَ الثمن.

كان المحامي وتيم وجون يضعون خطة استراتيجية لمواجهة فريدمان وفيشمان، لم أُعِرْهم اهتماماً، ثم قرر المحامي: أنت تقول هذا، وأنا أقول ذاك. لا تقلْ ذلك، دعه لي.

المحامون والأطبّاء والسبّاكون يحصدون كل المال، أما الكتّاب؟ الكتّاب يموتون جوعاً، الكتّاب ينتحرون، الكتّاب يصابون بالجنون.

انتهى موعد الغداء، ركبنا سياراتنا الفارهة، واتجهنا إلى ذلك المبنى الأخضر الكبير حيث ينتظرنا فريدمان وفيشمان.

رافقتنا السكرتيرة إلى مكتب هاري فريدمان، وما إن دخلنا المكتب حتى نهض فريدمان من وراء طاولته، وراح يصرخ: أنا آسف، لكن الشركة لا تملك أية نقود، ولا نستطيع فعل أي شيء. المنتجان المساعدان يجب أن يرحلا، لا نملك أي مال!

ونحن نبحث عن كراسٍ لنجلس عليها، قال جون: سيد فريدمان، أنا بحاجة إلى هذين الرجلين، فهُما عنصران أساسيان في عملية الإنتاج.

كان فريدمان لا يزال واقفاً، خلع قفازه المزوّد بمسامير حادة ووضعه على المكتب: لسنا بحاجة إلى أحد! خاصةً هذين الرجلين! لماذا نحتاجهما؟ أخبرني، لماذا نحتاج إلى هذَين؟!

- إنهما منتجيّ المساعدين يا سيد فريدمان.

- أنا منتج! أنا أفضلُ من كليهما! لا أحتاج إلى هذين الرجلين! إنهما مصّاصا دماء، مصّاصا دماء!

جلس فريدمان خلف طاولة المكتب، ومن الواضح أنه قد عرف من هو المحامي الكبير الذي جاء معنا. فمن خلف طاولته قالها بهدوء: لسنا بحاجة إلى أحد.

سعل المحامي الكبير، ثم تكلّم: أرجوك، اعذرني، لكن هنالك... عقد...

قفز فريدمان من وراء طاولته وصاح: أنت اخرس! اخرس أيها المتحذلق!

أجاب المحامي الكبير: سأتواصل معك لاحقاً.

- لا، تواصلْ معي الآن، هيا تحدّث! تواصلْ معي! أيها المتحذلق التافه! أنت لا تساوي شيئاً أمامي!

نهضنا جميعاً، اجتمعنا عند الباب، تبادلنا بضع كلماتٍ فيما بيننا، ثم غادر المحامي برفقة تيم. قال جون إنه يريد التحدث مع فريدمان مرة أخرى، فبقيتُ معه.

عدنا وجلسنا في المكتب، قال فريدمان: لا أستطيع الدفع لهذين الرجلين.

انحنى جون إلى الأمام، لوّح بيده، وقال: لكن يا هاري، لا يمكنك أن تطلب من هذين الرجلين العمل لديك مجاناً؟!

- يعجبني الأمر حينما يعمل الناس مجاناً، أعشق ذلك!

- هذا ليس عدلاً، اشتغل هذان الرجلان عدة أشهر، يجب أن تدفع لهما شيئاً.

- حسناً، سأدفع لهما خمسة عشر ألف دولار.

- ثلاثون ألف دولار فقط؟ لكل هذه الأشهر من العمل!

- لا، الخمسة عشر ألف دولار يتقاسمها الاثنان معاً.

ـ هذا مستحيل!

ـ لا شيء مستحيل. من هذا الرجل؟

ـ إنه الكاتب.

ـ يا له من عجوز! لن يعيش طويلاً، سوف أخصم من أجرته عشرة آلاف دولار.

ـ لا، أنا دفعتُ له من أجرتي.

ـ إذاً سأخصم من أجرتك، وأنت تخصم من أجرته.

ـ هاري، كفى! أرجوك...

نهض فريدمان من خلف طاولته، وجلس على أريكة جلدية بجوار الحائط. رمى جسده متمدداً على الأريكة، وكأنه يحدّق إلى السقف. ظلّ صامتاً، ثم تنهّد بعمق، وراحت عيناه تدمعان: لا نملك أية نقود، نحن مفلسون، لا أعرف ماذا سأفعل، ساعدوني، ساعدوني!

عمّ الصمت لدقيقتين، دخّن فيها جون سيجارة. ثم تكلّم فريدمان وهو ينظر إلى السقف: ألا يمكننا أن ندعوه «فيلماً فنياً»، أليس كذلك؟

ـ نعم، هذا صحيح.

قفز فريدمان من أريكته، وركض إلى حيث جون: فيلم فنيّ! فيلم فنيّ! إذنْ سوف تعملون مجاناً... فدىً للفنّ!

وقف جون: سيد فريدمان، علينا أن نذهب.

مشينا باتجاه الباب، صاح فريدمان: «جون، يجب على مصّاصَيْ الدماء أن يرحلا»، تابعنا المشي. «أنتم مصّاصو دماء»، سمعنا صوت فريدمان يتردّد خلفنا... «مصّاصو دماء»... «مصّاصو دماء»...

ركبنا السيارة، واتجهنا إلى الطريق العام.

٢٣

قرّرنا الذهاب إلى حي الأجانب مرة أخرى، وبما أنّ سيارة الفولكس ما تزال عندي، فقد ذهبنا بها. كان الطريق إلى هناك مثلما كان في المرة الأولى، إلا أن أحدهم قد رمى فراشاً في وسط الطريق، فاضطررنا إلى أنْ نلتف حوله.

يبدو الحيّ بأكمله مثل قرية مدمّرة بعد حرب بشعة، في النهار لا ترى أحداً، وكأنّ هناك إنذاراً بحظر التجوُّل. لكني أحسستُ بأن مئاتِ الأعين المختبئة تحدّق فينا، أو هكذا توهّمت.

ركنتُ السيارة، ترجّلنا أنا وسارة، وقرعنا الباب. ثمة خمسةُ ثقوب في الباب تركتها طلقاتٌ نارية، شيءٌ جديد! قرعتُ الباب مرة ثانية وثالثة، إلى أن سمعتُ صوت جون يقول: نعم!

ـ نحن هانك وسارة، اتصلنا بكم، وها قد وصلنا.

ـ أوووه... ادخلا من فضلكما.

كان فرانسوا راسين جالساً على طاولته مع زجاجة نبيذ، وحينما رآنا قال: الحياةُ لا تساوي شيئاً.

أقفل جون الباب، مرّرَتْ سارة أصابعها مكان طلقات الرصاص: يبدو أنّ النملَ الأبيض قد أكلَ خشبَ الباب!

ـ نعم، اجلسي.

ضحك جون، ثم أحضر زجاجة نبيذ وكؤوس. سكبَ النبيذ وهو يقول: منذ أيام، اغتصبوا فتاةً على مقدمة سيارتي، كانوا خمسة شبّان أو ستة، حاولنا منعهم، فاستشاطوا غضباً. وبعد يومين، كنا جالسَين هنا مساءً، وإذا بطلقاتِ الرصاص تدخل من الباب، ثم عمّ السكون...

قال فرانسوا: ما زلنا على قيد الحياة، نجلس ونشرب النبيذ.

أضاف جون: إنها مجرد حيلة، يريدوننا أن نغادر المكان، ولن نغادر.

ـ سيأتي علينا يومٌ لنْ نستطيع فيه المغادرة.

ـ يملكون من السلاح أكثر مما تملك قوات الشرطة، ويطلقون النار على الشرطة أكثر مما تُطلِق عليهم.

قالت سارة: ينبغي عليكما تركُ هذا البيت.

ـ هل تمزحين؟ لقد دفعنا أجرة البيت لثلاثة أشهر مُقبلة، سنخسر كل ما دفعناه.

ردّ فرانسوا: أفضل من خسارة أرواحنا.

سألتُه: وكيف تستطيعان النوم في الليل؟

ـ نشرب لكي ننام، وبعدها لا نعرف ما قد يحدث. هذه القضبان على النوافذ لا تفيد في شيء، لدى جيراننا مثلها، وفي الليلة الماضية كان جارُنا يتناول العشاء وحيداً، وفجأةً وجدَ رجُلاً واقفاً خلفه مُشهراً مُسدَّسَه. ربما دخل من السقف بطريقة ما، ثمة منفَذٌ في السقف، منفذ في السقف وآخر تحت البيت. جيراننا في الأسفل يسمعون كل شيء، إنهم يسمعوننا الآن.

سمعنا أربع طرقاتٍ قويةً على أرضية البيت الخشبية، قادمةً من الطابق السفلي. قفز فرانسوا وراح يضرب الأرض بقدميه: اهدؤوا... ابقوا هادئين... أيّ نوعٍ من البشر الشياطين أنتم؟!

عم الصمتُ في الأسفل، ربما كانوا يريدون التأكد من وجود أحد في الطابق الأعلى. ولا أظنّ أن لديهم أية رغبة اجتماعية بالاختلاط مع جيرانهم قطعاً.

قالت سارة: هذا الوضع مرعب!

ردّ جون: أعرف ذلك، لقد سرقوا تلفازنا أيضاً، لكننا لسنا في حاجة إليه بكل حال.

قلتُ: ظننتُ أنَ جميع الأجانب القاطنين هنا من السُود، لكني شاهدتُ بعض الشباب اللاتين في المرة الماضية.

ـ هذا صحيح، في حيّنا واحدةٌ من أكثر العصابات المكسيكية إرهاباً، اسمُها «ف ٦٦»، ولكي تنتسب إليها؛ ينبغي أن يكون في ذمّتك جريمة قتل واحدة على الأقلّ.

عمّ صمت طويل، ثم سألت: ما أخبار الفيلم؟

ـ ما زلنا في مرحلة ما قبل الإنتاج، أذهبُ إلى الشركة كل يوم، وأعمل لعدة ساعات. سوف نبدأ بالتصوير قريباً، فمع كل يوم يمر، ومع كل دولارٍ تنفقه «فاير باور»، يصبح الفيلم أمراً واقعاً. لكن في المقابل، ثمة عقبات تواجهنا يومياً...

سألت سارة: مثل ماذا؟

ـ مثلاً، نريد أن نستأجر كاميرا.

ـ أنتم تستأجرون الكاميرات؟!

ـ نعم، أردنا استئجار كاميرا، لكن الشركة المؤجّرة رفضت.

ـ لماذا؟

ـ لم تدفع «فاير باور» أجرة الكاميرا المستأجرة في المرة الماضية، وقد أصرّت الشركة المؤجّرة أنْ تُزوّدها «فاير باور» بشيك مصدَّق يتضمّن أجرة الكاميرا السابقة، وأجرة الكاميرا التي ننوي استئجارها.

ـ وهل فعلت؟

ـ نعم.

ذهب فرانسوا لكي يتفقّد الدجاجات، بينما مشيتُ إلى النافذة لأطمئنَّ على سيارتي.

سألتْ سارة: ألا يخاف فرانسوا من العيش هنا؟!

أجاب جون: لا، إنه مجنون. يوم أمس كان جالساً هنا وحده، نظر إلى الأمام فرأى شابين واقفين أمام البيت، أحدُهما استلَّ سكّيناً وقال: «أعطِنا ما تملك من المال». فردَّ عليه فرانسوا: «لا، أنت أعطني ما تملك من المال». كان ثملاً، حمل عصاه وراح يضرب الشابين. هربا من أمام البيت لكنه ظلَّ يلحق بهما حتى الشارع الرئيسي، وهو يضربهما بالعصا ويصيح: «ابقيا بعيداً عن بيتي! اذهبا إلى بيت آخر! لا تسرقا من دجاجاتي!». وظل راكضاً وراءهما على طول الشارع.

ـ كان من الممكن أن يقتلاه.

ـ إنه مجنون إلى درجةٍ لا يدرك فيها ذلك.

ـ من حسن حظّه أنه ما زال حيّاً.

ـ نعم، ولكونه فرنسيّاً لا أمريكياً، هذا الأمرُ يساعده ويربكهم، فهم

لا يحملون للغرباء ذات الكراهيةِ التي يحملونها للأمريكيين. يحسبونه مجنوناً، وليس جميع هؤلاء الشبّان قتلة، بعضهم مجرّد بشر يكابدون في سبيل العيش.

- أليس جميعهم بشراً؟

- بشرٌ في قمّة البشرية!!

عاد فرانسوا: «أحصيتُ الدجاجات، العددُ مكتمل، تحدّثتُ إليها قليلاً، تكلّمتُ مع دجاجاتي». تابع فرانسوا كلامه بينما كان جون يسكب كأساً له: «أريدُ حصناً، أريد ستة أطفال وزوجةً بدينة ضخمة».

سألته: لماذا تريد كل هذه الأشياء؟

- لكي أجد أحداً أتحدث إليه عندما أخسر في القمار. فالآن عندما أخسر، لا أحد يتكلّم معي.

كنتُ أودُّ القول، إنه عندما يخسر في القمار، حتى زوجته وأطفاله الستة لن يتكلموا معه. لكني لا أريد زيادة معاناته، وبدلاً من ذلك قلت: سنذهب إلى حلبة سباق الخيل يوماً ما.

- متى؟

- قريباً.

- لديّ خطة جديدة للمراهنة.

- جميعنا لدينا خطط.

ثم رنّ الهاتف، أجاب جون بعد الرنة الثالثة: آلو... نعم... نعم أنا جون... ماذا؟... هذا لا يمكن!

نظر إلينا وهو ممسك بسمّاعة الهاتف: لقد أقفل الخطّ في وجهي!

ـ من هو؟

ـ هاري فريدمان!

ـ وماذا يريد؟

ـ تمّ إلغاء الفيلم.

٢٤

مرت عدة أيام، لم أفعل فيها أشياء مهمة، أذهب إلى حلبة سباق الخيل، وفي البيت أكتب الشعر. سبقَ لي أنْ كتبتُ في ثلاثة أجناس: الشعر والقصة القصيرة والرواية، الآن صاروا أربعة بعد كتابة السيناريو، هل حقاً أربعة؟ وهل بعد إلغاء الفيلم سيظلّ اسمي كاتب سيناريو؟ وهل سيتمكّن جيم بيم من الرقص؟!

اتصل جون: كيف حال سباق الخيل؟

ـ على ما يرام، كيف حالك أنت؟

ـ بخير، فقط أردتُ أن أخبرك بما يحدث.

ـ بعد إلغاء الفيلم، أول شيءٍ فعلناه أنا وفرانسوا هو الشُرب لمدة يومين وليلتين.

ـ تطهيراً للروح؟

ـ تماماً. بعد ذلك ذهبتُ إلى مبنى شركة «فاير باور» لأفهمَ من فريدمان أسباب إلغاء الفيلم، فقد وقع الخبرُ عليّ كالصاعقة.

ـ وعليّ أيضاً.

ـ وصلتُ إلى مبنى الشركة، لكنّ الحرس منعوني من الدخول. من الواضح أن فريدمان أعطاهم تعليماتٍ لمنعي من زيارته.

ـ ابن القحبة!

ـ نعم، هو كذلك أحياناً. على كل حال، ذهبتُ إلى المدخل الثاني، فللمبنى مدخلان...

ـ صحيح.

ـ أعرف محامي الشركة، وقلتُ للحرس بأني قادم لزيارته، فسمحوا لي بالدخول. لكنني لم أذهب إلى مكتب المحامي، اتجهتُ إلى مكتب فريدمان فوراً...

ـ جيّد!

ـ نظر فريدمان إلي وقال: «أهلاً جون، كيف حالك؟»، أجبته أني بخير. قررتُ ألا أسأله لماذا قام بإلغاء الفيلم، فهذا شأنه وعمله، ولذا قلتُ: الآن علينا البحثُ عن جهة أخرى لإنتاج الفيلم. فسأل: «هل وجدت ممولاً؟» أخبرته بأني لم أجد. ثم قلت: سأبحث عمّن يتبنّى الفيلم، وعندما أجده أريد كلمةً منك. سألني: «كلمة مثل ماذا؟» فقلت: عندما نجدُ ممولاً للفيلم، سنطلبُ منه أن يدفع لكُم المبالغ التي أنفقتموها في مرحلة ما قبل الإنتاج حتى تاريخ إلغاء الفيلم. قال: «هذا جيد»، فأكملتُ: لكنني أريد وعداً منك بأنْ تدع الفيلم ينطلق، وأنّ «فاير باور» لن تطلب مبالغ إضافية. أجاب: «حسناً، انطلِقْ، ابحثْ عن مموّل آخر، أوافق على هذه الشروط، حظاً موفقاً لك».

ـ وهكذا حُلّت المشكلة؟

ـ نعم، تصافحنا وغادرت، أظنّه ابتهجَ حينما سمع أننا سنعوّض له نفقات ما قبل الإنتاج.

ـ والآن، كل ما علينا فعله هو إيجاد ممول؟

ـ لدينا ممول.

ـ ماذا؟!

ـ كما سمعت. خلال فترة عملنا مع «فاير باور»، وحتى بعد توقيعهم على العقود المتعلّقة بإنتاج الفيلم، كنا نبحث عن مموّلين آخرين سِراً، لأننا لم نثقْ بشركة «فاير باور». وعندما علِم أحدُ الممولين بأن «فاير باور» تخلّتْ عن الفيلم، قفز إلى الواجهة.

ـ واوووو! من هو؟

ـ شركة «إدلمان»، وهي شركة استثمار كبرى في شرق البلاد، وكيلُها في المنطقة الغربية يُدعى سورنسون. درسنا وضع الشركة جيداً، لديهم المال، وقالوا لنا: «نعم لدينا المال، نعم نريد هذا الفيلم، فلْنبدأ إذنْ».

ـ هل أنت متأكّد بأنهم أناس طيّبون؟

ـ لديهم المال، والشركة مسجّلة بشكل قانوني، نحن الآن في وضع أفضلَ مما كنا عليه مع «فاير باور». لقد أحبّوا السيناريو والممثلين، وهم جاهزون لبدء العمل. حضّرنا الأوراق الرسمية، وسوف نوقّع عليها بعد ظهر الخميس.

ـ جميل جداً، أنا سعيد لأجلك يا جون، ولأجلي أيضاً.

ـ كنتُ مصمّماً على إنتاج الفيلم بأي طريقة كانت، لكنني سأنتجه الآن بطريقة جيدة.

ـ إني فخورٌ بك يا جون.

ـ سأُطلعكَ على كافة المستجدات. وداعاً.

ـ مع السلامة.

جاء الاتصال التالي من جون بعد يومين: ابن القحبة!

ـ ماذا حدث؟

ـ تراجعَ صاحب «فاير باور» عن كلامه! لقد عرفَ بخصوص شركة «إدلمان» ووكيلها سورنسون، والآن يطلب مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ دولار كتعويض عن النفقات! وفوقة مبلغ ٧٥٠,٠٠٠ دولار!!

ـ ماذا؟!

ـ لقد عاد فريدمان عن وعده! اتصلتُ به وقلتُ: أخبرتني بأنكَ لن تطلب أية مبالغ إضافية! لقد قطعتَ لي وعداً بذلك!

ـ وماذا أجاب؟

ـ لم يقل شيئاً، أغلق الهاتف في وجهي. والآن لا أستطيع الاتصال به، لأنه يرفض الإجابة على اتصالاتي. سوف أبدأ إضراباً عن الطعام!

ـ ماذا؟

ـ إضراب عن الطعام! سوف أحمل زجاجة ماءٍ وكرسياً صغيراً، وأجلس أمام مبنى «فاير باور»، ثم أتضوّر جوعاً حتى الموت.

ـ الآن؟!

ـ نعم، سأكون هناك بعد عشر دقائق.

ـ أنت تمزح؟

ـ أبداً، لا أمزح.

ذهبتُ إلى مبنى الشركة، فوجدتُ جون جالساً على كرسيّه الصغير أمام المدخل الرئيسي، وبقربه زجاجة الماء، وهو يرفع لافتةً كتب عليها: «اضراب عن الطعام / فاير باور = كذابون».

ركنتُ السيارة ومضيتُ إلى جون، ثمة أربعة أو خمسة أشخاص يتفرّجون عليه. انحنيتُ قربه: اسمع يا جون، دعنا ننسَ هذا الفيلم الملعون، وسوف أعيدُ لكَ ما أخذتُه من مال، فأنا لستُ بحاجةٍ ماسّة إليه. فلْنرمِ هذا الفيلم وراء ظهرنا، ولنذهبْ لنسكرَ سكْرةً تاريخية!

مدّ جون يده داخل معطفه، ناولني ورقة، وقال: أرسلتُها إلى مكتب هاري فريدمان عبر وسيط، صارت عنده الآن، وهذه نسخة منها.

ثم أخرج ورقة أخرى: هذا عقد التنازل عن حقوق الفيلم.

قرأتُ ما كُتبَ في الورقة الأولى التي أعطاني إياها:

عزيزي هاري،

مثلما أبلغتُك عبر الهاتف، ثمة طريقتان لحل المشكلة، وكما ترى فإن الطريقتين مقبولتان بالنسبة إلّي. صدّقْ أنني عندما أقترح حلاً لمشكلة التمويل، فليس لأني أريد متابعة العمل على الفيلم فحسب، بل أني أحبك أيضاً، أحبك أكثر مما تتخيّل.

حسناً، الكرة الآن في ملعبك، أرجو أن تختار بسرعة. فأنا على اتفاق مع شركة «إدلمان» الجاهزة لتبنّي الفيلم، ولتنفيذ كافة الالتزامات المنصوص عليها في العقد. إذا كانت هذه الورقة (الحلّ رقم ١) موقعةَ من قبلكم، ومسلّمةَ إلى «إدلمان» بعد ظهر الخميس؛ فإنّنا سنبدأ بالإنتاج في التاسع عشر من الشهر الجاري. وفي هذه الفترة، سيتمّ التعاقد مع عشرة أشخاص مهمّين للعمل على الفيلم. لم يبقَ أمامنا سوى يوميّ الثلاثاء والأربعاء لتسليم حقوق الفيلم إلى «إدلمان»، وإذا لم يحدث ذلك، فإننا سنخسر جاك بليدسو كممثل لدور البطل، وستخسر شركتكم قرابة مليون دولار. سيكون ذلك انتحاراً جماعياً، انتحاراً مالياً

بكافة المعايير. وبعدها سأخطو الخطوة الثانية، وتكون كالتالي: إذا لم تتنازلوا عن حقوق الفيلم حتى الساعة التاسعة من صباح الغد، وبالشروط التي وعدتني بها، سأبدأ بتنفيذ الحلّ رقم ٢، وسأقوم بقطع أعضاء من جسدي، أضعُها في مغلّفاتٍ بريدية، وأرسلها إلى مكتبك كلّ يوم، إنها مسألة حياة أو موت بالنسبة إليّ.

محبتي

جون

القسم الثاني من هذه الورقة، يتضمن الحل رقم ١، تحت عنوان: «تعديل عقد العمل الخاصّ بالخدمات الإخراجية لـ جون بينشو». وبما أن هذا القسم مكتوب من قبل محامٍ، فهو غير قابل للقراءة. لكن يبدو أنه يتضمن مطالبة فريدمان بالتنازل عن حقوق الفيلم لصالح «إدلمان»، والحفاظ على المبلغ المتّفق عليه كأجرة لـ جون. سألتُه: ما هو الحل رقم ٢؟

ـ قطع أعضاء من جسدي.

ـ تسمّي هذا حلاً؟

ـ أظنَ من الأفضل تسميته تحلُّلاً.

ـ لن تفعل هذا، أليس كذلك؟

ـ بلى سأفعل، هذا كل ما أعرفه.

ـ أنت مجنون.

ـ لا أبداً. تعال معي وساعدني بالتحضير.

ـ تحضير ماذا؟

ـ تعال فقط.

ركبنا في سيارة جون، فقال: لديَّ الشيء الأول الذي أحتاجه لبدء العمل: الدواء المسكّن. تذكُر عندما ذهبتُ إلى الطبيب لإجراء عملية جراحية لظفر قدمي المنغرز في اللحم؟ يومها وصف لي هذا المسكّن، وكان فعّالاً جداً...

- إلى أين نحن ذاهبون؟

- سوف ترى. على كل حال، عدتُ إلى الطبيب للمراجعة بعد العملية، قلتُ له: «المسكّن الذي وصفته لي ممتاز! يستمرُّ مفعوله عشر ساعات، حدّثني عنه»، فحدثني عنه. ثم طلبتُ منه رؤية الدواء، فأخذني إلى خزانة الأدوية. بعدها عدتُ مع الطبيب إلى عيادته، لكني تركتُ حقيبتي قصداً عند خزانة الأدوية، وقلتُ للممرضة: «لقد نسيتُ حقيبتي!». وهكذا عدتُ إلى الخزانة حيث لم يكن هناك أحد، وأخذتُ علبة المسكّن.

- لن تفعل ذلك يا جون.

- إني مُجبَر!

دخلنا إلى متجر يبيع معدّات البناء، قال جون للبائع: أريد منشاراً كهربائياً.

انصرف البائع إلى رفوف عرض البضائع، وعاد حاملاً علبة برتقالية: هذا منشار «بلاك ديكر» من أفضل الأنواع لدينا.

- أين الشفرة القاطعة؟ كيف تُركّب؟

- سهل جداً.

قام البائع بتركيب الشفرة، كانت ذات أسنان كبيرة جداً، حدّق بها جون وقال: ليست هذه الشفرة التي أريدها.

ـ أي نوعٍ من الشفرات تريد؟

ـ (بعد أن فكّر لدقيقة) شفرة تصلح لتقطيع الخشب قطعاً صغيرة، نوع قاسٍ من الخشب.

ـ (أخرج شفرةً جديدة، ذات أسنان صغيرة ومتقاربة، وحادة جداً) ما رأيكَ بهذه؟

ـ جيد، هذا النوع الذي أريده، سوف يفي بالغرض.

ـ تدفع نقداً أم عبر بطاقة الائتمان؟

ركبنا السيارة ورجعنا لمواصلة الإضراب عن الطعام، سألتُ جون: لن تفعل هذا، أليس كذلك؟

ـ بالطبع سأفعل، وسأبدأ بقطع الإصبع الصغير من يدي اليسرى، ما الفائدة منه أصلاً؟

ـ تستخدمه عندما تنقر حرف الألف على الآلة الكاتبة.

ـ سأكتب دون استخدام حرف الألف.

ـ اسمع يا صديقي، ألا يوجد أملٌ ضئيل بأنْ تتوقّف عمّا تنوي فعله، وتنسى الموضوع بأكمله؟

ـ لا أبداً.

ـ وسوف تكون هناك في تمام التاسعة صباحاً؟

ـ في مكتب محامي الشركة، سأوصل المنشار بالكهرباء، وأبدأ التقطيع حتى يتنازلوا عن حقوق الفيلم.

لقد صدّقتُ كلام جون، فهو يتحدث بنبرةٍ هادئة وواثقة، لا مبالغة ولا تمثيل فيها.

ـ هل تنتظرني لكي أرافقك إلى مكتب المحامي؟

ـ نعم، لكن تعال عند الموعد، لا تتأخر أبداً.

ـ سأكون في الموعد المحدد.

٢٥

وصلتُ في الساعة الثامنة وخمسين دقيقة صباحاً، ركنتُ السيارة وانتظرتُ جون. وصل جون عند الثامنة وخمس وخمسين دقيقة، ترجّلتُ من السيارة واتجهتُ نحوه: صباح الخير جون.

ـ أهلاً هانك، كيف حالك؟

ـ بخير، ما أخبار الإضراب عن الطعام؟

ـ ما زلتُ مضرباً، لكنّ الأهم هو قطع أعضاء الجسد.

كان منشار الـ «بلاك ديكر» بحوزة جون، ملفوفاً بمنشفة خضراء. دخلنا مبنى «فاير باور» معاً، أخذنا المصعد إلى مكتب المحامي نيلي زوتنيك. كانت موظفة الاستقبال متوقعة قدومنا، فقالت: ادخُلا فوراً.

كان نيلي زوتنيك بانتظارنا، نهض من خلف طاولة المكتب وصافحنا. ثم جلس وقال: «هل تشربان بعض القهوة؟» أجاب جون بـ «لا»، بينما طلبتُ فنجان قهوة لي. ضغط زوتنيك زرّ الهاتف الداخلي: «روز؟ روز عزيزتي، فنجان قهوة لو سمحتِ»، ثم نظر إلي: «بالحليب؟ مع سكّر؟».

ـ لا، قهوة سوداء.

ـ سوداء يا روز.

سأل جون: أين السيد فريدمان؟

- السيد فريدمان أعطاني التعليمات اللازمة للتصرف.

- أين مَقْبَس الكهرباء؟

- المقبس؟!

- لأجل هذا...

نزع جون المنشفة الخضراء، كاشفاً منشار الـ «بلاك ديكر».

- أرجوك سيد جون...

- أين المقبس؟ لا عليك، وجدته...

قام جون وأوصل الـ «بلاك ديكر» بالكهرباء.

- عليك أن تفهم أمراً سيد جون، لو كنتُ أعرف أنكَ ستجلب هذه الآلة معك، لكنتُ أوصيتُ بقطع الكهرباء...

- لا عليك، كل شيء يسير على ما يرام.

- لا حاجة إلى هذا المنشار.

- أتمنى ذلك، إنه فقط للضرورة القصوى...

دخلت روز حاملةً فنجان القهوة، ضغط جون على زرّ الـ «بلاك ديكر» فانطلقت الشفرة بالعمل، مصدرةً صوتاً جهوراً. جفِلَتْ روز من صوت المنشار، بشكلٍ يكفي لإمالة الفنجان قليلاً، ليترك بقعةً على فستانها. كانت ترتدي فستاناً جميلاً أحمر اللون، يلتصق على جسدها بإحكام: ما هذا؟! لقد أخفتني!

- آسف، كنتُ أجرّبه فقط.

- لمن القهوة؟

حملتْ روز فنجان القهوة إليّ، كنت أحتاج القهوة جداً. ثم نظرتْ إلينا بارتيابٍ وقلق، وانصرفتْ.

ـ كلا السيدن فريدمان وفيشمان أعربا عن مخاوفهما بسبب حالتك العقلية هذه...

ـ اغلقْ فمك يا زوتنيك! إما أنْ أحصل على حقوق الفيلم، أو سأترك أول قطعةٍ من لحمي أمانةً عندك، هنا ----

(نقر جون برأس المنشار على منتصف طاولة زوتنيك).

ـ لا داعي لأن تفعل ذلك سيد جون.

ـ بل هناك داعٍ وألفُ داعٍ، وأنتَ تضيّع وقتي! أريد عقد التنازل عن حقوق الفيلمِ حالاً!

نظر زوتنيك إليّ: ما رأيك بالقهوة سيد تشيناسكي؟

ضغط جون على زناد الـ «بلاك ديكر»، رفع يده اليسرى، قبض أصابعه تاركاً الإصبع الصغير ممدّداً لوحده. ثم راح يلوّح بالـ «بلاك ديكر» في الهواء، وشفرته تتحرك بسرعة منتظمة: الآن... سأفعلها...

ـ حسناً، لك ما تريد.

رفع جون إصبعه من على الزناد، ففتح زوتنيك درج طاولته الأعلى، وأخرج منه ورقتين بقياس الأوراق القانونية، ودفعهما باتجاه جون. التقط جون الورقتين، وشرع بالقراءة.

سألتُ: سيد زوتنيك، هل تسمح لي بفنجان قهوة آخر؟

نظر إليّ بحنق، ثم ضغط زرّ الهاتف الداخلي: فنجان قهوة آخر يا روز، سوداء...

ـ سوداء مثل منشار الـ «بلاك ديكر»!

ـ سيد تشيناسكي، هذا ليس مُزاحاً!

تابع جون القراءة، وصلَ فنجان القهوة وما زال جون منغمساً في القراءة، وهو يضع منشار الـ «بلاك ديكر» على فخذيه. ثم قال: لا، هذا لا يفي بالغرض!

ـ ماذا؟ إنه عقد تنازل عن الحقوق كامل الأركان!

ـ كل ما هو مذكور في البند الخامس يجب حذفه، فيه الكثير من الغموض والالتباس.

ـ هل لي أن أرى الأوراق ثانيةً؟

ـ بالتأكيد.

وضع جون الأوراق على شفرة منشار الـ «بلاك ديكر»، وقدّمها لـ زوتنيك. سحب زوتنيك الأوراق من فوق المنشار باشمئزاز، وراح يقرأ البند الخامس: لا أرى فيه أية مشكلة!

ـ احذفه.

ـ هل تنوي فعلاً قطْعَ واحدٍ من أصابعك؟

ـ نعم، وربما أقطع واحداً من أصابعك أيضاً.

ـ هل هذا تهديد؟ هل أنتَ تهدّدني؟!

ـ فكّرْ في هذا: ليس لديّ ما أخسره، بينما لديك الكثير...

ـ العقد الموقّع تحت ظروف كهذه، يمكن اعتباره عقداً باطلاً.

ـ أنت تثير غضبي! زوتنيك احذف البند الخامس أو أقطعُ إصبعي الآن!

ضغط جون على زناد المنشار، اشتغلت الشفرة مرة ثانية، رفع يده اليسرى، مدّد إصبعه الصغير بمحاذاة الشفرة...

ـ قفْ!

زعقَ زوتنيك فتوقّف جون. ضغط زوتنيك زرّ الهاتف الداخلي: روز، أريدك.

دخلتْ روز: مزيداً من القهوة؟!

ـ لا، أريدكِ أنْ تعيدي كتابة العقد كاملاً، بعد أنْ تحذفي البند الخامس منه، ثم أرجعيه لي.

ـ حاضر سيد زوتنيك.

جلسنا ننتظر، ثم قال زوتنيك: يمكنك أن تنزع المنشار من الكهرباء الآن.

ـ ليس الآن، ليس قبل أن ننهي كل شيء.

ـ هل حقاً وجدت منتجاً آخر لهذا الفيلم؟

ـ بالطبع.

ـ هل ممكن أن تخبرني من هو؟

ـ نعم، شركة «إدلمان»، وفريدمان يعرف ذلك.

(غمزَ زوتنيك بعينه، فكلمة «إدلمان» تعني المال الوفير، ويبدو أنه قد عرفهم من الاسم).

ـ لقد قرأتُ السيناريو، يبدو فظّاً جداً بالنسبة إليّ.

ـ هل قرأتَ شيئاً آخر من أعمال السيد تشيناسكي؟

ـ لا، لكنّ ابنتي قرأتْ مجموعته القصصية «أحلام البالوعة».

ـ وما رأيها؟

ـ قالت إنها كريهة جداً.

عادت روز حاملةً العقد الجديد، سلّمته لـ زوتنيك. نظر زوتنيك إلى العقد، ثم أعطاه لـ جون. أعاد جون قراءة العقد كلمة كلمة، وقال: جيد جداً.

وضع الأوراق على الطاولة ووقّع عليها، بينما وقّع زوتنيك بالوكالة عن فريدمان وفيشمان. انتهت القضية، واستلمَ كلٌّ طرفٍ نسخةً من العقد.

ضحك زوتنيك وكأنّ حِمْلاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهله: مزاولةُ مهنة المحاماة تصبح أشدَّ غرابةً يوماً بعد الآخر.

نزع جون قابس المنشار من الكهرباء، بينما مشى زوتنيك صوب الخزانة الصغيرة المثبتة على الجدار، فتحها وأخرج منها زجاجةً وثلاث كؤوس. جلس خلف طاولته وملأ الكؤوس: نخبُ الاتفاق يا سادتي الكرام!

ـ نخبُ الاتفاق!!

شربنا أقداح البراندي، وعاد الفيلم ملك أيدينا.

رافقتُ جون إلى سيارته، رمى المنشار على المقعد الخلفي وركب في الأمام. سألته وأنا واقف على الرصيف: جون، هل لي أن أسألك السؤال الخطير؟

ـ بالطبع.

ـ أخبِرْني الحقيقة بشأن هذا المنشار، ما كانت الأمور لتذهبَ أبعدَ مما ذهبتْ إليه، ولم تكُن جادّاً في قطع إصبعك، أليس كذلك؟

ـ بلى، كنتُ جادّاً.

ـ وهل كنتَ ستستمرّ بقطع أعضاء أخرى؟ هل حقاً ستفعل ذلك؟!

ـ بالتأكيد، عندما تبدأ خياراً كهذا لا يمكنك التراجع عنه.

ـ أنت رجلٌ شجاع جداً.

ـ هذا لا شيء. أنا جائع الآن.

ـ هل أجلب لك فطوراً؟

ـ أعرف مطعماً جيداً، اركبْ سيارتكَ والحقْ بي.

ـ حسناً.

تبعتُ جون في شوارع هوليوود، أضواءٌ وظلالٌ من ألفريد هيتشكوك، لوريل وهاردي، كلارك غيبل، غلوريا سوانسون، ميكي ماوس وهمفري بوغارت؛ كانت تزيّن طريقنا.

٢٦

لم يحدث شيءٌ جديد خلال الأسبوع التالي، كنتُ ألاعبُ إحدى القطط على السجّادة حين رنّ الهاتف، أجابتْ سارة: نعم؟ أهلاً جون، نعم إنه هنا، لا يوجد سباق للخيل يوميّ الاثنين والثلاثاء. ماذا؟ يا إلهي! يا لَها من ورطة... لحظة... سأنادي هانك...

نهضتُ من السجادة وأخذتُ الهاتف: أهلاً جون.

- هانك، فشل المشروع.

- ماذا؟

- شركة «إدلمان» تحاول بيع «رقصة جيم بيم» بسبعة ملايين دولار من وراء ظهرنا. الأشخاص الذين وظّفتُهم سراً، بغرض البحث عن مموّل آخر أثناء عملنا مع «فاير باور»؛ أخبروني بأنّ شركة «إدلمان» عرضتْ عليهم حقوق الفيلم مقابل سبعة ملايين دولار.

- لكنهم لا يملكون الحقوق، صحيح؟

- يدّعون بأنهم يملكونها. وقد عرضوا حزمةً كاملةً للبيع تتضمن: السيناريو، الممثلين، الميزانية. وللتنازل عن حقوق الفيلم يريدون سبعة ملايين دولار، وقد كانوا ينوون شراء حقوق الفيلم منّا بمبلغ أقلّ من هذا، لكنْ بعد أنْ يضمنوا بيعَه بسعر أعلى.

ـ يا إلهي!

ـ ها قد وقعنا للمرة الثانية فريسةً بين أنياب المحتالين! إذنْ انتهى المشروع، وانتهت علاقتنا مع «إدلمان»، والآن نبحث عن شركة إنتاج جديدة. لم أكن أريد إزعاجك بسماع هذه الأخبار، لكنني رأيتُ أنه من الأفضل لكَ أنْ تعرف ما يحدث.

ـ بالتأكيد، وكيف تجري الأمور؟

ـ أجرينا اتصالاتٍ بجهات عديدة، عندما نعرض المشروع على الهاتف؛ الكلُّ يوافق. لكنهم بعد قراءة السيناريو يجيبون بـ «لا»، المدينة بأكملها تقول «لا» بعد قراءة السيناريو. لدينا فيلم فيه ممثلان كبيران، لكنه دون ميزانية. وفيلم كهذا لن يحقق أرباحاً، فالمدينة بأكملها تقول «لا»، ولم أسمع بمدينةٍ تتّفق على رأيٍ واحدٍ من قبل!

ـ لم يعجبهم السيناريو.

ـ نعم، لم يعجبهم.

ـ وهم لا يعجبونني أيضاً، لا أطيقهم جميعاً.

ـ حسناً، علينا أن نتابع العمل، فبالتأكيد ثمّة أناسٌ في مكان ما، لم نعرضْ عليهم الفيلم بعدُ.

ـ يبدو الأمل ضعيفاً.

ـ سوف ننتج الفيلم بأية طريقة كانت.

ـ أحبُّ ثقتك ووفاءك.

ـ لا تهتمّ.

ـ حسناً.

عدتُ إلى السجادة لألعب مع القطة، كانت قطتي تحبُّ ملاحقة طرف الحبل الذي أُدلّيه أمامها. أخبرتُ سارة: عاد الفيلم إلى نقطة الصفر مجدّداً، السيناريو لم يعجبْ أحداً.

ـ وما رأيك أنت بما كتبت؟

ـ أعتقد أنه أفضل من معظم السيناريوهات التي نشاهدها على الشاشة، وربما كنتُ مخطئاً. في الحقيقة أنا حزينٌ على جون.

أخطأت القطةُ طرف الحبل، وبدلاً منه غرزتْ مخلبها في راحة يدي. سال القليل من الدمّ، فذهبتُ إلى الحمّام وعقّمت الجرح بـ بيروكسيد الهيدروجين. نظرتُ إلى وجهي في المرآة: رجلٌ عجوز، كتبَ سيناريو فاشلاً، اللعنة! هربتُ من وجهي.

عندما يعود سباق الخيل، أرتاح من الأخبار السيئة، فلستُ في المنزل، ولا أحد يعرف مكاني. صرتُ أذهب إلى حلبة السباق كل يوم، أراهنُ وأحقق نتائج مقبولة، ثم أعود إلى البيت كالعادة، آكُلُ وأشاهد التلفاز مع سارة. وبعدها أصعد إلى غرفتي لأسهر مع الزجاجة والآلة الكاتبة. كنتُ أكتب الشعر، الشعر لا يجلب المال، لكنه ملعبٌ واسعٌ تركض فيه ولا ينتهي.

بعد مرور أسبوعين على آخر اتصال منه، عاد جون واتصل: كارثة حقيقية! أسوأ من كلّ الكوارث السابقة! نحن الآن في قعر الجحيم!

ـ ماذا؟!

ـ اسمعْ، وجدنا منتجاً، وافقَ على الفيلم بما فيه السيناريو، قال لي: «حسناً، سوف ننتج الفيلم، جهّزْ الأوراق لكي نوقعها، ثم نبدأ بعملية الإنتاج فوراً». وقبل التوقيع بساعات اتصل بي وقال:

«لا يمكنني إنتاج الفيلم». ثم اتّضحَ أن هناك مخرجاً شهيراً، يقول إنه يملكُ الحقوق الدرامية لكافة الأعمال المتعلّقة بـ هنري تشيناسكي. فقال لي: «لا يمكنني فعل شيء، اتفاقُنا مُلغى».

(هنري تشيناسكي هو الاسم الذي أستخدمه للشخصية الرئيسية في جميع رواياتي، ولقد استخدمتُ الاسم ذاته في السيناريو).

ـ ما هذا الهُراء؟!

ـ هذا ليس هراءً، أنت بعتَ الحقوق الدرامية لشخصية هنري تشيناسكي.

ـ هذا ليس صحيحاً. وحتى لو كان صحيحاً، كل ما علينا فعله هو تغيير الاسم.

ـ لا، العقد يقول إنه يملك الـ «كاراكتر»، بغضّ النظر عن الاسم الذي تضعه له، إلى الأبد!

ـ هذا غير معقول!

ـ أخشى أنك عندما بعتَ روايتك «عامل سفينة الشحن» للمخرج هكتور بلاكفورد، قد بعتَ معها الحقوق الدرامية للشخصية.

ـ نعم، بعتُ حقوق الفيلم، مقابل ألفيّ دولار فقط! كنتُ أموتُ جوعاً آنذاك، وبدا المبلغ كبيراً بالنسبة إلّي. لكنّ بلاكفورد لم يصنع فيلماً عن روايتي «عامل سفينة الشحن».

ـ هذا لا يهمّ، فالعقد يقول إنه يملك الحقوق الدرامية للشخصية، وإلى الأبد.

ـ افهمني، من أين سمعتَ بهذا الكلام؟

ـ من محامٍ اسمه فلتشر جيسون، إنه على علاقة مع المحرّرة النصّية

للفيلم، وبعدما أنهيا ما كانا يفعلانه، التقط المحامي السيناريو من على الطاولة، قرأ العنوان «رقصة جيم بيم»، وراح يتصفّح النصّ. ثم وضع السيناريو وقال: «هنري تشيناسكي! مُوَكِّلي يملك هذا الرجل! أنا كتبتُ العقد بيديَّ هاتين». وانطلاقاً من فمه، راح الخبر ينتشر في أرجاء المدينة. لقد مات فيلم «رقصة جيم بيم»، ولا أحد سيلتفت إليه بعد اليوم، لأنّ بلاكفورد ومحاميه يملكان شخصية هنري تشيناسكي.

- هذا غير صحيح يا جون، لن أبيع هذي الحقوق إلى الأبد مقابلَ ألفيّ دولار سخيفة، هذا غير معقول!

- لكنْ هذا ما يقوله العقد!

- قرأتُ العقد قبل التوقيع عليه، ولا أذكر شيئاً من هذا القبيل.

- انظرْ البند السادس.

- لا أصدّق ذلك.

- اتصلتُ بذاك المحامي، وهو محامٍ مرموق، قال لي: «نحن نملك هنري تشيناسكي، أنفقتُ خمسة عَشر ألف دولار من مالي الخاصّ من أجل شراء الحقوق، كان مبلغاً كبيراً حينها، ولا زال مبلغاً كبيراً إلى اليوم». انفعلتُ وغضبتُ بشدّة، وصرتُ أصرخُ عليه، فقال: «تمهّلْ! لا تتحدثْ إليّ بهذه الطريقة، لا أسمح لك أن تتكلم معي هكذا». ولم أصل إلى أية نتيجة معه، لا أعرف إذا كان يريد مبلغاً كبيراً من المال أم لا. لكنْ حالياً مات فيلم «رقصة جيم بيم»، وأكثر من أيةِ ميتةٍ سابقة، وانتهى الأمر.

- جون، سأعاودِ الاتصال بك.

بحثتُ عن العقد وقرأتُ البند السادس، وحسب مستوى فهمي،

فإني لم أجد إشارة صريحةً أو ضمنيةً إلى بيع حقوق الشخصية. قرأتُ البند السادس مراراً وتكراراً، ولم أجد شيئاً من هذا القبيل.

اتصلتُ بـ جون: لا يوجد شيء في البند السادس يشير إلى بيع الشخصية للأبد. أي نوع من المرض هذا؟ هل أصيب الجميع بالجنون؟!

- لا، لكنْ هذا ما يعنيه.

- من هو؟

- البند السادس.

- هل العقد بحوزتك جون؟

- نعم.

- هل تدلُّني أين يقع ما يقول إنّ ذاك الرجل يملك هنري تشيناسكي؟

- يمكنك استنتاج ذلك.

- لقد سئمتُ! لا أفهم من أين استنتجتَ ذلك!

- إذا فكّرت باللجوء إلى المحاكم، فإن القضية سوف تستغرق ثلاث أو أربع أو خمس سنوات. وفي هذه المدة؛ سيكون جيم بيم قد مات، ولن يلمس جثته أحد!

- هل أصيب سكان هذه المدينة بالجنون؟! لا يوجد أي شيء في البند السادس يشير، ولو بطريقة مبهمة، إلى بيع شخصية هنري تشيناسكي!!

- لقد وقّعتَ على بيع حقوق شخصية هنري تشيناسكي إلى الأبد.

يبدو أنّ جون قد جُنَّ أيضاً، فأغلقتُ الهاتف في وجهه.

بحثتُ عن رقم هاتف المخرج هكتور بلاكفورد في دليل الهاتف، لقد كان رقمه عندي، فأنا أعرف هكتور منذ تخرّجه من كليّة الإخراج في جامعة جنوب كاليفورنيا. واحدٌ من أوائل الأفلام التي أخرجها، كان فيلماً وثائقياً عني، ولقد تمّ عرضه على قناة «بي بي إس» الحكومية. وفي اليوم التالي، اتصل خمسون شخصاً بالقناة، وألغوا اشتراكهم فيها.

لطالما سكِرنا أنا وهكتور معاً، وقد كان مهتمّاً فعلاً بإخراج فيلم «عامل سفينة الشحن»، يومها سلّمني السيناريو المقتبَس عن روايتي، لكنّ النصّ كان رديئاً جداً، فطلبتُ منه أن ينسى الموضوع. ومنذ ذلك الزمن وحتى اليوم، ذهبَ في سبيله وذهبتُ في سبيلي، هو صارَ غنياً ومشهوراً ومخرجاً لعديد الأفلام الناجحة، بينما انشغلتُ أنا بكتابة الشعر، ونسيتُ أمرَ «عامل سفينة الشحن».

اتصلتُ به: فكتور، أنا هانك.

ـ أهلاً هانك، كيف حالك؟

ـ لستُ بخير.

ـ لماذا؟

ـ الموضوع يتعلق بفيلم «رقصة جيم بيم»، ثمة شخص يتسكّع في أنحاء المدينة، ويصرّح بأنك تملك هنري تشيناسكي. هل عرفته؟

ـ فلتشر جيسون؟

ـ هو بذاته. والآن يا هكتور، أنتَ تعرف أني لا أبيع مؤخرتي وروحي مقابل ألفيّ دولار تافهة.

ـ فلتشر يقول إنك قمتَ بـ...

ـ لا يوجد شيء في البند السادس.

ـ فلتشر يقول غير ذلك.

ـ هل قرأت البند؟

ـ نعم.

ـ وماذا وجدت؟

ـ لا أعرف.

ـ اسمع يا عزيزي، أنتَ لن تقتلع خصيتيّ بسبب كلماتٍ مبهمةٍ لم يفهمها أحد. أليس كذلك؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد؛ لدينا مشروع فيلم، وأنت تريد إفشاله إلى الأبد. ألا تذكُر تلك الليالي التي سَكِرْنا فيها معاً؟ وتنادمنا وتسامرنا حتى الصباح؟

ـ نعم، يا لها من أيامٍ جميلة!

ـ إذنْ، تكلّمْ مع محاميك، واطلبْ منه أن يَغرُبَ عن مؤخّرتنا! لا نريد سوى أن نتنفّس مثل البشر!

ـ هانك، سأتصل بك بعد قليل.

جلستُ بجوار الهاتف وانتظرت، مرت خمس عشرة دقيقة. رنَّ الهاتف، إنه هكتور: حسناً، تراجع جيسون عن قراره.

ـ شكراً يا رجُل! أعرف أنك طيّب القلب، ولم يغيّر المالُ من معدنك الأصيل.

ـ سيقوم جيسون بإرسال عقد التنازل عن الحقوق حالاً.

ـ رائع! رائع! كم أنت جميل يا هكتور!

ـ وأيضاً...

ـ نعم؟

ـ ما زلتُ مصمّماً على تحويل روايتك «عامل سفينة الشحن» إلى فيلم.

ـ كما تشاء يا عزيزي. سلامي إلى زوجتك.

ـ وسلامي لسارة.

تسعة أعشار المشكلة حُلّتْ على الهاتف، بقي العشر الأخير وهو توقيع الأوراق. اتصلتُ بـ جون: طلب هكتور من جيسون أن يرفع يده عن رقابنا، وسيقوم جيسون بإرسال عقد التنازل عن الحقوق.

ـ عظيم! ممتاز! الآن يمكننا الانطلاق مجدداً. هكتور كان صديقاً لك، أليس كذلك؟

ـ اليوم أثبت أنه صديق حقيقي.

ـ حالما يصل العقد إلينا، سأعاود العمل مع المنتج الجديد. بالمناسبة، بدلاً من انتظار وصول العقد بالبريد، لمَ لا أذهبُ إلى مكتب جيسون وأستلمه منه؟

ـ لا بأس، اتصل به ورتّب الأمر.

ـ ها قد عُدنا إلى عالم صناعة الأفلام.

ـ بكل تأكيد. دعنا نتناول الغداء معاً في «موسُو»؟

ـ متى؟

ـ غداً في الواحدة والنصف.

ـ إذن، أراك غداً.

ـ اتفقنا.

٢٧

وهكذا تفرّغتُ لكتابة القصائد، وإرسالها للنشر في بعض المجلات. ولسبب ما، كانت القصة القصيرة ممتنعةً عن زيارة الآلة الكاتبة. يزعجني ذلك، لكني أرفضُ إجبار نفسي على الكتابة، ولذا تابعتُ اللعبَ مع الشعر، فالشعرُ خلاصٌ لروحي وانتشاءٌ لذاتي. قد تعود القصة القصيرة يوماً ما، أتمنّى من كل قلبي. ما زالتْ أحصنةُ السبق تعدو، وما زال النبيذ يُراق، وما زالت سارة تزرع الزهور في حديقة البيت.

لم التقِ جون منذ أسبوع، ثم رنّ الهاتف: هل تعرف المنتجَ الجديد الذي أخذنا حقوق الشخصية من بلاكفورد لأجله؟

ـ نعم، هل هو جاهز؟

ـ لقد تراجع عن قراره، قال إنه لا يريد الفيلم.

ـ لماذا؟

ـ قال إنه أثناء انتظاره لعقد التنازل عن حقوق الشخصية من أجل توقيعه، تلقّى عرضاً لإنتاج فيلم آخر. يتحدث سيناريو الفيلم عن توءمين يتيمين، يصبحان فيما بعد أبطال العالم في زوجي التنس.

ـ فكرة رائعة! يا ليتها خطرتْ ببالي.

ـ لكن هانك، ثمة أخبار جيدة أيضاً.

ـ مثل؟

ـ قررتْ شركة «فاير باور» إنتاج الفيلم.

ـ ماذا؟ كيف؟!

ـ ربما يخشون أن تقوم شركة أخرى بإنتاج الفيلم، ويحسبون أنه سيجلبُ لهم ربحاً. فبعد أن قاموا بتخفيض ميزانية الفيلم إلى الحضيض، وخصموا من أجرة جميع العاملين فيه، وهذا دأبهم وإبداعهم الفني؛ لا يريدون لشركة أخرى أن تجني أرباح الفيلم. اتصل بي هاري فريدمان وقال: «أريد هذا الفيلم الملعون»، قلت له: «حسناً... خُذْه». ثم قال: «وإذا لم يحصد الفيلم أرباحاً جيدة، فأنا بنفسي سأُقطّع أصابعكَ واحداً واحداً».

ـ وهكذا عدنا للعمل معهم؟

ـ نعم.

مرت ثلاث أو أربع ليالٍ حتى اتصل جون: هل يمكن أن آتي لزيارتك؟ ثمة موضوع ينبغي أن نتحدث عنه.

ـ بالتأكيد يا جون.

بعد ثلاثين دقيقةٍ طُرِق الباب، كانت الزجاجة والكؤوس بانتظاره على الطاولة: تفضّلْ يا جون.

ـ أين سارة؟

ـ تتصرّف كأرستقراطية.

ـ أوووه...

جلس جون في مكانه المفضّل قرب الموقد، ملأتُ الكؤوس: حسناً... أخبرْني.

ـ نحن جاهزون للبدء بالتصوير، وضعنا جدول التصوير. لكنّ فرانسين باورز ـ وهي الآن في بوسطن ـ أصيبتْ بوعكة صحية، واضطُرتْ لإجراء عملية جراحية، ولن تكون جاهزةً للتصوير إلا بعد أسبوعين.

ـ ماذا ستفعل؟

ـ سنصوّر المشاهد التي لا تكون فيها، سنصوّر جاك بليدسو وبقية المشاهد، ثم نصوّر معها في الأخير. لقد حضّرنا كل شيء لتصوير المشهد الأول مع جاك بليدسو، لكنه رفض!

ـ لماذا؟

ـ لقد طلب منا سيارة «رولز رويس» مكشوفة، تُقلُّه إلى موقع التصوير، قبل البدء بأي مشهد.

ـ كيف يطلب هذا بحقّ الجحيم؟!

ـ هذا منصوصٌ عليه في العقد. استأجرنا السيارة من أجله، لكنها لم تعجبه، فهو يريدها بلون آخر. صوّرنا بضعة مشاهد من دون جاك أو فرانسين، إلى أنْ وجدنا سيارة «رولز رويس» مكشوفة، وباللون الذي يريده جاك، حتى قبل بالعودة للعمل.

ملأتُ كؤوس النبيذ مجدداً، بينما تابع جون: جاك يريدكَ أن تنزل إلى موقع التصوير لتشاهده.

ـ ماذا؟ ألا يعرف أني مواظبٌ على الذهاب إلى سباق الخيل؟

ـ قال إن الخيول لا تركض كل يوم.

ـ هذا صحيح.

ـ اسمع هانك، يريد جاك أن تكتب مشهداً خاصّاً به.

ـ ماذا؟

ـ يريد أن يمثّل مشهداً أمام المرآة، ويريد أن يقول شيئاً لوجهه في المرآة، ربما قصيدة...

ـ هذا سيُفسِد كل شيء!

ـ التعامل مع الممثلين صعبٌ جداً، فإذا لم يكونوا راضين منذ بداية العمل، فإنهم سيُخرّبون الفيلم بأكمله.

(فكّرتُ بيني وبين نفسي، ما الذي أفعله؟ ها أنا ذا أعرُضُ مؤخرتي للبيع في وسط الشارع...)

ـ حسناً، سأكتب قصيدة يُلقيها أمام المرآة.

ـ فرانسين تريد منكَ أن تكتب مشهداً خاصّاً بها كذلك، تريد مشهداً يُظهر ساقَيها بالكامل، لديها ساقان مثيرتان كما تعلم.

ـ لا بأس، سأكتب مشهد السيقان.

ـ شكراً، هل تعرف أنّ هناك دفعة مالية قادمة على الطريق؟ كان من المفترض أن نقبضها عند البدء بالتصوير، لكن «فاير باور» أجّلَت الدفع للجميع، لكنها سوف تدفع، وستنال حصّتك.

ـ حسناً جون.

ـ أتمنى أن تأتي لمشاهدة الحانة والفندق اللذين نصوّر فيهما. هل تعرف أننا نستخدم روّاد الحانة الحقيقيين أثناء التصوير؟ وهم يعيشون في الفندق الرديء ذاته، سوف تحبُّهم.

ـ سنذهب معاً يوم الاثنين.

- لديّ مشكلات أخرى مع جاك.

- مثل ماذا؟

- يريد أن يُسَمِّرَ بشرته تحت الشمس، ويريد أن يلبس قبعة «فيدورا»، ومعطفاً جلدياً ذا أذيال...

- لا أصدّق هذا.

- لأنه لا يُصدَّق، وقد استغرق الأمرُ ساعاتٍ حتى أقنعتُه بالعدول عن فكرته. احزرْ ماذا يريد أن يلبس أيضاً؟!

تناول جون حقيبته الشخصية، أخرج منها زوجاً من النظارات الشمسية، ووضعها أمامي. كانت النظارات كبيرة الحجم، لها إطارٌ عريضٌ أخضرُ اللون، مصنوعٌ على شكْل سعف النخيل.

- هل هذا الرجل مجنون؟! لا يوجد إنسان في كل شوارع كاليفورنيا يضع شيئاً كهذا.

- أخبرته بذلك، لكنه أصرّ على أنْ أسمح له بوضع هذه النظارات في مكانٍ ما في الفيلم، ولو للحظة واحدة، وإلا فإنه سيصرخ في وجهي: أنت تقتلع خصيتيّ!!

- حسناً، لا نريد اقتلاع خصيتيه، سأبحث بين المشاهد عن مكانٍ يستطيع فيه وضع هذي النظارات.

- أرجو أن ترسل إليّ المشاهد الجديدة بأسرع وقت.

- سأكتبها الليلة.

ملأتُ الكؤوس مجدداً، وسألتُ: كيف حال فرانسوا؟

- هل تذكُرُ عندما خسرَ ستين ألف دولار، وهو يتدرّب على قرص الروليت في البيت؟

ـ نعم.

ـ بعدها اشتغل على نفسه كثيراً، وتدرّب جيداً، وهو الآن متقدّم بستة آلاف دولار، وسعيد جداً.

ـ ممتاز!

ثلاثة أشياء يحتاجها المرء في الحياة: الثقة، التدريب والحظ.

٢٨

وفقاً للجدول، سيبدأ التصوير في مدينة «كوفلر»، حيث تقع الحانة والفندق الذي فيه غرفتي. وتكون المرحلة الثانية من التصوير في شارع «ألفارادو»، حيث تقع شقة بطلة الفيلم. وبعدها سيتم التصوير في حانة تقع بين الشارع السادس و«فيرمونت». لكن المشاهد الأولى ستصوَّر في «كوفلر».

ذهبنا رفقة جون لمشاهدة الفندق، كان فندقاً حقيقياً أصيلاً، يقطن فيه روّاد الحانة التي تقع في طابقه الأرضي. سألني جون: ما رأيك؟

ـ رائع! لكني عشتُ في أماكن أكثر رداءةً.

قالت سارة: أعرف، لقد رأيتها.

ثم صعدنا إلى الغرفة: تبدو الغرفة مألوفة لديّ!

كانت جدران الغرفة مطليّةً باللون الرمادي، مثل العديد من البيوت هنا. ستائرُها مهترئة، وفيها طاولة وكرسيّ عتيقان. وكانت الثلاجة مغطاةً بطبقاتٍ من الأوساخ، بينما كان السرير مقعّراً في منتصفه.

ـ رائعة يا جون! هذه هي الغرفة المثالية!

حزنتُ لأنني ما عدتُ شاباً، وما عدتُ قادراً على فعل ما كنتُ أفعل، الشُرب والمشاجرات والعبث بالكلمات. فعندما تكون شاباً

يمكنك انتزاع زمام المبادرة. لم يكن الطعام مهماً بالنسبة إلّي، ما كان يهمّني هو الشرب والكتابة. ربما كنتُ مجنوناً حينها، لكنْ كان هناك الكثيرُ من المجانين غيري، وبعضهم في غاية الروعة. كنتُ مُقلِعاً عن الطعام، من أجل توفير وقتٍ للكتابة. نظرتُ إلى الطاولة فرأيتُ نفسي جالساً وراءها مرةً أخرى. لقد كنتُ مجنوناً، أعرف ذلك، لكني لستُ نادماً.

ـ فلننزلْ لنشاهد الحانة.

نزلنا إلى الطابق الأرضي، كان رُوّاد الحانة الذين نُصوِّرهم في الفيلم، جالسين في أماكنهم، ومستمتعين بالشرب.

ـ تعالي سارة، فلنجلسْ في الحانة قليلاً، نراك فيما بعد يا جون.

قام ساقي الحانة بتعريفنا على زبائنه الدائمين، وكانت أسماؤهم: الوحش الكبير، الوحش الصغير، الزاحف، المضحك، رأس الكلب، سيدة الليلك، جلطة مجانية، كلارا... وغيرهم.

سألت سارة المدعوَّ بالزاحف: ما هذا الشيء الغريب الذي تشربه؟

ـ إنه «كيب كود»، مزيج من الفودكا وعصير التوت البري.

ـ أريد «كيب كود».

قالت سارة لساقي الحانة المسمّى: راعي البقر، بينما طلبتُ منه قدح فودكا صرفاً. حدّثنا الوحش الكبير عن قصة مشاجرته مع الشرطة، قصّة شيّقة فعلاً، ولسببٍ ما صدّقتُ كلَّ ما قاله. وبعدها حان موعد غداء الممثلين وطاقم العمل، بينما ظلَّ روّاد الحانة في أماكنهم.

ذهبنا إلى صالةٍ تقع خلف الفندق، حيث تمتدّ مائدة عامرة يجتمع حولها ممثّلو الأدوار الثانوية والفنيّون والعمّال وهلُمّ جرا. تبدو نوعية الطعام جيدة، التقينا

بجون، أخذنا وجباتنا من سيارة توزيع الطعام، وتبعنا جون إلى نهاية الطاولة.

ثمة رجلٌ يجلس ويأكل وحيداً، عرّفنا جون عليه: «هذا لانس إدواردز»، أومأ إدواردز برأسه وعاد لالتهام شرائح اللحم، بينما تابعنا سيرنا إلى نهاية الطاولة. كان إدواردز واحداً من المنتجين المساعدين، سألتُ جون: لماذا يتصرّف إدواردز مثل القضيب؟

ـ إنه خجول جداً، وهو واحد من الأشخاص الذين حاول فريدمان طردهم.

ـ ربما كان فريدمان محقاً.

قالت سارة: هانك، أنت لا تعرف الرجل حتى...

ـ انشغلي بطعامك يا سارة.

الآلهة التي أرسلتْ سارة إليّ، لكي تُطيل في عمري عشر سنوات، لم تُحدّدْ بعدُ إذا ما كانت هذه السنوات هي الأجمل، أو الأكثر تعاسةً في حياتي.

ـ سنصوّر مشهداً مع جاك في الغرفة، عليك أن تأتي وتشاهد.

ـ بعد أن نُنهي طعامنا، سنعود إلى الحانة، وعندما تريد البدء بالتصوير، أرسِلْ أحداً ليبلغنا.

ـ حسناً.

بعد الغداء، كنا نتمشى حول الفندق برفقة جون، ثمة عددٌ من الغرف المتنقّلة التي تجرّها الشاحنات مركونةٌ خلف الفندق. رأينا سيارة جاك الـ «رولز رويس»، وبجوارها غرفةٌ متنقّلة كبيرة فضّية اللون، عُلّقتْ

على بابها شاخصةٌ تقول: «جاك بليدسو». قال جون: انظرْ، هناك منظارٌ خارجٌ من سقف غرفته، يستطيع من خلاله رؤية القادمين إليه.

ـ يا إلهي!

ـ يجب عليّ إتمام بعض الأعمال.

ـ حسناً، أراك لاحقاً.

من الأشياء الظريفة في شخصية جون، أنه صار ينسى لغته الفرنسية خلال إقامته الطويلة في الولايات المتحدة، فهو لا يتحدث هنا سوى باللغة الإنكليزية. حزنتُ على حاله.

فُتحَ بابُ غرفة جاك المتنقّلة، أطلَّ جاك بليدسو ودعانا لزيارته. دخلنا إلى الغرفة، كان فيها تلفاز وفتاةٌ شابة مستلقية على السرير تشاهد التلفاز. قال جاك: «هذه كليو، اشتريتُ لها دراجةً ناريةً، لكننا نركبها معاً». وكان هناك شاب في الغرفة أيضاً: «هذا أخي دوغ».

ـ جاك، هل لديك ما نشربه؟

ـ بالتأكيد.

أخرج جاك زجاجة ويسكي، سكب لي بعض الويسكي والماء. قلتُ له: سارة مدمنة على مشروب «كيب كود»! وقد أعجبتني غرفتك!

ـ ابقَ فيها للمدة التي تشاء.

ـ هكذا سأبقى إلى الأبد.

رمقني جاك بابتسامته السينمائية الشهيرة.

ـ يبدو أن أخاكَ لا يتكلّم أبداً؟

ـ نعم، هو كذلك.

ـ رائع!

ـ فعلاً!

ـ هل حفظتَ دوركَ في الفيلم؟

ـ لا أنظرُ إلى النصّ إلاّ قبلَ البدء بالتصوير بثوانٍ.

ـ عظيم! علينا أن نذهب الآن.

قالت سارة: سوف تنجح في دورك يا جاك، نحن سعيدان لأنك أخذت دور البطولة.

ـ شكراً.

عدنا إلى الحانة، وما زال روّادها جالسين في أماكنهم، ولا تبدو عليهم حالة السُكْر. فالسكّير المحترف يلزمه الكثير والكثير حتى يثمَل. طلبتْ سارة كأس «كيب كود» آخر، بينما طلبتُ قدح فودكا مجدداً. نظرتُ إلى باب الحانة فرأيتُ جاكَ واقفاً عند بابها المتحرّك، في الحقيقة لم أرَ سوى رأسه من فوق رؤوس الزبائن: أهلاً جاك، تعال واشربْ كأساً.

ـ لا يا هانك، سيبدأ التصوير حالاً، لمَ لا تأتي وتشاهد؟

ـ سآتي يا عزيزي.

طلبنا كأسين آخرين وتابعنا الشرب، ثم دخل جون: سنبدأ التصوير الآن!

ـ حسناً.

أنهينا كأسينا بسرعة، أخذنا زجاجتي بيرة وتبعنا جون. كان المشهد داخل غرفة الفندق، وكانت الغرفة ممتلئةً بالفنّيّين وأشرطتهم الكهربائية.

ـ أعتقد أنكم تستطيعون تصوير فيلم بثُلث هذا العدد من العاملين.

ـ هذا ما يقوله فريدمان.

ـ فريدمان محقٌّ في بعض الأحيان.

ـ حسناً، نحن جاهزون الآن، أجرينا تدريباتٍ على المشهد قبل التصوير، والآن سنصوّر. أنتَ اذهبْ وقفْ في تلك الزاوية، بحيث ترى المشهد دون أن تظهر في الكاميرا.

مشيتُ مع سارة إلى تلك الزاوية، بينما صاح المخرج المساعد: هدوووء! سوف نبدأ التصوير!

وفعلاً عمّ صمتٌ رهيبٌ في الغرفة، ثم صاح جون: كاميرا... أكشن!

فُتح الباب المؤدي إلى الغرفة، ودخل جاك بليدسو، اللعنة! إنه تشيناسكي الشاب! إنه أنا...! أحسستُ بألم يتغلغلُ في أعماقي. يا زمنَ الشباب! يا ابن القحبة! أين رحلتَ وتركتَني؟! ليتني أعودُ ذاك الشاب السكّير، يا ليتني جاك بليدسو. فأنا الآن مجرّدُ عجوزٍ محشور في الزاوية، يتجرّع زجاجة بيرة رديئة.

مشى بليدسو مترنّحاً باتجاه النافذة، أسدل الستائر، سدَّدَ عشرَ لكماتٍ في الهواء، وابتسم ابتسامته الجذابة. ثم جلس إلى الطاولة، أمسك ورقةً وقلم رصاص، وراح يكتب. بعد ذلك انتشلَ زجاجة نبيذ من الأرض، فتحها ورشف منها، ثم أشعل سيجارة. قام بتشغيل الراديو الذي على الطاولة، ومن حسن حظّه كانت الموسيقى لـ موزارت. استمرّ جاك بالكتابة بقلم الرصاص على الورقة، حتى انتهى المشهد.

لقد فعلها، فعلها كما ينبغي تماماً. وسواءٌ كان المشهدُ ذا معنىً أم لا، فقد أتقن التمثيل حقاً. مشيتُ إلى حيث جاك وصافحته.

ـ هل كان أدائي جيداً؟

ـ ممتاز!

نزلنا إلى الحانة مجدداً، كان زبائن الحانة على حالتهم التي لم تتغير يوماً. عادتْ سارة لشرب «كيب كود»، وعدتُ لمعاقرة الفودكا. سمعنا قصصاً جميلة من الندامى، بعضُها لم أسمع مثيلها منذ زمن. لكنّ الحزن كان مخيّماً على الوجوه ومنتشراً في الهواء، فبعد الانتهاء من تصوير الفيلم، سيتمُّ هدمُ الحانة والفندق لغرضٍ تجاريّ ما. بعضُ روّاد الحانة يسكنون في هذا الفندق العتيق منذ عقود، وآخرون يعيشون في محطة القطار المهجورة، لكنّ قراراً اتُّخِذَ بطردهم منها. ولذا كانت السكْرةُ مُثقلةً بالمآسي.

قالت سارة: علينا أن نذهب إلى البيت لنطعم القطط، فالمشروبات يمكنها الانتظار، وهوليوود يمكنها الانتظار، أما القطط فلا تستطيع الانتظار.

ودّعنا سكّان الحانة واتجهنا إلى السيارة، لم أكن قلقاً بخصوص القيادة بعد الشُرب. فبعد أن رأيتُ تشيناسكي الشاب في غرفة الفندق؛ استعدتُ ثقتي بنفسي. يا أولاد القحبة! كنتُ شاباً فحلاً كالثور! قوياً ونزقاً ومجنوناً.

كانت سارة قلقةً على مستقبل أهل الحانة، انزعجتُ أنا أيضاً، لكنْ - في المقابل - لا يمكنني تصوُّرُهم جالسين في غرفة جلوسنا، يشربون ويثرثرون. أحياناً تفقد الأشياء سحرها عندما ترتطم بصخرة الواقع، وكم صديقاً يمكنك الاحتفاظ به؟!

وصلنا إلى البيت، كانت القطط بانتظارنا، نزلت سارة ووضعت لها طعاماً.

البساطة هي كلّ ما نحتاجه الآن، صعدنا إلى الطابق العلويّ،

اغتسلنا وغيّرنا ملابسنا، وحضّرنا أنفسنا للنوم. قالت سارة: ما الذي سوف يفعله أولئك المساكين؟

ـ لا أعرف، لا أعرف...

حان وقتُ النوم، نزلتُ إلى الطابق السفلي لألقي نظرةً أخيرة، ثم صعدتُ فوجدتُ سارة غارقةً في النوم. أطفأتُ الأضواء ونمت.

بعد مشاهدتنا لتصوير الفيلم بعد ظهر هذا اليوم، اختلفت الأمور بالنسبة إلينا، فلم يعُدْ عندنا هاجسٌ يوميٌّ نتحدّث عنه باستمرار. فاليوم تعلّمنا أشياء جديدة، لكنها غريبة عن طبيعتنا، وربما مزعجة.

٢٩

هرب جون بينشو من حيّ الأجانب، فضِمْن عقده مع «فاير باور» تلتزم الشركة بأن تستأجر له شقةً على نفقتها. استأجر جون شقة في المبنى المقابل لـ «فاير باور»، وفي كل ليلة، وهو ممدّد على سريره، يمكنه رؤية أضواء لافتة «فاير باور» في أعلى المبنى، حتى أنّ الأضواء تدخل من نافذته وتسطعُ على وجهه وهو نائم.

أصرّ فرانسوا راسين على البقاء في حي الأجانب، لكنه طوّر حياته بزراعة بعض الخضار في حديقة المنزل. فهو الآن يدير قرص الروليت، يعتني بمزروعات الحديقة، ويطعم الدجاج. إنه واحدٌ من أغرب الرجال الذين رأيتهم في حياتي. قال لي: «لا يمكنني ترك دجاجاتي، سوف أموتُ في هذه الأرض الغريبة مع دجاجاتي، هنا بين السُود».

كنتُ أذهب إلى حلبة السباق في كل يوم تعدو فيه الخيول، وما زال تصوير الفيلم مستمراً على قدمٍ وساق.

صار هاتف البيت يرنُّ كل يوم، فهناك أشخاصٌ يريدون إجراء حواراتٍ مع كاتب السيناريو. لم أكنْ أعلم بوجود هذا العدد الكبير من المجلّات المتخصّصة في الأفلام، أو المهتمة بها على الأقل. لكنّي أرى كلَّ هذا عبثاً بعبث، فالمولعون بالفنّ جدّياً، وبدأبٍ ومثابرة، يفشلون

يوماً بعد يوم عن تحقيق أيّ إنجاز. فالناس قد اعتادوا على مشاهدة الهراء والإعجاب به، دون أن يدركوا أنهم معجبون بالخواء.

سباق الخيل، مكانٌ آخر يضيّع فيه الإنسان وقته وجهده. فترى الناس يحتشدون عند الشبابيك، يُبدّدون نقودهم ليحصلوا على قطعٍ ورقيةٍ مرقّمة، وقد تكون معظمُ الأرقام خاسرة. إضافةً إلى أنّ إدارة الحلبة وإدارة الولاية تأخذان ١٨٪ من كل دولار تربحه. الحمقى الذين لا مثيلَ لحماقتهم، يذهبون إلى صالات السينما وحلبات السباق. أنا واحدٌ من الحمقى الكبار الذين يرتادون حلبة السباق، لكني أتصرّف بنباهةٍ أكثر من بقية الحمقى، فبعد عقودٍ من مواظبتي على سباق الخيل، تعلّمتُ حيلةً أو حيلتين. كان الأمر هوايةً بالنسبة إليّ، كما أني لا أغامر بمبلغ كبير من المال. عندما تتجرّعُ الفقرَ لسنواتٍ طوال، يتكوّنُ عندكَ احترامٌ بالغٌ للمال، فأنتَ لا تريد العودة إلى الحضيض مجدداً، وأنا لستُ بقدّيسٍ أو مجنونٍ حتى أستطيع العيش دون مال. إحدى نجاحاتي في الحياة، بالرغم من كل التصرفات المجنونة التي قمتُ بها، هو أنني كنتُ طبيعياً تماماً: أنا اخترتُ الأشياء التي فعلتُها، وليستْ هي من اختارتني.

على كل الأحوال، رنّ الهاتف ذات ليلة، وكان جون بينشو: لا أعرف ماذا أفعل!

ـ هل قرر فريدمان إلغاء الفيلم مرة ثانية؟

ـ لا، ليس هذا. لا أعرف كيف استطاع هذا الشخص الحصول على رقم هاتفي.

ـ أي شخص؟

ـ الذي اتصل منذ قليل.

ـ وماذا قال؟

ـ قال: يا ابن العاهرة! لقد قتلتَ أخي! أنت قتلتَ أخي! والآن سوف آتي لأقتلك! أنا قادمٌ لقتلك في هذي الليلة!

ـ يا إلهي!

ـ كان غاضباً ومنفعلاً، وكأنه فقدَ عقله، وكانت نبرةُ صوته جادّةً وحقيقيةً جداً. في هذه المدينة، لا تعرف ما ينتظرك.

ـ هل اتصلت بالشرطة؟

ـ نعم.

ـ وماذا قالوا؟

ـ قالوا: اتصلْ بنا عندما يصلُ إليك.

ـ جون، لا يمكنك البقاء حيث أنت.

ـ لا، شكراً، الأمورُ بخير. لكني متأكد بأنني لن أنام طوال الليل.

ـ هل لديك سلاح؟

ـ لا، غداً سوف أشتري واحداً، في حال بقيتُ حيّاً إلى الغد.

ـ اذهبْ إلى فندق.

ـ لا، أعتقد أن القاتل يراقبني.

ـ ما الذي أستطيع فعله لأجلك؟

ـ لا شيء! اتصلتُ لأخبركَ فقط، ولأشكرك على كتابة السيناريو.

ـ حسناً، حسناً.

ـ ليلة سعيدة يا هانك.

ـ ليلة سعيدة يا جون.

أعرف كيف يشعر جون الآن، فذاتَ يوم اتصلَ بيْ رجلٌ وقال إنه آتٍ لقتلي، وذلك لأني نمتُ مع زوجته. كأن يعرف اسمي الكامل، وأخبرني أنه في طريقه إلى بيتي. لكنه لم يأتِ، ربّما مات بحادث سيرٍ على الطريق.

نويتُ الاتصال بـ فرانسوا راسين لمعرفة آخر أخباره، لكنّ المجيب الآلي هو مَنْ ردّ عليّ: «لا تتحدّثْ إليّ، تحدّثْ إلى هذا الجهاز. لا أرغبُ بالكلام، تكلّمْ مع الجهاز. أنا لستُ في أيّ مكان، وأنت أيضاً لستَ في أيّ مكان، لكنّ الموت سيأتي بأصابعه الصغيرة ويقبضُ أرواحنا. لا أريد التحدّث مع أحد، تحدّثْ إلى الجهاز». ثم سمعتُ رنة بدء التسجيل، فقلت: فرانسوا... يا ملعون الرأس...

- هذا أنت يا هانك؟

- نعم يا عزيزي.

- نشب حريق في البيت، حريق! حريق حقيقي!

- ماذا؟

- نعم، لقد اشتريتُ تلفازاً رخيصاً أبيض وأسود... أتركُه مشتغلاً عندما أخرج من البيت... أريد خداعهم... وجعلَهم يظنّون أنّ أحداً ما موجود داخل البيت... وربما أثناء غيابي عن البيت... احترق التلفاز أو انفجر... عندما عدتُ إلى البيت رأيتُ الدخان يتصاعد.. وقد رفضَ رجال الإطفاء المجيء إلى هذا الحيّ... حتى لو احترق الحي بأكمله، لن تأتي سيارةُ إطفاء واحدة... مشيتُ في قلب الدخان... كانت ألسنةُ اللهب في كل مكان... وكان الرجال السُود داخل البيت... اللصوص والقتلة... يحملون دلاءً من الماء،

ويركضون جيئةً وذهاباً لإخماد الحريق... جلستُ لأتفرّج عليهم... وجدتُ زجاجة نبيذ لم تحترق، فتحتُها ورحتُ أشرب... ظلَّ الرجال السُود يركضون في البيت حتى أُخمِدت النار... تحوّل البيت إلى جمر ودخان... كنا نسعل، أحدُ الشبّان السود قال لي: «اعذُرني، لقد وصلنا متأخرين. كان عندنا اجتماعٌ هامّ على مستوى عصابات الحيّ... ثم اشتمّ أحدنا رائحة الدخان». قلت له: «شكراً لكم». كان بحوزة أحد الشباب قنينة جِنْ، فشربناها معاً، ثم غادروا...

- يؤسفني ما حدث يا فرانسوا، يا ويلي! لا أعرف ما أقوله لك، أما زال البيت قابلاً للسكن؟!

- أجلسُ وسْطَ الدخان... أعيش وسْطَ الدخان... إنه مثل الضباب، نعم ضباب، صار شعري أبيض اللون، أصبحتُ عجوزاً. أجلس وسط الضباب... أنا الآن طفل صغير، أعيش وسط الضباب... أسمعُ صوتَ أمي الآن... لاااا... إنها تصرخ! إنها تُغتصَب من رجل شرير! أعرفُ صوتَ أمي عندما تُنكَح... لا، يجب أن أعود إلى فرنسا، يجب أن أساعد أمي، يجب أن أساعد فرنسا!

- فرانسوا، يمكنكَ المجيءُ إلى بيتي، كما أنك ستجد غرفةً في شقة جون. ليس الأمر سيئاً كما تراه، فكلُّ غيمةٍ سوداء... لا بُدّ لها أنْ ترحل...

- لا، أحياناً تأتي غيمة سوداء... ولا ترحل، بل تبقى إلى الأبد!

- هذا في حالة الموت.

- في كل يوم من الحياة نموت ألف مرة! أنا عائد إلى فرنسا! أنا عائد إلى التمثيل!

ـ فرانسوا، وماذا عن دجاجاتك؟ أنت تعشق هذي الدجاجات، تذكّر ذلك.

ـ اللعنة على الدجاج! دع الأولاد السُود يسرقونها، دعِ اللحمَ الأسود واللحم الأبيض يلتحمان!

ـ لحمانِ يلتحمان؟!

ـ أنا وسط الضباب، نشبَ حريق في البيت، حريق! أنا رجل عجوزٌ بشعر أبيض، أجلس في الضباب... أنا ذاهب الآن.

أغلق فرانسوا سماعة الهاتف.

حاولتُ الاتصال به مراراً، وكلّ ما حصلتُ عليه هو: «لا تتحدّث إليّ، تحدّثْ إلى هذا الجهاز...».

أتمنّى أن تكون لديه زجاجةٌ أو زجاجتان من النبيذ الأحمر الأصيل، حتى يستطيع تمضية هذه الليلة. ففي هذه الليلة، رجُلٌ واحدٌ على كوكب الأرض، هو في أمسّ الحاجة إلى النبيذ، إنه صديقي فرانسوا. وكذلك صديقي جون، وأنا أيضاً، ولذا فتحتُ زجاجةً.

ـ سارة، هل تشربين معي؟

ـ بالتأكيد، ما الأخبار؟

٣٠

لم يأتِ الرجلُ الذي يريد قتل جون في الليلة الأولى، أما في الليلة الثانية فكان جون بانتظاره حاملاً مسدّسه الجديد. لكنّ الرجل لم يأتِ أيضاً، فهؤلاء الأشخاص يأتون أحياناً، وأحياناً لا يأتون.

في تلك الأثناء، تعافتْ فرانسين باورز من آثار العملية الجراحية. قال فريدمان

لـ جون: «خمسون دولاراً في اليوم، بالإضافة إلى شقّة ووجبات الطعام، هذا كل ما نستطيع تقديمه لها». ثم احتدَّ النقاشُ بينهما حول تغطية تكاليف سفرها إلى كاليفورنيا، لكنّ «فاير باور» قرّرت ـ في النهاية ـ دفع ثمن تذكرة الطائرة.

كان من المفترض أن أستلم دفعةً مالية عند البدء بالتصوير، وكذلك جون، لكن شيئاً لم يحدث. كان على «فاير باور» أن تدفع لـ جون، ثم يدفع بدوره لي، لكن الشركة لم تدفع. لا أعلمُ إذا قبضَ بقيةُ طاقم العمل أجورهم أم لم يقبضوا، وربما لهذا السبب، قرّرتُ الذهاب إلى «حفلة الموزّعين»، لعلّي أسأل فريدمان: أين نقودي؟

كانت الحفلة ليلة الجمعة في «ليمون دَكْ»، وهو مطعم كبير فيه «بار» وطاولات كثيرة. عند وصولنا أنا وسارة، كانت الطاولات ممتلئة بالحضور. هؤلاء الأشخاص هم الموزّعون، وقد جاؤوا من مختلف

أنحاء العالم. يبدو أنهم أناسٌ هادئون، وربما مملّون. كانوا يتناولون طعامهم ويطلُبون وجباتهم دون كلام، وتقريباً دون شُرب.

اخترنا طاولة في الزاوية البعيدة. دخل جون بينشو، لوّح لنا بيده، ثم جاء إلى طاولتنا مبتسماً: تفاجأتُ بوجودكما هنا، حفلاتُ الموزّعين تعيسة جداً، بالمناسبة لديّ شيء... (كان السيناريو بغلافه الأزرق بين يديه، قلَّبَ الصفحات) هنا، هذا المشهد الذي هنا، نريد أن نقطع منه دقيقة ونصف، هل يمكن؟

ـ طبعاً، هل يمكن أن تطلب مشروباً لي ولسارة؟

ـ بالتأكيد.

قالت سارة: جون على حقّ، تبدو هذه الحفلة معدومة الحياة.

ـ ربما، سنضيف إليها نكهةً جديدة.

ـ هانك، لسنا مُجبرَين على أنْ نكون دوماً آخر شخصين يغادران الحفلة.

ـ لكننا بطريقة ما...

راحت عيناي تتجوّلان بين الطاولات، الأشخاص الذين أحبُّهم... يتكلّمون كثيراً، ما أحببتُ أحداً في حياتي إلا وكان ثرثاراً. عاد جون حاملاً كؤوس الشراب: كيف تسير الأمور؟

ـ الأشخاص الذين أحبّهم يتكلّمون كثيراً.

ـ لأنهم يشربون كثيراً.

ـ لا، لا يشربون كثيراً، هُمْ بالأحرى لا يتوقّفون عن الشُرب.

فجأةً صار الجميع يصفّقون، قالت سارة: «وصل فريدمان». دخل فريدمان مرتدياً بذلة عتيقة، دون ربطة عنق، وقميصاً مجعّداً أضاع زرّه

الأعلى. يبدو أنه يحشُو رأسَه بمشاغل كثيرة، فلا يبقى فيه متّسعٌ للاهتمام باللباس. لكنّ ابتسامته ساحرة فعلاً، وعيناه ترمُقان الناسَ بنظراتٍ ثاقبة، وكأنّها تصوِّرهم بالأشعةِ السينية. لقد جاء فريدمان من الجحيم، وما زال يعيش في الجحيم، وسوف يرميك في الجحيم عندما تسنحُ له أدنى فرصة. راح يتمشى من طاولةٍ إلى أخرى، موزّعاً الابتسامات، ومبعثراً عبارات الثناء والإطراء.

وصل إلى طاولتنا، تغزّل بسارة قليلاً، فقلتُ له وأنا أشيرُ إلى السيناريو الملقى على الطاولة: انظرْ! إنه ابن القحبة جون بينشو، يُجبرني على العمل أثناء الحفلة!

ـ هذا جيد.

قالها فريدمان ببلادة، ومضى باتجاه طاولة أخرى.

أجريتُ التعديلات المطلوبة على السيناريو، وسلّمته لـ جون. قرأها جون وقال: رائع! لم تحذف شيئاً مهماً، وما زال الحوار شيّقاً.

ـ ربما صار أحسن.

فجأةً، وقفَ كلُّ من في الحفل، وراحوا يصفّقون بحرارة. كانت فرانسين باورز قد وصلتْ إلى الحفلة، لم تكن كبيرة في السنّ، لكنها محسوبةٌ على ممثلي الجيل القديم. وقفتْ باستقامة وشموخ، وكأنها ملكةٌ تُطلّ على شعبها. التفتتْ إلى اليمين وإلى اليسار بهدوء، موزّعةً ابتساماتٍ أخّاذة. ثم توقفتْ عن الابتسام، عادتْ وابتسمت. وقفتْ في مكانها مثل تمثال رخاميٍ لعدّة ثوانٍ، ثمّ مشتْ بجلال وعظمة إلى الداخل، مما أكسبها مزيداً من التصفيق والهياج. تسلّطتْ جميعُ أضواء المطعم عليها، لكنها بقيتْ واثقةً وهادئة، تتبادل كلمة أو كلمتين مع الجالسين إلى الطاولات، ثم تتابع مسيرها.

يا إلهي! وماذا عن الكاتب؟! الكاتب هو الذي يبثُّ الدمّ والعظام والعقل (أو الجنون) في هذه المخلوقات. الكاتب يجعل قلوبهم تنبض، ويعطيهم الكلمات التي يقولونها، يُحييهم ويُميتهم، ويفعل بهم ما يشاء. لكنْ أين هو الكاتب؟ مَنْ مِنَ الصحافيين يُصوّر الكاتب؟ مَنْ يصفّق له؟! لكنه بكل تأكيد، وبكل ثقةٍ وعناد، قابعٌ في المكان الذي ينتمي إليه، هناك في الزاوية البعيدة المعتمة، ومن هناك يرى ما لا يراه الآخرون.

وصلتْ فرانسين باورز إلى طاولتنا، ابتسمت لسارة وجون، وقالت لي: هل كتبتَ مشهد السيقان الذي طلبتُه منك؟

ـ فرانسين، صار المشهد ضمن السيناريو، وسوف تبرقُ ساقاكِ فيه.

ـ سوف ترى، لديّ ساقان عظيمتان!

ـ أتمنّى أن أرى من كل قلبي.

مالتْ عليّ، رمتني بابتسامتها الساحرة، كانت عيناها تتلألآن فوق وجنتيها الورديّتين: سوف ترى!

ثم استقامتْ ومضتْ إلى طاولة أخرى. قال جون: يجب أنْ أكلّم فريدمان في موضوع يخصّ العمل.

ـ نعم، واسأله أيضاً عن الدفعة المالية التي ننتظرها.

مكثنا أنا وسارة في أماكننا، نتفحّصُ أشكال الحضور. سارة تجيد التصرف في حفلاتٍ كهذه، إذ تشير إلى بعض الموجودين، وتخبرني أشياءَ عنهم. لقد جعلتني أرى أشياءَ ما كنتُ لألاحظها. ومع أني صادفتُ في حياتي معظم أنماط البشر، إلا أني لم أملك الرغبة يوماً في المراقبة أو التدقيق. وهكذا استطاعت سارة جعلَ أولئك الأشخاص يبدون أكثرَ أهميّة، وهذا إنجاز يُحسَب لها.

صرنا في ساعة متأخرة من الليل، وكالعادة لم نطلبْ أيّ طعام، فالأكل عملٌ شاقّ بالنسبة إلينا. وبعد شُرب كأسين أو ثلاثة كؤوس، تصبح جميع المأكولات بلا طعم. ثمة شيءٌ غريبٌ في النبيذ، فكلّما تزداد حرارته يزداد مفعوله. ومن اللامكان... ظهر جون بينشو: انظرْ إلى تلك الطاولة، هناك يجلس أحدُ محامي فريدمان.

ـ حسناً، سأذهب إليه. تعالي معي سارة...

ذهبنا إلى حيث المحامي، وجلسنا إلى طاولته. يبدو المحامي سكّيراً جيّداً، وبجواره تجلس سيّدة شقراء فارعة الطول، تبدو مثل شيء طويلٍ متصلّب، وكأنها متجمّدة. كانت رقبتها طويلة جداً، وكأنها تمدّدتْ وتمدّدتْ إلى الأعلى، ثم تخشّبتْ فجأةً. تشعر بالألم حين تنظر إليها، إنها متجمدة!

اتضح أن المحامي قد عرفنا: سيد تشيناسكي؟ وسارة؟

ـ أهلاً بك.

ـ هذه زوجتي هيلغا.

ألقينا التحية على هيلغا، لكنها لم تجبْ، فقد كانت متجمّدة فعلاً. أشار المحامي إلى نادل المطعم،فجاءنا حاملاً زجاجتين من النبيذ، وارتاحتْ أعصابي. قال المحامي تومي هندرسون وهو يسكب النبيذ: أراهنُ على أنك لا تطيقُ المحامين؟

ـ لا أطيقُهم باعتبارهم فئة، هذا صحيح.

ـ حسناً، أنا محامٍ شريف، لستُ نصّاباً. ولمجرّد عملي مع فريدمان؛ تظنُّ أني أُنجّر الخوازيق للآخرين؟!

ـ نعم، أظنّ ذلك.

ـ لكني لستُ...

شرب تومي قدحه، وشربتُ قدحي، ثم سكب لكلينا من جديد. قالت سارة: على رِسْلك يا هانك، ما زال أمامك قيادة السيارة إلى البيت.

ـ إذا ساءت الأمور أكثر، سوف نأخذ سيارة أجرة، ويدفع السيد المحامي أجرتها.

ـ حسناً، سوف أدفع.

المرأة الطويلة المتجمدة، ما زالت متجمّدة. كان من المؤلم النظر إليها، فرقبتُها طويلة جداً ومتمدّدة، وشرايينها ناتئةٌ إلى الخارج. شرايين طويلة ومتصلّبة ومؤلمة، كان منظراً مُريعاً. قال المحامي: زوجتي أقلعت عن الشرب.

ـ أرى ذلك.

قالت سارة: هذا جيّد لها، ويحتاج إلى شجاعة نادرة، خاصةً عندما ترى كلَّ هؤلاء الأشخاص وهم يشربون من حولها.

قلتُ: أنا لا يمكنني تركُ الشرب، فأسوأ شيء في العالم، هو أن تكون صاحياً وسط مجموعةٍ من الحمقى السكارى.

قالت المتجمّدة: مرةً، استيقظتُ وحيدةً وعارية، في الساعة الخامسة فجراً، على رمال شاطئ «ماليبو»، وهذا ما دفعني إلى ترك الشرب.

ـ قرار جيد، يتطلب عزيمة وإصراراً.

قالت سارة: لا تدعي أيّ شخصٍ يقنعكِ بالعودة إلى الشرب.

سكب المحامي كؤوساً جديدة، لهُ ولي ولسارة، ثم قال لزوجته هيلغا: تشيناسكي لا يطيقني، يظنّ أني نصّاب.

- لا ألومه.

- ماذا؟ ماذا تقولين؟؟!

شرب المحامي كأسه دفعة واحدة، ثم نظر إليّ بحنق: هل تحسب أني نصّاب؟

- ربما، على الأرجح.

- تظنّ أننا لن ندفع لك مستحقاتك؟

- إحساسي يقول ذلك.

- حسناً، اسمع، لقد قرأتُ معظمَ كتبك، ما رأيك في هذا؟ أعتقد أنك كاتب عظيم، وأنك لا تقلُّ أهميةً عن أبدايك(*).

- شكراً.

- واسمع هذه أيضاً، صباح اليوم أرسلتُ جميع الشيكات بالبريد، سوف تقبضون مستحقاتكم جميعاً، ستحصل على نقودك فور وصول الشيك إلى بيتك.

قالت هيلغا: هذا صحيح، لقد رأيته يضع الشيكات في المغلّفات البريدية.

قلتُ: رائع! وكما تعلم، هذا حقنا.

(*) جون أبدايك (١٩٣٢ ـ ٢٠٠٩): شاعر وروائي وناقد أمريكي، ذو شهرة واسعة في الولايات المتحدة. (م)

ـ نعم، إنه حقكم، ونحن نؤدي للناس حقوقها. كانت لدينا مشكلة في السيولة النقدية، وقد حُلّتْ.

ـ سيكون فيلماً ناجحاً.

ـ أعرف، لقد قرأتُ السيناريو. والآن هل تشعر بتحسُّنٍ على كافة الأصعدة؟

ـ نعم، حقاً.

ـ وما زلتَ تحسبُني نصاباً؟

ـ لا، لا يمكنني ذلك.

ـ فلنشربْ نخبنا إذنْ.

رفع قدحه إلى الأعلى، رفعنا أنا وسارة قدحينا، وقرعناها معاً. قلتُ: نخبُ الشرفاء في هذا العالم!

لاحظتُ أن الشرايين البارزة في رقبة هيلغا، صارتْ أثخنَ وأكثر نتوءاً إلى الخارج. رغم ذلك، تابعنا الشرب، وسمعنا منهما بضعة أحاديث، معظمها عن شجاعة هيلغا ومآثرها.

كنا آخر من يغادر الحفلة، هيلغا وتومي وسارة وأنا. وكان آخرُ نادلين مُتبقّيَين في المطعم، يرمقاننا بنظراتٍ ساخطة. لكننا معتادان ـ أنا وسارة ـ على ذلك، وتومي معتادٌ على الأرجح. سارتْ هيلغا معنا باتجاه الباب، مثل عمودٍ خشبيّ متألّم. لكنها لن تصاب بالصُداع صباح الغد، وبالتالي سيكون دورنا في تجرّع الألم.

٣١

بعد أسبوع، ذهبنا إلى موقع التصوير الآخر في شارع «ألفارادو». ركنّا السيارة على بعد مبنيين من الموقع، وتابعنا سيراً على الأقدام. وحين اقتربنا لاحظنا وجودَ حشدٍ من الناس حول سيارة جاك بليدسو الـ «رولز رويس». قالت سارة: إنهم يلتقطون بعض الصور.

كان جاك بليدسو واقفاً على غطاء محرّك الـ «رولز رويس»، وكذلك اثنان من رفاقه سائقي الدراجات النارية. لمعت أضواءُ فلاشات الكاميرات، فضحك رفاقُ جاك وابتسم هو. ثم راحوا يغيّرون أماكنهم ووضعيّات التقاط الصور، وهم يدوسون بأحذيتهم الثقيلة على غطاء المحرك. قالت سارة: سوف تتأذى السيارة بسببهم.

لمحتُ جون بينشو في المكان، فمشى تجاهنا وعلى وجهه ابتسامةٌ مرهقة.

ـ جون، ما الذي يحدث هنا بحقّ الجحيم؟

ـ علينا أن ندعَ الأولاد يلعبون.

ثم صاح أحدُ رفاق جاك بليدسو، فقفز كلُّ المجتمعين فوق مقدّمة السيارة، وراحوا يأخذون مزيداً من الصور. وبعدها نزلوا جميعاً وهم يضحكون. قال جون: انظرْ إلى تلك الكدمات على غطاء المحرك!

ـ بل في كل مكانٍ من السيارة، ألم ينتبهوا؟

ـ هؤلاء لا يفهمون، يعيشون حياةً كاملة دون أن يفهموا شيئاً.

قالت سارة: السيارة الجميلة... يا لسوء حظها!

(فيما بعد، كلّفهم تصليحُ غطاء المحرّك ستة آلاف دولار).

قال جون: هل تحدثتَ مع المحامي حينما كنا في الحفلة؟

ـ نعم.

ـ وماذا قال؟

ـ قال إنه أرسل الشيكات بالبريد.

ـ هذا صحيح، فقد استلمتُ الشيك، لكني لم أستلم المال.

(فتح جون حقيبته وأخرجهما منها، كانا مغلّفين على ظهر كلّ واحد منهما عبارة تقول: دفعة من الأجر).

تابع جون: يمكنكَ صرف الشيك من بنك «روبر»، إنه في هولندا.

ـ ماذا تقول؟!

قالت سارة: لماذا؟ لماذا تتصرف «فاير باور» بهذا الأسلوب؟!

ـ لا أعرف، لقد تشاجرتُ مع فريدمان هذا الصباح، قال إن الشيكات سليمة، لكن المحاسب أودع النقود في البنك الخطأ، وعندما يتمّ استرجاع الأموال إلى هنا ثانيةً، يمكننا صرف الشيكات. فقلتُ له: «هكذا ستصبح الأموال مسحوبةً من بنك هولندي، ولن يقبل أيُّ بنكٍ هنا بصرف الشيكات، يجب أن تحرّر لنا شيكات جديدة». فأجاب: «لا يمكنني فعل ذلك، ينبغي أن أنتظر المحاسب حتى يتمكن من استرداد الأموال».

ـ لا أصدّق هذا.

ـ قلتُ لـ فريدمان: «حسناً، اطلُبْ من المحاسب أن يأتي إلى هنا». فقال: «والدته على سرير الموت، وهو عندها في شيكاغو، إنها تُحتضَر بعد معاناة طويلة مع السرطان». ثم استرخى على كرسيّه الفخم، وراح ينظر عبر النافذة. صرختُ في وجهه: «سيد فريدمان، هذا ليس عدلاً!».

ـ وماذا أجاب الوحش؟

ـ نظر إليّ بعينيه الزرقاوين البريئتين وقال: «تذكّرْ يا عزيزي، لا أحدَ في هذي المدينة قبلَ بإنتاج هذا الفيلم، لقد بصقوا عليه وضحكوا عليكم، ونحنُ مَنْ تبنّاه، تذكّرْ ذلك. واعملْ معنا أيها الولد المدلّل، لكي تعيش في النعيم».

ـ وماذا فعلت؟

ـ هانك، سارة، تعالا معي من فضلكما، سوف نصوّر مشهد حوض الاستحمام، هل تذكره؟

ـ بالطبع، هل ستتابع العمل دون أجر؟

ـ سيكون مشهد حوض الاستحمام مميزاً، لقد أعجبني جداً.

ـ نعم، إنه جميل.

ـ بعد لقائي مع فريدمان، رحتُ أتجوّل حول المبنى، درتُ مرتين حول مبنى «فاير باور» الأخضر مُمْعناً النظر فيه. وفي النهاية خطرتْ فكرة على بالي، عدتُ إلى مكتب فريدمان... عفواً هانك، أرجو أن تقف خلفي عندما أجلس على هذا الكرسيّ.

ـ ماذا؟

(كان هناك مصوّر فوتوغرافي واقف بانتظار جون، جلس جون على الكرسي...)

ـ هل وقفتَ خلفي؟

ـ نعم.

ـ الآن ابتسم ابتسامتكَ العريضة المصطنعة.

تصنّعتُ ابتسامتي تلك، فالتقطَ المصوّرُ صورةً لنا. ثم طلبَ جون صورةً ثانية. وبعدها نهضَ من الكرسي وقال: «اتبعني». كان التصوير في الأعلى، تابع جون كلامه ونحن نصعد السلّم: قام فريدمان وفيشمان بأخذ صورة كهذه قبل أسبوع، فريدمان كان جالساً على الكرسي، وفيشمان واقف خلفه، وكلاهما يتبسّمان. نُشِرت الصورة على غلاف مجلة «فارايتي»، وتحت الصورة طُبعتْ عبارةٌ بالخطّ العريض: «فاير باور... سوف تنتصر»!

ـ حقاً؟

ـ انتظرْ، توقفْ هنا، دعني أكمل لكَ ما حدث قبل دخولنا إلى قاعة التصوير.

ـ حسناً.

ـ عدتُ إلى مكتب فريدمان ثانيةً، أخبرته أني رأيتُ صورته على غلاف مجلة «فارايتي». وقلتُ له إننا سوف تأخذ صورةً مماثلة في الأسبوع القادم، وبنفس الوضعيّة، وسوف ننشرُ تحت صورتنا صورةً للشيكات، ونطبع على غلاف المجلة بالخط العريض: «فاير باور سوف تنتصر لكن كيف». وأخبرته أننا إذا لم نستلمْ شيكّين مصدّقين خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، فإن الصورة سوف تُنشر على غلاف المجلة.

ثمة رجلٌ فارع الطول واقف في آخر قاعة التصوير، إنه المخرج المساعد لـ جون، صاح من مكانه: نحن جاهزون للتصوير يا جون، كل شيء جاهز.

ـ انتظروا، سآتي حالاً.

قالت سارة: يمكنك أن تكمل لنا بقية القصة لاحقاً.

ـ لا، أريد إنهاءها الآن. ثم قلتُ لـ فريدمان: في الحالة الثانية، أي إذا استلمنا الشيكّين المصدّقين خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، فإننا سوف ننشر الصورة على غلاف المجلة أيضاً. لكن دون صورة الشيكات الهولندية، وستصبح العبارة المطبوعة تحت الصورة بالخط العريض: «فاير باور سوف نساعدك على النصر»!

ـ وماذا قال؟

ـ صمت لعدة دقائق، ثم قال: حسناً، ستصلُك الشيكات التي تريدها.

ـ لكنّ الصورتين اللتين أخذناهما قبل قليل، تظهر فيهما ابتسامتان مزيّفتان. ألسنا بحاجةٍ إلى صور أفضل، تناسب عبارة: «فاير باور سوف نساعدك على النصر».

ـ عندما نحصل على الشيكات، سوف ننسى موضوعَ نشرِ الصورة على غلاف المجلة، لأنّ نشرَ صورةٍ إعلانيّة كهذه سيكلّفنا ألفيّ دولار.

ومع نهاية هذه القصة، دخلنا إلى موقع التصوير، من أجل تصوير مشهد حوض الاستحمام.

٣٢

كان مشهد حوض الاستحمام بسيطاً، تستلقي فرانسين داخل الحوض، بينما يجلس جاك على أرض الحمّام، مسنداً ظهره إلى الحوض. وأثناء استلقائها في الحوض، تتحدث فرانسين عن أشياء كثيرة، من بينها القاتلُ الذي يعيش في الشقة المجاورة لشقتها، بعد أن خرج من السجن بإطلاق سراحٍ مشروط. كان القاتل يعيش مع امرأة عجوز يضربها باستمرار، وكّان سكّان البناء يسمعون صراخهما وشتائمهما ولعناتهما العابرة للجدران.

طلب مني جون بينشو أن أكتب عبارات الشتائم واللعنات التي يطلقها هذان الشخصان، ويسمعها الجيران. فأعطيته صفحاتٍ من الكلام البذيء، في الحقيقة كانت هذه الأحاديث السوقية أكثر ما أمتعني في كتابة السيناريو.

عندما تقطن في هذه الشقق الرخيصة، أو تستأجر غرفة ضمن سكنٍ مشترك، فإنكَ لن تجد ما تفعله ـ حين تكون مُفلساً وجائعاً ومقطوعاً من الخمر ـ سوى الاستماع إلى تلك الشجاراتِ البربرية. فهي تجعلكَ تدرك أنكَ لست الشخص الوحيد الغارق في قاع اليأس في هذا العالم، ولست الوحيد السائر بخُطىً ثابتة نحو الجنون.

لم نستطع رؤية مشهد حوض الاستحمام أثناء تصويره، فلا يوجد

في الحمّام متّسعٌ لموطئ قدم، ولذا بقينا أنا وسارة في غرفة الجلوس، التي تحوي مطبخاً صغيراً في إحدى زواياها. في الحقيقة، سكنتُ في هذا المبنى ذاته قبل ثلاثين عاماً، هنا في شارع «ألفارادو»، وعشتُ مع السيدة التي كتبتُ عنها هذا السيناريو، يا لهُ من شعور غريب أرتجف أمامه. يُقال إنّ كلَّ ما يذهبُ لا بدَّ أن يعودَ بطريقة أو بأخرى، فها أنا ذا في المكان ذاته بعد ثلاثين عاماً، لم يتغيّر المكان، لكنّ الأشخاص الذين عرفتُهم فيه ماتوا جميعاً، وكذلك السيدة التي عشتُ معها قبل ثلاثة عقود. أجلس في المكان ذاته، أشرب البيرة ذاتها، لكنْ بين الكاميرات والأجهزة وطاقم التصوير. وأنا مثلُ سكّان هذا البناء، سأموت قريباً، ولذا اسكبْ لي كأساً قبل أنْ أموت.

كان طاقم العمل يحضّرون طعامهم في المطبخ الصغير المجاور لغرفة الجلوس، كما أنهم ملؤوا الثلاجة بالبيرة، وهذا ما دفعني لزيارتها عدة مرات. وجدتْ سارة أشخاصاً تتحدث إليهم، كم هي محظوظة! أما أنا فكلّما تحدّث إليّ أحدُ الغرباء، أحسُّ بأني أسقطُ من النافذة، أو أهوي مع المصعد إلى الأسفل. البشرُ عموماً ليسوا مُثيرين للاهتمام، وربما لا ينبغي أن يكونوا. بينما الحيوانات والطيور والحشرات فأراها مهمّة، ولم أفهم يوماً لماذا.

استطاع جون بينشو أن يسبقَ الجدول الزمني للتصوير بيومٍ واحد، فرحتُ كثيراً بذلك، فهذا ما يجبرُ «فاير باور» على رفع أيديهم عن رقابنا. لم نعدْ نرى أحداً منهم، لكنهم زرعوا بعض الجواسيس بيننا، وأكاد أشتمُّ رائحتهم وأميّزهم.

كان بعض العاملين في الفيلم يقرؤون كتبي، ويطلبون مني أنْ أكتبَ لهم إهداءً عليها. كان معظمها من كتبي البذيئة، والتي لا أعتبرها أفضل

أعمالي. (أفضلُ واحدٍ من كتبي، هو الكتابُ الذي لم أكتبه بعد). كان بحوزة أحدهم مجموعة قصصية بذيئة من أوائل إصداراتي، عنوانها «استمناء الشيطان». ومع آخرين دواوين شعرية مثل «موزارت فوق شجرة التين» و«هل تسمح لذاك الرجل بحضانة ابنتكَ ذات الأربع سنوات؟».

وهكذا تابعتْ ساعاتُ النهار سيرها الرتيب الهادئ، ولكثرة ما أُعيد تصويرُ مشهد حوض الاستحمام، خطرَ في بالي أنّ جسد فرانسين قد صار نظيفاً إلى درجةٍ لا توصف. ثم دخل جون بينشو مسرعاً، وعلى وجهه آثار التعب والإعياء، حتى أنه نسيَ سحّاب بنطاله مفتوحاً. كان شَعره مبعثراً، وعيناه موحشتين وشاحبتين في آنٍ معاً: يا إلهي أنتَ هنا؟

- ما الأمر يا جون؟

- (اقترب مني، وهمس في أذني...) فظيع! أمرٌ يدعو للجنون! فرانسين خائفة من أنْ تظهر حلمتاها من تحت الماء، وفي كل دقيقة تسألنا: «هل حلمتاي ظاهرتان؟»

- لكنّ نهديها رائعان.

- لم تعُد شابة كما تدّعي وتُظهر. وهاينز يكره الإضاءة، إنه لا يحتمل هذه الإضاءة، كما أنه سكران زيادة عن اللزوم.

هاينز هو المصوّر، ربما ربح كلّ جوائز العالم في مجال التصوير، إنه واحد من أهمّ المصوّرين على وجه الأرض. لكنه مثل كل الأرواح العظيمة، يعشقُ الخمر بجنون.

تابع جون كلامه، وهو يهمس في أذني بغضب: جاك لا يستطيع قولَ جملةٍ تبلغُ سطراً واحداً، لقد أعدنا التصوير عدة مرات، لكنْ هناك كلمةٌ في الجملة تُربكُه، فيضحكُ ضحكته البلهاء حين ينطقها.

- ما هي الجملة؟

ـ الجملة تقول: «عليهِ أنْ يمارسَ العادةَ السرّية للضابط الذي أطلقَ سراحه كلّما رآه».

ـ حسناً، جرّبْ هذه: «عليهِ أنْ يحلُبَ للضابطِ الذي أطلقَ سراحه كلّما رآه».

ـ جيّد، شكراً، سنعيد تصوير المشهد للمرة التاسعة عشرة!

ـ يا إلهي!

ـ ادعُ ليْ.

ـ بالتوفيق.

ذهب جون ليكمل التصوير، بينما جاءت سارة: ما المشكلة؟

ـ يُعيدون تصوير المشهد للمرة التاسعة عشرة... فرانسين خائفة من أنْ تظهر حلمتاها في المشهد... جاك لا يستطيع قولَ جملة واحدة... هاينز غاضب من الإضاءة...

ـ فرانسين تحتاج للشُرب، عسى أن ترتفع معنوياتها.

ـ لكن هاينز لا يحتاج للشرب قطعاً.

ـ أعرف. أما جاك فإنه سيقدر على قول جملته، عندما تندمج فرانسين في المشهد.

ـ ربما.

فجأةً، دخلتْ فرانسين إلى الغرفة، بدتْ منهكةً جداً. كانت خارجةً من حوض الاستحمام للتوّ، واضعةً منشفة فوق شعرها. مشتْ سارة إلى حيث فرانسين، وتكلّمتْ معها بهدوء. أصغتْ فرانسين إلى سارة، وهزّتْ رأسها، ثم راحت إلى غرفة النوم.

بعد دقيقة خرجتْ سارة من المطبخ حاملةً كوباً، كان في المطبخ

ويسكي وفودكا وجِنْ، وربما صنعتْ سارة مزيجاً من هذه المشروبات. أوصلتْ سارة الكوب إلى غرفة فرانسين، ثم عادتْ إليّ: ستكون بخير الآن!

بعد ثلاث دقائق، خرجت فرانسين من غرفتها، واتجهتْ إلى الحمّام حيث كاميرات التصوير. لمحتْ سارة في طريقها فقالت: شكراً لك.

لم أكن قادراً على الهروب من شبح الماضي، فهذا هو المبنى الذي طُردتُ منه، بعد أن نمتُ مع ثلاث نساءٍ في غرفة واحدة. وفي ذاك الزمن، لم يكن هناك شيء اسمه حقوق المستأجر. يومها قالت لي صاحبة البناء: «سيد تشيناسكي، يوجد أشخاص مؤمنون يسكنون في هذا البناء، وهناك عمالٌ وعائلات وأطفال. لم أسمع شكاوى ضدّ أحدٍ من سكان البناء، كالشكاوى التي تصلُني عنك. كما أني سمعتُ بأذنيّ، كلّ ذاك الغناء والشتائم واللعنات، سمعتُ أصوات التكسير والكلمات البذيئة والضحكات. في حياتي كلّها، لم أسمعْ بشيءٍ يشبه ما حدث في شقّتك الليلة الماضية».

ـ حسناً، سأغادر الشقة.

ـ شكراً.

كنتُ مجنوناً حتماً، أشعثَ الشعر واللحية مرتدياً قميصاً داخلياً مثقّباً بحروق السجائر. كان حلمي الوحيد في الحياة، أنْ يكون عندي أكثرُ من زجاجة خمرٍ واحدة في خزانة المطبخ. لم أكن مناسباً لهذا العالم، ولم يكن هذا العالمُ مناسباً لي. وقد وجدتُ أناساً يشبهونني، معظمهم من النساء، نساءٌ لا يتمنّى أحدٌ من الرجال أن يجتمع معهنّ في غرفة واحدة. لكني أحببتهنّ إلى درجة العبادة، إذ كُنَّ يُلهمنني، وكنتُ

أستعرض مهاراتي أمامهنّ، وأختالُ بملابسي الداخلية حولهن، أخبرهنّ كم أنا عظيم!

لكنني الوحيد الذي اقتنع بما أقول. أذكُرُ صراخهنّ عليّ: «اخرسْ! واسكبْ مزيداً من البيرة». كان أولئك النسوة قادماتٍ من الجحيم، لكي يعشنَ معي في الجحيم.

دخل جون بينشو إلى الغرفة مزهوّاً: لقد نجحنا! نجحَ كلُّ شيء! يا لهُ من يوم! وغداً سنبدأ تصوير مشهد جديد.

- أُشكرْ سارة على هذا النجاح، فقد صنعتْ مزيجاً كحولياً سحرياً.

- ماذا؟

- استطاعتْ رفع معنويّات فرانسين بكوبٍ من الخمور.

- شكراً جزيلاً يا سارة.

- على الرحب والسعة.

- يا إلهي! لقد قضيتُ سنواتٍ طويلة في مهنة الإخراج، ولم أضطرّ يوماً إلى إعادة المشهد ذاته تسع عشرة مرة!

قلتُ: سمعتُ أنّ شارلي شابلن كان يعيد المشهد ذاته مائة مرة، حتى يتقنه إتقاناً تاماً.

- ذاك شارلي شابلن، أما إذا أعدنا نحن المشهد مائة مرة، فسوف تنفد ميزانية الفيلم.

بعد نهاية اليوم الطويل، ذهبنا أنا وسارة إلى «موسُّو». اخترنا طاولةً في الصالة القديمة، وشربنا عدة كؤوس أثناء تفحّصنا لقائمة المأكولات. سألتُها: تذكرين؟ تذكرين عندما كنّا نأتي إلى هنا قبل سنوات، ونحدّق

في وجوه الجالسين على الطاولات، ونحاول اكتشافهم؟ مَن منهم ممثّل، ومن هو مخرج أو منتج، ومن يمثّل في أفلام البورنو، وكذلك وكلاء الأعمال والسماسرة؟ وكنا نقول: انظرْ إلى هؤلاء، يتحدثون عن أفلامهم القادمة، أو عقود عملهم، أو إنجازاتهم السابقة. يا لَهم من فارغين وكذّابين ومُدّعين! الأفضلُ أن نُشيح بأنظارنا عنهم، قبل أنْ تنزل أطباقُ السمك الفاخر على طاولاتهم...

ـ كنا نراهم تافهين، لكننا الآن مثلهم!

ـ يومٌ لك ويوم عليك.

ـ أعتقد أني سأطلبُ طبقاً من السمك الفاخر.

وقف النادل فوق رأسنا، راح يربت بقدميه على الأرض وينظر إلينا بحنق، ثم صار يعرك عينيه. لقد افتُتح مطعم «موسُّو» عام ١٩١٩، لكنّ هذا النادل غاضب من كل شيء، منا ومن جميع الزبائن. وافقتُ سارة على اقتراحها، فطلبتُ طبقاً من السمك الفاخر.

٣٣

تمّ تصوير الفيلم في ثلاثة مواقع، بضعة غرف، والعديد من الشوارع والأزقة. وتنقلت الكاميرات بين الكثير من الحانات الرخيصة.

ثمة مشهد ليلي يتضمّن سرقة الذُّرة من قطعة أرضٍ خالية، تعقُب السرقة مطاردةٌ من رجال الشرطة، وتكون الذّرة مزروعة في الحقل وجاهزة للسرقة. وقد كلّف استئجارُ هذا الموقع للتصوير خمسة آلاف دولار، إذ كانت قطعة الأرض متملّكة من قبل «مركز تأهيل المدمنين على الكحول». حاول بينشو العثور على موقع آخر يكون استئجاره أقلَّ تكلفة، لكنه استقرّ أخيراً على هذا الموقع، وهو في الحقيقة نفس المكان الذي كان مزروعاً بالذرة قبل ثلاثة عقود، ويومها قمتُ مع حبيبتي بسرقة الذرة منه. كانت الذرة الجديدةُ مزروعةً في ذات الأماكن التي زُرعتْ فيها الذرة القديمة، أما بقية الأشياء حول الموقع فقد تغيّرت كثيراً. فالمبنى المقابل لحقل الذرة، والذي كان يضمّ الشقة التي هربنا إليها أنا وحبيبتي، ثم عشنا فيها معاً، تحوّل اليوم إلى دار لرعاية المسنّين. أما المبنى الكبير المجاور لحقل الذرة، والذي صار اليوم «مركز تأهيل المدمنين على الكحول»، فقد كان حينذاك مركزاً لتعليم الرقص، يتألف طابقه الأرضي من صالة كبيرة مخصّصة لحفلات الرقص، كانت تعجُّ بالناس خاصةً في ليالي السبت. وقد كانت الصالة

واسعة تُقام فيها حفلاتُ الموسيقى الراقصة ومزوّدةً بأضواء متحرّكة معلّقة في السقف، ويرقص الناس فيها حتى الفجر، بينما تصطفّ السيارات الفارهة خارجها.

كنا نكره مركز تعليم الرقص هذا، ونكره زوّاره ومرتاديه، في زمنٍ كنا نتضوّر فيه جوعاً، ونتشاجر مع بعضنا البعض ومع الشرطة ومع مالكي البيوت. وما كنا نخرج من حياتنا البائسة، إلا عندما نذهب في زياراتٍ متكررة إلى سجن مرتفعات لينكولن.

الآن يغصُّ المبنى بالسكّيرين المتقاعدين، ممّن قرّروا الصلاحَ وقراءة الكتاب المقدّس، فتراهم يدخّنون السجائر ويلعبون الـ «بينغو»، في ما كان سابقاً صالة الرقص الكبرى. وحدَها قطعة الأرض المزروعة بالذرة لم تتغير، فخلال ثلاثة عقود، لم يفكرْ أحد بتشييد جدارٍ أو سقف عليها.

أجرى جاك وفرانسين تدريبهما على المشهد، ثم دخل كلٌّ منهما إلى غرفته المتنقّلة، بينما جلسنا في الموقع ننتظر بدء التصوير. ولكيلا أضيّع وقتي سُدى، كنتُ أتجرّع زجاجة بيرة أثناء الانتظار.

ثمة شابٌ وسيم ذو لحية مشذّبة أنيقة، وعينين براقتين وابتسامة لطيفة، رأيتُه مراراً أثناء التصوير، لكنني لا أعرف من هو، وما هو موقعه ضمن العمل، ولم أسأله. في الحقيقة، خمّنتُ أنّ عمله الجوهريّ هو التجسُّس لصالح «فاير باور». قال لي: أرجوك، لا يمكنكَ تناول المشروبات في هذا الموقع.

- ولمَ لا؟

- ضمن عقدنا مع الجهة المالكة لقطعة الأرض، لا يُسمح لنا بإدخال المشروبات.

ـ حتى الماء؟

ـ تعرفُ ما أعنيه!

ـ نعم، فهؤلاء السكّيرون السابقون، لن يتحمّلوا رؤية أحدٍ يشربُ بسلام.

ـ هم يكرهون الشرب.

ـ لكن الشُرب هو الثيمة الأساسيّة في هذا الفيلم.

ـ لقد بذلنا جهداً كبيراً حتى سمحوا لنا بالتصوير هنا، أرجو منكَ ألاّ تُفسد كل شيء.

ـ حسناً، سأتوقف عن الشرب من أجل بينشو، وليس من أجلك أنت.

استدار وانصرف من أمامي، وهو يحمل مصنّف الأوراق بيده، ويمشي بطريقةٍ ترتجُّ فيها مؤخّرته الصغيرة الناعمة، والتي ـ على الأغلب ـ لم تُركَلْ بما فيه الكفاية.

أدرتُ ظهري إلى مبنى مركز التأهيل، ورحتُ أعبُّ من زجاجتي، ثم أُخفيها في جيب معطفي. قالت سارة: يمكنهم رؤيتك!

ـ تقصدين أن كلّ أولئك السكّيرين السابقين، يحتشدون الآن عند نوافذ المبنى، ويتفرّجون علي؟!

ـ لا، لكن لديهم أشخاص بيننا هنا.

ـ حسناً، سأبحث عن مخبأ أشرب فيه البيرة.

ـ أراكَ تتصرّفُ بلا عقل، مثل نجوم هوليوود.

سارة على حقّ، لا يجبُ أن أتصرّف مثلهم، فالممثل الذي يؤدي

دورَ البطولة في الفيلم الذي كتبتُه، سيقبض على الدور أكثرَ مني بـ ٧٥٠ ضعفاً.

ثم جاء جون بينشو وأخبرني أن فريدمان قد أرسل الشيكات الجديدة، وأن الشيك المحرّر باسمي قد أُرسلَ إلى عنواني، وبالتالي قد وصل إلى صندوقي البريدي. وهكذا نجحتْ خُطّتنا! أضاف جون: عليّ أن أذهب الآن، سنبدأ بتصوير مشهد حقل الذّرة، تابع المشهد وأعطني رأيك.

بدأ التصوير، ركضت فرانسين إلى أعلى التلة المزروعة بالذرة، وصرختْ: أريدُ بعضَ الذرة!

تذكّرتُ جين حينما صعدتْ إلى أعلى التلة ذاتها، يومَها كنتُ أتبعُها وأنا أحملُ كيساً مليئاً بزجاجات الخمر. وعندما صرختْ جين: «أريدُ بعض الذّرة» أحسستُ أنها تقول: «أريدُ استعادة العالم كله!»، العالم الذي أضاعته، العالم الذي أضاعها، العالم الذي هرب من بين أصابعها. كانت الذرةُ انتصارها الوحيد في هذا العالم، جائزتها الوحيدة، انتقامها الوحيد، وأغنيتها الأجمل.

لكنْ صرخة فرانسين «أريد بعض الذّرة» بدتْ لي عدوانية، فهناك توترٌ في صوتها، لم يكن ذاك الصوت اليائس الرخيم للسكّير. كان أداؤها جيداً، لكن ليس بالجودة المطلوبة.

وعندما راحت فرانسين تقطف ثمار الذرة، أحسستُ بالاختلاف بين الحالتين، وأنّ ذاك المشهد الذي رأيته قبل ثلاثة عقود، لن يتكرّر أبداً. كانت فرانسين ممثلة، بينما كانت جين سكّيرة مجنونة، مجنونة إلى درجة الموت جنوناً. لكنْ على المرء ألا يتوقع من التمثيل أن يبلغ درجة الواقع، مهما كانت المحاكاة متقنة.

وهكذا جمعت فرانسين ثمار الذرة، خبأتها في حقيبة يدها، بينما قال جاك: «أنتِ سكرى... هذه الثمار لم تنضجْ بعد...». ثم وصلت سيارة الشرطة إلى المكان، وجّهتْ أضواءَها الكاشفة عليهما، فركضت فرانسين وجاك باتجاه البيت، مثلما فعلتْ جين وأنا تماماً. ثم دخلا إلى المصعد، بينما كان رجال الشرطة ينادون عليهما بمكبّرات الصوت: «قفْ أو نُطلق النار»! لكنْ بدلاً من أن يقفز رجال الشرطة من سيارتهم، ليركضوا وراء جاك وفرانسين إلى الداخل، بقي هؤلاء الشرطة ماكثين في سيارتهم. وانتهى المشهد.

بحثتُ عن جون بينشو لعدة دقائق، ثم وجدته: يا رجُل! كان من المفترض أن ينزل رجال الشرطة من سيارتهم، ويطاردوا جاك وفرانسين إلى الداخل!

ـ أعلم ذلك، لكن أبواب السيارة لم تفتحْ، فبقي العناصر محتجزين داخلها.

ـ ماذا؟!

ـ أعرف أن هذا لا يُصدّق، علينا أن نرسل السيارة إلى التصليح، ثم نُعيد تصوير المشهد.

ـ أووه... يا للأسف!

كان جون مُحبَطاً جداً، على غير عادته، فهو غالباً ما يضحك عندما يواجه مشكلات عصيبة.

ـ سأعود إليكما عندما نبدأ التصوير ثانيةً.

رحنا نتمشى قليلاً في الشارع المجاور. أكرهُ رؤية جون مكسورَ النفس بهذا الشكل، فهو رجل قوي وجريء. بعضُ الناس يكرهونه لما

يدّعيه من جرأةٍ وشجاعة، لكنه صادقٌ في دعواه. جميعنا نتظاهر أننا شجعان، وأنا أيضاً، وأكرهُ أنْ أرى جون يفقد كبرياءه».

عاد جاك وفرانسين وبقية الطاقم إلى غرفهم المتنقلة، أكرهُ فترات الانتظار الطويلة بين تصوير المشاهد. تكلّفُ صناعةُ الأفلام أموالاً باهظة، لأن معظمَ الوقتِ يذهب هدراً دون أي عمل، لا شيء سوى الانتظار والانتظار والانتظار. فريثما يجهز هذا ويجهز ذاك، وتجهز الإضاءة وتجهز الكاميرات، وحتى ينتهي مصفّف الشَعر من التبوّل، ويقدّم المستشار استشاراته... لا يحدثُ أيُّ شيء! إنه أشبهُ باستمناءٍ على مهَل! راتبٌ لهذا وراتب لذاك، ورجلٌ واحدٌ فقط يُسمحُ له بوضع القابس في الكهرباء، ومهندس الصوت غاضب من المخرج المساعد، والممثلون مستاؤون على الدوام، لأنه هكذا ينبغي على الممثلين أن يكونوا، وهلُمّ جرّا. العملُ بأكمله تبذير في تبذير، حتى في هذا الفيلم ذي الميزانية المتدنّية إلى الحضيض، تتمنّى أن تصرخ في وجوه الجميع: «أوقفوا هذا الهُراء! لا يوجد عملٌ هنا إلاّ ويمكنُ إنجازه خلال عشر دقائق، لكنكم تهدرون عليه ساعاتٍ طوال»!

لم أجرؤ على قول ذلك، فأنا كاتب الفيلم فحسب، أنا العامل ذو الأجر الأدنى.

ثم تلقيتُ جرعةً معنويةً رفعتْني إلى السماء! إذ جاء فريقان تلفزيونيان، واحدٌ من إيطاليا والثاني من ألمانيا، ويريدان إجراء مقابلاتٍ تلفزيونية معي، وكلا الفريقين كانا من النساء!

قالت المراسلة الإيطالية: لقد وعدَنا نحنُ أولاً!

ردّتْ المراسلة الألمانية: لكنكِ ستأخذينَ منهُ جوهرَ الكلام!

ـ أتمنّى ذلك!

جلستُ أمام كاميرا التلفزيون الإيطالي، بدأ التسجيل، سألتني المراسلة: ما رأيك في الفيلم؟

ـ تقصدين الأفلام؟

ـ نعم.

ـ أهربُ منها.

ـ ما الذي تفعله خارج أوقات الكتابة؟

ـ الأحصنة، أراهنُ عليها.

ـ وهل هذا يساعدك في الكتابة؟

ـ نعم، يساعدُني على نسيان الكتابة.

ـ هل أنتَ السكّير الذي في الفيلم؟

ـ نعم.

ـ هل تعتبرُ السُكْرَ شجاعةً؟!

ـ لا، ولا أعتبرُ غيرَه أيضاً.

ـ ما هو مغزى هذا الفيلم؟

ـ لا شيء.

ـ لا شيء؟!

ـ لا شيء، إنه نظرةٌ خاطفةٌ إلى مؤخّرة الموت، ربما...

ـ ربما؟

ـ «ربما» تعني أني لستُ متأكداً.

ـ وما الذي تراه عندما تنظر إلى مؤخرة الموت؟

- ذات الشيء الذي ترينه.

- ما هي فلسفتُكَ في الحياة؟

- فكِّرْ بأقلِّ قدْرٍ مُمْكن.

- غير ذلك؟

- عندما لا تجدُ شيئاً تفعله، كنْ لطيفاً.

- جميل!

- الجميل ليس بالضرورة لطيفاً.

- حسناً سيد تشيناسكي، ما هي الكلمة التي تريد أن توجهها إلى الشعب الإيطالي؟

- لا تصرخوا كثيراً، واقرؤوا سيلين(*).

أُطفئتْ أضواءُ الكاميرا الإيطالية، وصارت المراسلة الألمانية أقلّ اهتماماً بالحوار معي. لقد أصرّت على معرفة كمية الكحول التي أشربها يومياً، فأجابت سارة: «إنه يشرب، لكن ليس كما كان في الماضي».

- احضِروا لي مشروباً حالاً، وإلاّ امتنعتُ عن الكلام!

جاءني المشروب فوراً، كان كوباً بلاستيكياً كبير الحجم، لم أعرفْ ما في داخله، فشربتُه دفعةً واحدة. بدا الأمرُ سخيفاً بالنسبة لي، أنْ يسألني أحدُهم عن أفكاري، فالجزءُ الأهمّ من فكر الكاتب موجودٌ في كتبه، أما بقية حياته فليستْ مهمة.

(*) لويس فرناند سيلين (١٨٩٤ - ١٩٦١): كاتب روائي فرنسي، من رواياته: «رحلة إلى آخر الليل». (م)

لقد كانت المراسلة الألمانية على حقّ، فقد استطاعت المراسلة الإيطالية أنْ تنتزعَ مني جواهرَ الكلام!

ها قد صرتُ نجماً مشهوراً تافهاً، لكن عقلي لا زال مشغولاً بمشهد حقل الذرة، ويجب أن أرى جون بينشو وأخبره أنّ على فرانسين أن تشرب أكثر، وتُجنَّ أكثر. أنْ تضع قدماً في أعلى التل، وتنزع بيدٍ واحدة ثمار الذرة من ساق النبتة، وكأنّ الموتَ يطاردها ويحاصرها. بينما يحتشد سكانُ الأبنية المجاورة أمام الشبابيك، بوجوهٍ هاربةٍ من الأحلام، وينظرون معاً إلى الأسفل، إلى قاع الوجود البشري البائس، الذي يضمنا جميعاً: الغني والفقير، الجميل والقبيح، الموهوب وعديم الفائدة.

سألتني المراسلة الألمانية: هل تحبُّ الأفلام؟

ـ لا.

وهكذا أُطفئتْ أضواءُ الكاميرا الألمانية، وانتهى الحوار.

بعدها أُعيد تصوير مشهد حقل الذرة، لم يكنْ الأداء كما ينبغي تماماً، لكنه قاربَ الصورة المرسومة في ذهني.

٣٤

كانت الساعة العاشرة ليلاً، حين اتصل جون بينشو وقال: تمَّ إلغاء الفيلم...

ـ جون، لم أعذ أصدِّقُ قصصاً كهذه، إنها طريقتُهم المتّبعة بالضغط علينا.

ـ لا، هذه هي الحقيقة، لقد تمّ إلغاء الفيلم.

ـ كيف يفعلون ذلك؟ لقد أنفقوا كثيراً من المال على الفيلم، وسوف يخسرون خسارةً كبرى في حال...

ـ هانك، لقد أفلست شركة «فاير باور»، وليس فيلمنا الوحيد الذي أُلغي، فقد أُلغيث كلُّ الأفلام. ذهبتُ إلى مبنى الشركة هذا الصباح، لم يكن هناك سوى حرس البناء، لا أحدَ أبداً في داخل المبنى! دُرتُ على المكاتب جميعها وأنا أصيح: «مرحباً، مرحباً، ألا يوجد أحْد هنا؟»، لكنّ أحداً لم يجبْ عليّ، كان المبنى خالياً من أي إنسان.

ـ لكن جون، ماذا عن عبارة «مثّلْ أو ادفعْ» المذكورة في عقد جاك بليدسو؟

ـ لنْ يمثّل ولن يدفعوا له، كل المتعاقدين مع «فاير باور» بما فيهم

نحنُ، أصبحوا بلا دخل. بعضهم يعملون منذ أسبوعين دون أيّ أجر، بعد هذا اليوم... لا نقود لأيّ أحد...

ـ وما الذي سوف تفعله؟

ـ لا أعرف يا هانك، يبدو أنّ كلّ شيء قد انتهى!

ـ لا تقُمْ بأية تصرّفاتٍ متسرّعة، قد نجد شركة أخرى تتبنّى الفيلم.

ـ لن نجد، فالسيناريو لم يعجب أحداً.

ـ أووه... هذا صحيح.

ـ ما الذي سوف تفعله أنت؟

ـ أنا؟ سأذهب إلى حلبة السباق. لكن إذا أردتَ المجيء مساءً لنشرب بعض الكؤوس، سأكون سعيداً بلقائك.

ـ شكراً هانك، لكنْ لديّ موعدٌ هامّ مع فتاتين مثليّتين.

ـ حظاً موفقاً.

ـ حظاً موفقاً لك أيضاً.

قدتُ سيارتي باتجاه الشمال، وأخذتُ الطريق السريع الموازي للميناء، متّجهاً إلى حديقة هوليوود. أراهنُ على أحصنة السبق منذ أكثر من ثلاثين عاماً، بدأتُ هذه الهواية بعد إصابتي بنزيفٍ مَعِديّ قاتل، يومها نقلوني إلى مشفى لوس آنجلسِ، وهناك قالوا لي: إذا شربتَ كأساً آخر، فإنكَ ستموت فوراً.

يومها سألتُ جين: ماذا سأفعل؟

ـ بخصوص ماذا؟

ـ ما الذي سأفعله كبديل عن الشرب؟

ـ حسناً، هناك أحصنة.

ـ أحصنة؟ وماذا أفعل بالأحصنة؟

ـ راهنْ عليها.

ـ أراهن عليها؟ يا له من عمل سخيف!

بعدها ذهبتُ مع جين، وربحتُ في المراهنة، فصرتُ أذهب كل يوم. وبعد فترة، وبشكلٍ تدريجيّ، بدأتُ أشربُ كمياتٍ قليلة، ثم صرتُ أشربُ كثيراً، ولم أمُتْ. وهكذا كسبتُ الشربَ وسباق الخيل معاً.

قضيتُ معظم النهار في حلبة السباق، ثم ركبتُ سيارتي عائداً إلى البيت، وفي جيبي مائة دولار ربحتُها بالمراهنة. وصلتُ إلى مدخل البيت، فوجدتُ سارة تسقي أزهار الحديقة، فهي بستانيّة ماهرة حقاً. بالإضافة إلى أنها تتحمّلُ نوباتِ جنوني، وتطعمُني أغذية صحية. وكذلك تحلقُ شَعري، وتقلّم أظافري. وبشكلٍ عام، كانت القوة التي تبقيني على قيد الحياة.

ركنتُ السيارة واتجهتُ إلى حديقة البيت، أعطيتُ سارة قُبلةً حارة. سألتني: هل ربحت؟

ـ نعم، بالتأكيد.

ـ لم يتصل أحدٌ اليوم.

ـ هذا سيّء، بعد كلّ...، تعرفين... بعد أنْ هدّدَ جون بقطع إصبعه، وفعل كلَّ ما بوسعه فعله، أشعرُ بالأسى العميق عليه.

ـ كان يجب أن تدعوه لزيارتنا هذا المساء.

ـ فعلتُ، لكنه مرتبط بموعد.

ـ حفلة جنس جماعي؟

ـ لا أعرف بالضبط، إنه على موعد مع فتاتين مثليّتين، ربما يريد الترويح عن نفسه.

ـ هل رأيت الأزهار؟

ـ نعم، إنها رائعة بألوانها الحمراء والبيضاء والصفراء! الأصفر لوني المفضّل، أشتهي أكلَ هذا اللون.

مشتْ سارة ممسكةً خرطوم المياه بيدها، أغلقت الصنبور، ثم دخلنا معاً إلى البيت.

أحياناً، لا تكون الحياة سيئة.

٣٥

وهكذا، وبكل بساطة، انبعث الفيلم من الموت مجدداً. وكالعادة جاء الخبرُ عبر اتصال هاتفي من جون: نعم، سوف نتابع التصوير غداً.

ـ لا أفهم شيئاً، حسبتُ أن الفيلم قد مات إلى الأبد.

ـ قامت شركة «فاير باور» ببيع بعض ممتلكاتها، منها مكتبة الأفلام، وبضعة فنادق تملكُها في أوروبا. والأهمّ من ذلك أنها اقترضتْ مبلغاً كبيراً من شركة إيطالية، يُقال إن هذا المال الإيطالي فيه شُبهة فساد، لكنه مال في النهاية. بكل حال، أريدكَ أن تأتي مع سارة إلى موقع التصوير غداً.

ـ لا أعرف.

ـ غداً ليلاً.

ـ حسناً، لا بأس، متى وأين؟

جلسنا أنا وسارة في كشك لبيع المشروبات، كان الطقسُ لطيفاً في ليلة الجمعة تلك، والهواء منعشاً. كنا جالسين وحدنا عندما جاء ريك تالبوت وطلب فنجان قهوة، ثم جلس معنا. شاهدتُ ريك عشرات المرات على شاشة التلفاز، وهو يناقش الأفلام مع زميله كيربي

هودسون. كانا ثنائياً بارعاً في تحليل الأفلام ونقدها وتقييمها، وكان برنامجهما مُسلّياً ومفيداً. حاول الكثيرون تقليدهما، وتقديم برنامجٍ منافسٍ لبرنامجهما، لكنهم فشلوا.

بدا ريك تالبوت أصغرَ سناً مما يبدو عليه على شاشة التلفاز، وكذلك خجولاً وانطوائياً. قالتْ سارة: نشاهدكَ على التلفاز دائماً.

ـ شكراً.

سألتُه: ما أكثر شيء تكرهه في كيربي هودسون؟

ـ إصبعه! عندما يشيرُ بأصبعه أثناء الكلام.

دخلتْ فرانسين باورز إلى الكشك، ألقتْ علينا التحية، فهي تعرف ريك تالبوت مسبقاً. كانتْ تحمل دفتراً صغيراً بيدها، وقالت: هانك، أريد أن أعرف معلوماتٍ عن شخصية جين، هل هي هندية؟

ـ نصفها هندي، ونصفها الآخر إيرلندي.

ـ لَمَ كانت تشرب؟

ـ كان الشربُ ملاذاً تأوي إليه، كما أنه طريقةٌ بطيئة للانتحار.

ـ هل سبقَ لكَ أن أخذتَها إلى أي مكان، غير الحانات؟

ـ أخذتُها مرةً لحضور مباراة بيسبول في ملعب «ريفلي»، يومها كانت المباراة لفريق «لوس آنجلس إنجيلز» في دوري الساحل الغربي.

ـ وماذا حدث؟

ـ شربنا كثيراً، ثم غضبتْ مني وهربتْ من الملعب. بحثتُ عنها في الشوارع لعدة ساعات ولم أجدها، ثم عدتُ إلى الغرفة، فرأيتها ممدّدةً على السرير فاقدة الوعي.

ـ كيف كانت تتكلم؟ بصوتٍ مرتفع؟

ـ كانت تظل هادئة لساعات، ثم تغضب فجأة، فتبدأ بالصراخ واللعن ورمي الأشياء. لم أكن أردّ على تصرفاتها في البداية، ثم تجبرني على ذلك، فأسير في البيت جيئةً وذهاباً، وأنا أصرخ وأردّ الشتائم واللعنات. قد تستمر هذه الحالة لعشرين دقيقة، ثم يهدأ كلانا، فنشرب قليلاً من الخمر، ثم نعود للصراخ من جديد. كنا نُطرَد دائماً من البيوت التي نستأجرها، طُردنا من عشرات البيوت، فما عدنا نذكر عددَها أو أماكنها. مرةً كنا نبحث عن شقة نستأجرها، طرقنا باب صاحبة البناء، ففتحتْ لنا السيدة التي طردتْنا للتوّ، رأتنا فاصفرَّ وجهها، ثم زعقتْ بصوتٍ مرعب وأغلقت الباب في وجهنا.

سألني ريك تالبوت: هل جين ميتة الآن؟

ـ ماتت منذ زمن بعيد، جميعهم ماتوا، كل نُدمائي ماتوا.

ـ وما الذي أبقاكَ حياً؟

ـ الكتابة، إنها نشوتي العظمى.

أضافت سارة: كما أني أغذّيه بالفيتامينات، وأمنعه من تناول الأطعمة التي تسبب السُمنة.

سأل ريك: أما زلتَ تشرب؟

ـ غالباً عندما أكتب، وعندما أستضيف أصدقائي في البيت. أنا لا أحبُّ رؤية الناس، وحين أشرب كميةً كبيرة من الخمر، تختفي البشريةُ من أمامي.

سألتْ فرانسين: أخبرْني أشياء أخرى عن جين.

ـ كانت تضع مسبحةً تحت وسادة نومها.

ـ هل كانت تذهب إلى الكنيسة؟

ـ في حالاتٍ غريبة، كانت تذهب إلى ما تسمّيه «قدّاس الحبوب المهدّئة»، أعتقد أنه يبدأ في الثامنة والنصف صباحاً، ويستمر لساعة. لم تكن تحبُّ قدّاس الساعة العاشرة، لأنه يستمر لمدة ساعتين كما أذكر.

ـ هل جرّبتْ مرةً طقس الاعتراف؟

ـ لم أسألها.

ـ هل تخبرني شيئاً عنها، يساعدني على تفسير شخصيتها؟

ـ بالرغم من كل الأشياء المريعة التي كانتِ تقوم بها، كالشتائم واللعنات والتصرفات المجنونة، وعشقها للخمر، كانت جين تفعل كل شيء بأسلوبها الخاص. أعتقد أني تعلّمتُ منها الكثير عن الخصوصية والأسلوب.

ـ أشكرك على هذا الشرح، سيفيدني حتماً.

ـ أهلاً بك.

غادرت فرانسين مع دفترها، قال ريك تالبوت: لم أستمتعْ يوماً في زيارةٍ لموقع تصوير، مثلما استمتعتُ اليوم.

سألت سارة: ماذا تقصد يا ريك؟

ـ هناك إحساسٌ غريب يدبُّ في الهواء، ينتشرُ عادةً أثناء العمل على الأفلام محدودة الميزانية، تحسُّ أن العمل فيها طقسٌ كرنفالي. لكني أشعرُ به الآن أكثر من أي يوم مضى.

كان ريك صادقاً في شعوره، فعيناه تتلألآن بدمعٍ شفيف، وابتسامته تفيض بهجةً.

طلبنا مزيداً من المشروبات، أما ريك فقد أصرّ على شرب القهوة فقط. ثم قال: انظرْ! إنه سيستينوف!

ـ من؟!

ـ إنه مخرج الفيلم الرائع «مقبرة الحيوانات الأليفة». مرحباً يا سيستينوف!

جاء سيستينوف، فطلبتُ منه أن يجلس معنا هنا في الكشك: هل تشربُ شيئاً يا سيدي؟

ـ لا، شكراً.

ثم قال ريك: انظرْ! إنه إليانتوفيتش!

هذه المرة عرفتُ من هو إليانتوفيتش، فهو يخرج أفلام رعب فظيعة، تقوم ثيمتُها الأساسية على أنّ الظلمَ في الحياة، سوف يُهزمُ أمام الإنسان الشجاع. لكنه يُخرج بشكل رائع، إنه أسدٌ مزمجر وسطَ السواد. كان رجلاً فارع الطول، منحني القامة، مرعب العينين. فعيناه تحدّقان بك، تواظبان على التحديق، حتى ترتبك وتتلعثم.

أزحنا كراسينا لنفسحَ له مجالاً داخل الكشك الذي صار مكتظّاً تماماً: هل تشرب شيئاً يا سيدي؟

ـ فودكا، قدح مزدوج.

كرّر كلمة «فودكا» وهو يرمق البائع بعينيه، فركض الشاب مسرعاً لتلبية الطلب.

قال ريك: إنها ليلة عظيمة!

أحبّ ريك لأنه متحرّر من التصنّع والتكلّف، وهذا يتطلّب إرادةً

استثنائية، خاصةً عندما تكون في قمة الشهرة، فليس من السهل أن تُعرب عن سعادتك بالأشياء البسيطة.

شرب إليانتوفيتش قدح الفودكا المزدوج دفعةً واحدة، بينما كان ريك يتحدث مع الجميع، بمن فيهم سارة. لم يكن هناك أي شعور بالتنافس أو الحسد داخل هذا الكشك، كان الجوّ مريحاً جداً.

ثم جاء جون بينشو، دخل إلى الكشك، انحنى قليلاً وابتسم: سوف نبدأ التصوير بعد قليل، أتمنى أن يأتي الجميع للمشاهدة.

ـ شكراً يا جون.

انصرف جون، فقال ريك تالبوت: إنه مخرج جيّد، لكني أتساءلُ لماذا اخترته؟

ـ هو من اختارني.

ـ حقاً؟

ـ نعم... وسوف أخبرك قصة عنه، تثبتُ لكَ أنه مخرج جيد، وتوضّح لك لماذا أحبُّه. لكنْ أرجو أن تبقى القصة سراً بيننا.

ـ أخبرني، ما القصة؟

ـ تبقى سراً؟

ـ طبعاً.

اقتربتُ منه، وأخبرتُه قصة جون مع المنشار الكهربائي وإصبعه الصغير.

ـ هل فعل ذلك حقاً؟

ـ بالطبع.

(أعرف: لا شيء يبقى سراً بعد أن تقوله).

أثناء ذلك، أنهى إليانتوفيتش قدحين مزدوجين من الفودكا، وجلس منتظراً الثالث. كان يحدّق فيّ، ثم أخرج محفظته، سحبَ منها بطاقة عمل مدهونةً بالشحم، وأعطاها لي. كانت البطاقة مقصوصةً من زواياها الأربع، مهترئةً تماماً، ومغطاةً بالوسخ. تشبه كل شيء ما عدا بطاقة عمل. يبدو إليانتوفيتش رجلاً عبقرياً قوياً، يعجبني جداً، أخذ قدح الفودكا الثالث وسكبه في حلقه مباشرة.

ألقى عليّ نظرةً ثقيلة، فنظرتُ إليه في المقابل. لكنّ عينيه الواسعتين المرعبتين لا تُحتملان، فاضطررتُ أن أحرف نظري. أشرتُ للبائع أن يملأ كأس إليانتوفيتش مجدداً، ثم نظرتُ إليه وقلت: أنتَ أفضلُ الرجال! ومن بعدك لا أحد!

- لا، ليس كذلك، أنت الأفضل! لقد أعطيتكَ بطاقتي، على البطاقة موعد عرض فيلمي الجديد، يجب أن تأتي.

- بالتأكيد يا عزيزي.

أخرجتُ محفظتي، ووضعتُ البطاقة فيها بتأنٍّ. قال ريك تالبوت: يا لها من ليلة عظيمة!

تابعنا الحديث إلى أن جاء جون بينشو: صرنا جاهزين للتصوير، أرجو أنْ تتفضّلوا معي لأجد لكم أماكن تجلسون فيها وتشاهدون.

نهضنا جميعاً لنتبع جون، ما عدا إليانتوفيتش الذي بقي في الكشك قائلاً: اللعنة! أريد شرب المزيد من الفودكا! اذهبوا وحدكم!

ذاك الوغد، سبق له أن سرق صفحة أو صفحتين من كتبي، ولذا عندما أخرجَ سيجاراً ضخماً، غرزه بين شفتيه، وأشعله بالولاعة... احترقَ جزءٌ من أنفه.

يا له من وغد!

٣٦

كان التصوير في الزقاق الخلفي، حيث تقع مشاجرة بين نادل الحانة والزبون الدائم. ورغم برودة الطقس كان الطاقمُ جاهزاً لبدء التصوير. أثناء المشاجرة، سيتمُّ استخدامُ ممثلَين بديلين عن كلٍّ من جاك بليدسو ونادل الحانة. صحيحٌ أن لقطات الكاميرا القريبة ستكون لوجهي بليدسو والنادل، لكنّ مشهد المشاجرة واللكمات سيقوم به الممثلان البديلان.

رآني بليدسو: هانك، هانك، تعال إلى هنا، دعِ الشبابَ يرون أسلوبكَ في القتال.

مشيتُ بشكلٍ دائري وكأني أدور قُبالة خصمي المفترض، موجّهاً لكماتٍ خفيفةً بيدي اليسرى، ثم هجمتُ عليه مسدّداً لكماتٍ سريعة باليمين وباليسار، ثم توقّفت.

سبق لي أن شرحتُ طبيعة هذه المشاجرات منذ زمن:

«لم تكن تبدو مشاجراتٍ مثالية. في البداية يدورُ المتقاتلان في الساحة كلٌّ منهما مقابل الآخر، وأثناء ذلك قد يقفز شخصٌ من الخارج وينقضُّ على أحدنا. وبالإضافة إلى السُكْر، كان تبديلُ المواقع متعباً وخطراً ثم نقترب من بعضنا ويتدفّق سيلُ اللكمات. ومع الوقت يتحوّل الشجارُ من التسلية إلى رغبة كلٍّ طرفٍ بالقضاء على الآخر، ولا تنتهي

المشاجرة إلا بسقوط أحد المتقاتلين مُغمىً عليه. كان العرض مسلّياً للمتفرّجين ومجانياً...».

اقترب موعد التصوير، وقفنا في أوّل الزقاق بحيث لا نظهر في الكاميرات. ثم جاء هاري فريدمان مختالاً برفقة فتاة هوليوودية، تضعُ شعراً مستعاراً ورموشاً مستعارة، وعلى وجهها طبقاتٌ من التبرّج المُفرط. يبدو أنها قد نفختْ شفتيها ضعف حجمهما الطبيعي، وكذلك ثدييها. كما حضر إلى الموقع المخرج الكبير مانز لوب الذي أخرج أفلاماً مثل «الرجُل الجرذ» و«رأس قلم الرصاص»، وبرفقته الممثلة الشهيرة روزالين بونيلي. وهكذا ذهبنا لنرحّب بهما ونتعرّف إليهما، كان لوب وبونيلي لطيفين، يبتسمان بأدبٍ واحترام. لكني أحسستُ بشعور مقيتٍ، لكونهما يعتبران نفسيهما أرقى منزلةً منا. ثم تجاوزتُ الشعور بكوني أنا أيضاً... أعتبرُ نفسي أرقى منزلةً منهما، وهكذا تجري الأمور عادةً.

عدنا إلى أماكننا المفضّلة، وبدأ تصوير المشاجرة العظيم. بدت المشاجرةُ داميةً منذ بدايتها، أما مشاجراتُنا قبل ثلاثة عقود، فلم تكن عنيفة ودمويةً إلاّ عند النهاية، أي عندما يُنهَك أحدُ المتقاتلين (غالباً أنا)، ويصرُّ الآخرُ على الاستمرار بالضرب.

أمرٌ آخر يميّز تلك المشاجرات، فإذا لم تكن واحداً من جماعة نادل الحانة، وخسرتَ في الشجار، فإنك سوف تُرمى بين حاويات القمامة والجرذان. أذكُرُ حادثةً صارت معي، يومَ استيقظتُ فجراً على صوت مزمار شاحنة، وأضوائها الساطعة الموجّهة إليّ. كانت شاحنة نقل القمامة: يا هذا... ابتعدْ عن طريقنا... كِدْنا ندوسُك بعجلات الشاحنة...

ـ أووه... أنا آسف...

وبعدها أنهضُ مترنّحاً تعِباً، موجَعَ الرأس مرضوضَ الجسد، أسير نحو حلمي بالانتحار، بين أولئك الرجال السُود الأصحّاء، المُصرّين على المجيء في الساعة المحدّدة، لنقل القمامة خارج الحيّ. وأحياناً تكون معهم امرأة سوداء، تطلّ برأسها من شبّاك الشاحنة: أيها القمامة البيضاء... ابتعدْ عن مؤخرة الشاحنة...

ـ حاضر، آسف سيدتي.

والأسوأ من ذلك، أنك عندما تبدأ باستعادة وعيك بين حاويات القمامة، لا تقدر على النهوض بهذا الجسد المُنهكِ المكسَّر، لكنك تعرف أنه يجب عليك النهوض. والأسوأ من كلّ ما سبق، هي الحقيقة المريرة التي تكتشفها في تلك اللحظات، وهي أن محفظتك مسروقة!

أثناء المشاجرة، تكون المحفظة في الجيب الخلفي للبنطال، فتحاول أن تستشعرها وهي تضغطُ على رِدفك، دون أن تمدَّ يدك إليها. ثم تأتي لحظةٌ تحسُّ فيها بضرورة استخدام اليد لتفقّد المحفظة، وفي هذي اللحظة لن تجدها. تقفُ وتفتش في كل جيوبك، لكنك لا تجدها. ولهذا ـ يوماً بعد يوم ـ فقدتُ ثقتي بالجنس البشري.

على كلّ حال، انتهى تصوير مشهد المشاجرة، جاء جون بينشو وقال: ما رأيك؟

ـ ليس جيداً تماماً.

ـ لماذا؟

ـ في مشاجراتنا... كان المتقاتلون أشبه بالمهرّجين، يستعرضون أمام حشدٍ من المتفرّجين. فعندما يقفز أحدُ المتقاتلين ويضرب الآخر ضربةً موفّقة، يعود إلى المتفرّجين ويسألهم: ما رأيكم بما فعلت؟

ـ تعني أنهما قد بالغا في جدّية المشاجرة؟

ـ تماماً.

عاد جون إلى الممثّلَين البديلَين، وتحدّث إليهما. جون عجوزٌ طيب، ربما هو المخرج الوحيد الذي يستمع لرأي الكاتب ويأخذ به، يشرّفني ذلك. لم أكنْ محظوظاً في أيّ يومٍ من حياتي، لكنّ الحظّ يحالفني الآن، وها أنا آخذُ حصّتي منه.

أعادوا تصوير مشهد المشاجرة، ووقفتُ أتفرّج. أحسستُ بضعفي الشديد وأنا أشاهد حلمي القديم أمامي، تمنيتُ لو كنتُ واحداً من هؤلاء الشبّان، لأرمي بنفسي وسط الشجار. قد يكون ذلك حماقةً أو قد لايكون، لكنني أحسُّ برغبةٍ عميقةٍ للكمِ جدار الزقاق. فأنا ولدتُ لكي أموت.

عاد جون إليّ: ما رأيك الآن؟

ـ أعجبني.

ـ وأنا كذلك.

عدتُ مع سارة إلى الكشك، كان إليانتوفيتش قد رحل، ربما بعد أنْ أنهى ما لدى البائع من فودكا. أما ريك فما زال يشرب القهوة ويقول: هذه واحدة من أجمل الليالي في حياتي!

ـ اسمعْ ريك، كان عليك أن ترافقني دائماً في سَهَراتي، أين تسهرُ عادةً؟

ابتسمَ وتابع شربَ قهوته بهدوء، كان رجلاً نبيلاً رائعاً. ثم عادت فرانسين باورز مع دفترها: كيف ماتتْ جين؟

ـ كنتُ مع امرأةٍ أخرى آنذاك، فقد افترقتُ عن جين قبل سنتين من وفاتها. آخر مرةٍ التقينا فيها، كانتْ حين زرتُها عشيّة عيد الميلاد. كانت تعملُ خادمة في الفندق آنذاك، وتحظى بشعبية كبيرة. يومها تلقّتْ هدايا من كل نُزلاء الفندق، كان في غرفتها رفٌّ خشبي يمتد على عرض الحائط بمحاذاة السقف، وقد امتلأ هذا الرف بـ ١٨ أو

١٩ زجاجة خمر. حينذاك قلتُ لـ جين: «إذا شربتِ كلّ هذي الزجاجات، سوف تموتين فوراً، ألا يعرف هؤلاء الناس ذلك؟». لكنّ جين نظرت إليّ فقط. قلتُ أيضاً: «سوف آخذ كلّ هذي الزجاجات اللعينة معي، هؤلاء الناس يريدون قتلك». لكنها نظرت إليّ دون كلام. بقيتُ عندها في تلك الليلة، وخلال الليل شربتُ ثلاث زجاجات خمر لوحدي، وبالتالي أنقصتُ عددها إلى ١٥ أو ١٦ زجاجة. وعندما رحلتُ في الصباح أوصيتُها: «أرجوكِ يا جين، لا تشربي كلَّ هذي الزجاجات». عدتُ لزيارتها بعد أسبوع ونصف، كان باب الغرفة مفتوحاً، وعلى سريرها بقعة دم كبيرة، ولم تعُدْ هناك أية زجاجة في الغرفة. نقلتُها إلى مشفًى لوس آنجلس، كانت في غيبوبة كحولية، فجلستُ بجوارها لعدة ساعات، أُبلّلُ شفتيها بالماء، وأزيحُ خصلاتِ شعرها عن وجهها. ثم، وللحظة واحدة فقط، فتحتْ عينيها وقالت: «أعرفُ أنك الوحيدُ الذي سيرافقني حتى النهاية». وبعد ثلاث ساعات، ماتت.

قالت فرانسين: ألم تكن لديها أي فرصة للنجاة؟

- لم تكنْ تريد النجاة، فمن بين جميع الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي، كانتْ جين الشخصَ الوحيد الذي يحتقر الجنس البشريّ كما أحتقره أنا.

سجّلتْ فرانسين في دفترها، «أعتقد أني سأستفيد من هذه المعلومات»، ثم غادرتْ.

قال ريك: اعذرني، إني أراقبكَ طوال هذا المساء، ولا يبدو عليكَ أنكَ رجل شرير.

- وأنتَ أيضاً، لا يبدو عليك ذلك.

٣٧

عدنا إلى موقع التصوير بعد بضعة أيام، كانت المشاهد نهاريةً، وقبل أن ندخل الحانة جاء جون بينشو وقال: انتظر، سيصل المصوّر الفوتوغرافي كوربل فيكر بعد دقيقة، يريد التقاط بعض الصور لك ولجاك وفرانسين. هذا الرجل معروف على مستوى العالم، فهو من أشهر مُصوّري نجمات السينما، صورُه تضفي عليهنّ سحراً مضاعفاً...

وهكذا وقفنا في الزقاق خلف الحانة، حيث تمتزج أشعة الشمس مع الظلال بتناغم. توقعتُ أن يطول انتظارنا، لكن كوربل فيكر وصل بعد خمس دقائق. كان بحدود الخامسة والخمسين من العمر، بَدين الوجه، وله بطن بارز إلى الأمام. يلفُّ وشاحاً حول عنقه، ويضع قبّعة «بيريه». كان برفقته شابان يحملان معدات التصوير، بدا الشابان خائفين ومُطيعَين. عرّفنا كوربل على مساعديه: «هذا ديفيد، وهذا وليم»، ابتسم الشابان ببراءة. ثم جاءت فرانسين، فركض كوربل إليها وعانقها.

نظر كوربل حوله، فوجد أريكة عتيقة مكسورة الأرجل، ومرميّة في الزقاق، فاصطادها بعينيه. قال لي: أنت... اجلسْ على تلك الأريكة...

ذهبتُ وجلستُ على الأريكة، ثم قال: والآن فرانسين... اذهبي واجلسي في حضنه...

كانت فرانسين ترتدي فستاناً أحمر اللون، له فتحةٌ تبدأ من أعلى

الفخذ، وتحته حذاءٌ أحمر وجوارب لحميّة. وتضع على عنقها عقداً من اللؤلؤ الأبيض. جاءت إليّ وجلست في حضني، نظرتُ إلى سارة وغمزتُها.

سألتني فرانسين: هل مؤخرتي الصلبة تضايقك؟

ـ لا، إنها رائعة، لا تقلقي أبداً.

صاح كوربل: الكاميرا رقم أربعة.

ركض ديفيد حاملاً الكاميرا رقم أربعة، علّقها كوربل على رقبته، ثم أمسكها بيديه ونزل على ركبةٍ واحدة. لمعَ ضوءُ الفلاش، والتقط الصورة: رائع! رائع!

التقط صورة ثانية: ممتاز! ممتاز!

ثم فلاش آخر وصورة أخرى: فرانسين... اكشفي عن ساقيكِ أكثر... نعم، نعم، هكذا جيّد...

كان يصوّر بشغف وحماس، ثم صاح: فيلم! فيلم!

ركض وليم حاملاً فيلماً جديداً، وضعه في الكاميرا، ثم وضع الفيلم المستخدم في علبة خاصة. نزل كوربل على ركبتيه، ركّز طويلاً، ثم قال: اللعنة! لا أريد هذه الكاميرا، أريد الكاميرا رقم ستة، الآن!

ركض ديفيد حاملاً الكاميرا رقم ستة، أعطاها لـ كوربل فيكر، وأخذ منه الكاميرا رقم أربعة. تابع كوربل: مزيداً من السيقان يا فرانسين... ساقاكِ رائعتان! أحبّكِ يا فرانسين، أنت آخر النجمات الكبار في هوليوود!

لمعَ الفلاش والتُقطتْ الصورة، فلاش وصورة... فلاش وصورة...، ثم جاء جاك بليدسو.

ـ جاك، اجلسْ على الأريكة معهما، ضعوا فرانسين في المنتصف بينكما.

فلاش وصورة... فلاش وصورة...، كانت الصُوَر معدّةً للنشر في مجلّة نسائية شهيرة، ذات انتشار واسع.

ـ حسناً، أيها الرجُلان ابتعدا عن الأريكة، أريدُ فرانسين لوحدها.

طلب منها أن تستلقي على جنبها، واضعةً كوعها على مسند الأريكة. ثم فاردةً ذراعيها على ظهر الأريكة، ثم حاملةً سيجاراً طويلاً. وكانت فرانسين مستمتعةً جداً بالتصوير.

فلاش وصورة... فلاش وصورة... آخر النجمات الكبار في هوليوود... شابان يركضان حاملين الأفلام الجديدة... ومبذّلين بين الكاميرات... أعتقد أن عملهما أصعبُ من العمل في محطة الوقود.

ثم انتبه كوربل إلى سور الأسلاك الشائكة، فصرخ: يوجد سور سلكي!

طلب كوربل من فرانسين أن تنحني على السور السلكي بدلال، آخذةً وضعية مثيرة. ثم أوقفني على يمينها، وأوقف جاك على يسارها. لقد أعجبته فكرةُ سور الأسلاك الشائكة، فالتقط العديد من الصور. لا أعرف هل أحبَّ الأسلاك أم الخلفية التي وراءها.

أنهى كوربل عمله، فراح يعانق فرانسين ويقبّلها، بينما كان صبيّاه يوضّبان المعدّات. كان مع وليم دفتر صغير، يسجّل فيه كل شيء: رقم الصورة، تاريخها وساعتها، موضوعها، ورقم الكاميرا والفيلم المستخدمين.

.

عدتُ مع سارة إلى الحانة، كان زبائن الحانة الدائمون في أماكنهم

المعتادة. لكنهم باتوا اليوم نجوماً سينمائيين، يتصرّفون بهدوء ووقار، ويجلسون صامتين، وكأنهم يفكّرون بالمسائل الفلسفية الكبرى. ها قد وصلنا إلى الأيام الأخيرة من التصوير، حزنتُ حقاً على الأيام التي لم أذهبْ فيها إلى موقع التصوير. لكنْ إذا أردتَ أن تراهن على الأحصنة، عليكَ أن تنسى سواها.

جلسنا في الحانة، طلبتُ البيرة بينما طلبت سارة كأساً من النبيذ: هل تعتقد أنك سوف تكتب سيناريو آخر؟

ـ أشكّ بذلك، ففي كتابة السيناريو عليك أن تقبل بالكثير من التسويات والحلول الوسطى، وعليك أن تنظر دائماً من خلال عدسة الكاميرا، وتسأل نفسك: هل سيفهم الجمهور المشهد؟ وغالباً ما ينزعج جمهور السينما من كل شيء، ويعتبرونه إهانةً لهم. أما قرّاء الرواية والقصة القصيرة فيحبّون الإحباط والإهانة.

ـ وأنت بارع في كتابتها.

دخل جون بينشو إلى الحانة، أخذ كرسياً وجلس جنبي، قال: ابن القحبة!

سألت سارة: ماذا حدث؟

سألتُ: هل أُلغيَ الفيلمُ مرةً أخرى؟

ـ لا، إنه أمر آخر.

ـ مثلُ ماذا؟

ـ جاك بليدسو يرفض أن يوقع على التنازل عن حقوق الصور الفوتوغرافية التي التُقطتْ قبل قليل.

ـ ماذا؟

ـ نعم، أرسل كوربل أحد مساعديه إلى غرفة جاك، حاملاً عقد التنازل عن الحقوق، لكن جاك رفض التوقيع. ثم ذهب كوربل بنفسه إليه، وما زال رافضاً.

ـ لكن لماذا؟ لماذا يقبل بالتصوير ثم يعاند إعطاء المصوّر حقوق الصور؟

ـ لا أعرف، لكن ما زال بإمكاننا الاستفادة من صورك مع فرانسين. هل ستأتي لمشاهدة تصوير المشهد التالي؟

ـ طبعاً.

ـ سوف آتي لآخذكما إذن.

ـ شكراً.

جلسنا أنا وسارة نفكّر في الموضوع، أفترض أنها تفكّر فيما أفكّر فيه. وبعد تأمّلٍ عميق، أيقنتُ أن الممثلين يختلفون كثيراً عن بقية الناس، ولديهم أسبابهم الخاصة لكل شيء. عندما تُمضي ساعاتٍ طويلة، وسنواتٍ طويلة، وأنت تتظاهرُ بأنكَ شخص آخر، لا بدّ لهذا أنْ يترك أثراً عليك، ويصبح من الصعب عليك العودة إلى ذاتك. تخيّلْ أنك تحاولُ جاهداً أن تكون شخصاً ما، ثم تحاول جاهداً أن تكون شخصاً غيره، ثم شخصاً آخر. في البداية قد يبدو الأمر ممتعاً حقاً، لكنْ بعد فترة من الزمن، وبعد أنْ تحوّلتَ إلى عشرات الأشخاص الغرباء عنك، سوف يصعبُ عليك أن تتذكّر من أنت، وأنْ تجد صوتكَ وأسلوبك الخاص.

أعتقد أن جاك بليدسو قد أضاع نفسه، وحسبَ أنهم كانوا يصوّرون شخصاً آخر، شخصاً ليس هو، ولذا لم يبقَ أمامه سوى أنْ يرفض التوقيع على التنازل عن حقوق الصور.

يبدو هذا التفسير معقولاً بالنسبة إليّ، وددتُ أن أشرحه لسارة. نظرتُ إليها فكانت قد أنهت كأس النبيذ، وراحت تدخن سيجارة بصمت، فرأيتُ أنه من الأفضل تأجيل ذلك.

رشفتُ رشفة كبيرة من كوب البيرة، وأنا أتساءل إنْ كانوا سيستخدمون واحدةً من الصور التي جمعتْني مع فرانسين، وهي تجلسُ بمؤخرتها الجميلة في حضني، على غلاف تلك المجلة النسائية الشهيرة.

٣٨

وهكذا، وبسرعةٍ غير ملحوظة، انقضى اثنان وثلاثون يوماً من التصوير، وحان وقتُ حفلة الختام.

في الطابق الأرضي تقع الحانة الكبيرة، تتألف من بار فخم، تنتشر أمامه العديد من الطاولات، وفي الداخل صالة رحبة للرقص. كان للحانة طابق علويّ له شرفة صغيرة، تصعدُ إليه عبرَ سلّم خشبيّ جميل.

كانت الحفلة في الأساس على شرف طاقم الفيلم والممثلين، لكن معظمهم لم يأتوا، وجاء بدلاً منهم الكثير من الأشخاص الذين لم أعرفهم. لم تكن هناك فرقة موسيقية تعزفُ في الحفل، كانت موسيقى الديسكو آتيةً من مكبّرات الصوت فقط. دخلتُ أنا وسارة، توجّهنا إلى البار الذي تعمل فيه سيدتان، طلبنا قدح فودكا لي وكأس نبيذ لسارة. يبدو أن إحدى النادلتين قد عرفتني، فجاءت إليّ حاملةً واحداً من كتبي، كتبتُ لها إهداءً جميلاً عليه.

كانت الحانة مكتظّة بالناس، والحرارةُ مرتفعةً في هذه الليلة الصيفية، ولم تكنْ هناك أية أجهزة للتكييف. اقترحتُ على سارة: لنأخذْ كأسين آخرين ونصعد إلى الأعلى، فالجوّ حارّ جداً هنا.

ـ حسناً.

صعدنا إلى الطابق العلوي، كان الجوّ ألطفَ والازدحام أقلّ. لم يكن في الحفلة عرضٌ رئيسيّ أو محورٌ ترتكز عليه الأنظار، ويبدو أن معظم الحفلات صارت هكذا. بدأتُ أشعر بالملل، فأنهيتُ قدحي وقلت: أنا ذاهب لأحضر قدحاً آخر، هل تريدين شيئاً؟

ـ لا، شكراً.

نزلتُ إلى الطابق الأرضي، وقبل أن أصل إلى البار، ثمة رجلٌ بدينٌ طويلُ الشعر، يضع نظارة سوداء، أمسك بيدي وصافحني: تشيناسكي! لقد قرأتُ كلَّ كتبك، كلّها!

ـ هل هذا صحيح؟

ـ لقد سَكِرْنا معاً في حانة «بارني بينري» ذاتَ ليلةٍ، ألا تذكُر؟

ـ لا.

ـ تقصد أنكَ لا تذكر أننا شربنا معاً في حانة «بارني بينري»؟

ـ لا.

ـ (رفع نظارته السوداء إلى أعلى جبينه) الآن تذكّرتني؟!

ـ لا.

سحبتُ يدي من يده، وتابعتُ سيري باتجاه البار. طلبتُ من النادلة قدح فودكا آخر، جلبته لي وقالت: لديّ صديقة اسمها لولا، أنتَ تعرف لولا؟

ـ لا.

ـ قالتْ إنكَ تزوّجتها لمدة سنتين!

ـ هذا غير صحيح.

حملتُ القدح ومضيتُ باتجاه السلّم، أوقفني رجلٌ بدين آخر، لكنه أصلع هذه المرة، وله لحيةٌ كثة: تسيناسكي!

ـ نعم؟

ـ أنا أندريه ويلز... كتبتُ روايةً وصارتْ جاهزةً للنشر، أريد منك أن تقرأها، هل أرسل لكَ نسخةً منها عبر البريد؟

ـ حسناً. (أعطيته رقم صندوق البريد).

ـ لكن، ألا يوجد رقم للشارع؟

ـ طبعاً، لكن أرسلها إلى رقم صندوق البريد.

صعدتُ إلى الطابق الأعلى، بعد أن راحَ نصفُ قدحي على الطريق. كانت سارة تتحدثُ إلى إحدى الممثلات، ثم لمحتُ جون بينشو واقفاً في الزاوية، فمشيتُ إليه.

ـ هانك، تفاجأتُ برؤيتك هنا.

ـ وأنا تفاجأتُ بأن «فاير باور» أنفقتْ مالاً على هذا الحفل.

ـ لقد استأجروا الحانة بأكملها.

ـ لماذا؟

ـ لأننا نقوم بمونتاج الفيلم هنا، بعد ذلك سنقوم بإدخال الموسيقى التصويرية إلى المشاهد. لمَ لا تأتي وتشاهد كيف نعمل؟

ـ متى؟

ـ في أي وقت، نحن نعمل من اثنتي عشرة إلى أربع عشرة ساعة في اليوم.

ـ حسناً. أريد أن أسألكَ: ما أخبار بوبي؟

ـ من؟

ـ تلك الفتاة التي قبضتْ منك عشرة آلاف دولار، حينما كنتَ مقيماً في البيت المطلّ على البحر.

ـ آه... إنها في البرازيل الآن، سوف نعتني بها، لا تقلق.

ـ أَلنْ تنزل إلى الصالة لترقص؟

ـ لا، هذا سخيف. (صاح أحدهم باسم جون) اعذرني، ولا تنسَ أنْ تزورني في غرفة المونتاج.

ـ أكيد.

أثناء كلامي مع جون، دخل جاك بليدسو مع رفاقه سائقي الدراجات النارية إلى الحانة، جلس رفاقُ جاك على كراسي البار، ظُهورهم إلى البار ووجوههم إلى الداخل. كان كلٌّ واحد منهم يشرب زجاجة بيرة، باستثناء جاك الذي كان يشرب «سفن ـ أب». كانوا يلبسون معاطف جلدية، وسراويل جلدية، وأحذية عالية الساق.

قلتُ لسارة: سوف أنزل لأرى جاك بليدسو وعصابته، هل تأتين معي؟

ـ بالتأكيد.

نزلنا إلى الطابق الأرضي، واتجهنا إلى البار، راح جاك بليدسو يُعرّفنا على رفاقه واحداً واحداً: هذا هاري الخنزير الأسود.

ـ أهلاً يا رجُل...

ـ وهذا هو الكرباج.

ـ أهلاً بك...

ـ هذا صرصار الليل.

ـ أهلاً وسهلاً...

ـ هذا صيّاد الكلاب.

ـ رائع!

ـ هذا إيدي ذو الثلاث خصى.

ـ اللعنة!

ـ هذا هو الفَسْوَة الساخنة.

ـ تشرّفتُ بمعرفتك!

ـ وهذا قاتل الفَرْج.

ـ أهلاً...

يبدو أنهم شباب رائعون جداً.

قلتُ لـ جاك: لقد مثّلتَ دورك بشكل ممتاز.

أضافت سارة: كنتَ مذهلاً.

ـ شكراً، شكراً. (احمرّتْ وجنتاه).

ـ حسناً جاك، سوف نصعد إلى الأعلى، فالحرُّ لا يطاق هنا.

ـ هل ستكتب سيناريو سينمائي آخر؟

ـ لا أظنّ ذلك، ففي هذا العمل يفقد المرء خصوصيته الشخصية. أفضّل الجلوس وحيداً والتحديق في الجدران.

ـ في حال كتبتَ سيناريو، دعني أرَهْ.

ـ بالتأكيد. لماذا يُدير هؤلاء الشباب ظهورهم للبار، وينظرون إلى الداخل؟ هل يبحثون عن فتيات؟

ـ لا، لديهم الكثير من الفتيات. إنهم فقط يثيرون الفتيات الموجودات هنا.

ـ حسناً، أراك لاحقاً.

صعدنا إلى الأعلى، بعد قليل غادر جاك مع عصابته.

كانت سهرة متعبة لي، قضيتُها وأنا أنزل السلّم إلى البار، ثم أصعد إلى الأعلى. وبعد ثلاث ساعات، غادر الجميع تقريباً. وقفنا أنا وسارة على الشرفة، ثم رأيتُ جون: أهلاً جون، أين فرانسين؟ لمَ لم تأتِ إلى حفلة الختام؟

ـ لأنه لا توجد وسائل إعلام هنا.

ـ فهمتُ عنك.

ـ عليَّ الذهاب الآن، فيجب أن أستيقظ باكراً لأتابع العمل على المونتاج.

ـ حسناً.

كان الطابق الأرضي قد أصبح خالياً، وأقلَّ حرارة، فنزلنا وجلسنا قبالة البار. لم يبقَ في الحانة سواي وسارة، ونادلة واحدة خلف البار.

ـ نريدُ كأساً نشربه على طريق العودة.

ـ لا يمكنني أن أقدّم لكَ أيّ مشروبٍ الآن.

ـ كيف ذلك؟

ـ لقد استأجرتْ «فاير باور» هذا المكان حتى منتصف الليل فقط، والآن صارت الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق. لكني سأهرّب لك

بعض المشروبات سراً، لأني أعشق كتاباتك، وأرجو ألاّ تخبر أحداً بذلك.

ـ عزيزتي، لن يعرف أحد أبداً.

أعطتنا النادلة زجاجتين، وقد حان موعد الرحيل حتماً، فلدينا في البيت خمس قطط جائعاتٍ ينتظرننا. شعرتُ بحزنٍ عميقٍ لأن أيام تصوير الفيلم قد انتهتْ، فقد كان التصوير السينمائي عالماً أكتشفه للمرة الأولى، كان مقامرةً مثيرة.

ركبنا السيارة، وانطلقنا على الطريق السريع الموازي للميناء باتجاه الجنوب. كنا نسير باتجاه حياتنا المعتادة الرتيبة، اشتقتُ إلى العودة إليها من ناحية، وحزنتُ من ناحيةٍ أخرى. قالت سارة: سوف نطعم القطط، ثم نخلد للنوم.

ـ وقد نشربُ قليلاً؟

ـ حسناً.

أحياناً، يمكنكَ التفاهم مع زوجتك.

٣٩

بعد أيام، ذهبنا إلى غرفة المونتاج. كان جون بينشو ومحرّرة الفيلم كاي برونستين منهمكَين في العمل. قال جون: سأريك بعض المشاهد غير المُمَنْتجة، لترى كم هي مبعثرةٌ بشكل عشوائي، وكم عملنا طويلاً حتى وضعنا كل مشهد في مكانه.

قالت كاي: نريد للفيلم أن يخرج في أجمل صورة، فقد أحببته حقاً.

ـ شكراً لكِ.

تابع جون: نحن نُدخِل الموسيقى التصويرية على المشاهد الآن، فريدمان وفيشمان في لندن، يعملان على صفقة جديدة. يتّصلان بنا حوالي خمس مرات في اليوم، ويصرخان: «أوقفوا المكساج! أوقفوا المكساج!»، فأتظاهر بأني لا أسمعُهما. لقد اخترنا موسيقى رائعة، لكنها ستكلّف مالاً لشراء حقوقها. فريدمان وفيشمان يريداننا أن نستخدم موسيقى مُسجَّلة، وهذه لا تكلّف شيئاً، لكنها مُريعة! وسوف تخربُ الفيلم بأكمله!

سألتُ جون: هل سبقَ لكَ أن أخرجتَ فيلماً في ظروف كهذه؟

ـ لا أبداً، لا أحد في العالم يشبه هذين الرجُلين، لكني أحبّهما.

ـ تحبّهما؟!

ـ نعم، فهُما مثل الأطفال، طيّبا القلب. حتى وهما يقتلعان حنجرتك، فإنهما يفعلان ذلك بحنان. أفضّلُ العمل معهما على العمل مع محاميي الشركة، والذين يديرون معظم الصفقات في هوليوود.

أطفأ جون أضواء الغرفة، وجلسنا لنتفرّج، كان العرضُ على جهاز صغير يشبه التلفاز. ظهرتْ شارةُ بداية الفيلم، رأيتُ اسمي على الشاشة، ها قد صرتُ جزءاً من هوليوود، وحتى لو كان لدقيقةٍ واحدة، فإني مذنب!

بدأنا بمشاهدة الفيلم، كان كل شيء على ما يرام، إلى أن وصلنا إلى المشهد الذي يلتقي فيه جاك مع فرانسين للمرة الأولى. كانا يجلسان في طرف البار، يشتري جاك كأسينِ لـ فرانسين، تشربهما بسرعة. ثم يكون جاك حاملاً زجاجة بيرة ممتلئة إلى نصفها، يرمي الزجاجة بيده اليمنى إلى خارج المشهد، ويقول: «هذا كل شيء»، فتردُّ فرانسين: «كلُّ ماذا؟». فيتابع جاك ويشرح لها أن نقوده قد نفدتْ، وأنه مفلسٌ، ولا يمكنه شراء أي مشروب آخر...

صرختُ: «لا! لا! يا إلهي! ما هذا؟!

أوقف جون الفيلم: ماذا هناك؟

ـ سوف يضحك السكّيرون على هذا الفيلم، ويطردوننا خارج المدينة.

ـ ما المشكلة؟

ـ الرجُل السكّير... لا يمكنه أبداً... أن يرمي زجاجة بيرة ممتلئة إلى

نصفها، ويقول: «هذا كل شيء». السكّير ينهي زجاجته حتى آخر نقطة فيها، ثم يقول: «هذا كل شيء».

قالت سارة: هانك محقّ، فقد لاحظتُ ذلك أيضاً.

قال جون: لقد صوَّرنا هذا المشهد خمس مرات، وقد اخترتُ التسجيل الأكثر إتقاناً.

- جون، أحسستُ أن أحداً يصفعني على وجهي، عندما رأيتُه يرمي زجاجة البيرة، إنه منظر مؤلم، شعرتُ بإهانة بالغة.

- أذكُر أنه من بين التسجيلات المصوّرة للمشهد ذاته، يوجد تسجيلٌ تكون فيه زجاجة البيرة على وشك النفاد، سأبحث عنه وأستخدمه.

- حتى الكمية القليلة من البيرة، تُعتبر كبيرةً في نظر السكّير. لكن استخدمه إذا وجدته.

هذه هي المصائب التي تواجهُك، عندما تعملُ مع مخرجٍ ليس مدمناً على الكحول، ومع ممثّل يكره الشُرب، وكلاهما يجتمعان في ذاتِ الفيلم. بالإضافة إلى كاتب سيناريو سكّير، يُفضّل الذهابَ إلى حلبة سباق الخيل، على متابعة تصوير الفيلم الذي كتبه.

أشعل جون ضوء الغرفة: ما رأيك؟ هذه نسخة أولية، وما زال أمامنا الكثير من العمل.

قالت سارة: حركة الكاميرا والموسيقى التصويرية رائعتان.

سألتُ: عزيزتي، ماذا عن الكاتب؟

- تشيناسكي مبدع دائماً.

- شكراً لك.

قالت كاي: كان الممثّلون والفنيّون يُشِيْدون بالسيناريو كثيراً، حتى عندما لا تكون حاضراً.

ـ حقاً؟!

قال جون: لكن هانك، ما رأيك في الفيلم؟

ـ أعجبني تمثيلُ جاك، لكن فرانسين تحتاجُ قليلاً من الزيت في مفاصلها.

ـ لقد كانت فرانسين جيدة جداً، وِقفتُها أمام الكاميرا تبثُّ الروح في جسد الفيلم.

ـ ربما، في كل حال، أنا سعيدٌ لكوني جزءاً من هذا الفيلم، وجزءاً من عودة فرانسين القوية.

ومن أجل الاحتفال بمشاعرنا المبتهجة، أقفلنا غرفة المونتاج، وذهبنا لتناول الطعام، ليس في «موسُو» هذه المرة، بل في مكان أقرب.

غريب جداً، كيف تسير الأمور في الحياة. تفكّرْ في يومك أولاً، ويوماً بعد يوم، تُنجزُ شيئاً ما.

منطقياً، أنا لم أكتبْ سيناريو سينمائيّ بعدُ. وسوف يقول لي أحدُ النقاد: «أنت لم تكتبْ سيناريو، فما زلتَ في جوّ كتاباتك البذيئة والمباشرة». لكنْ ما هو الفرق بين الناقد السينمائي، والمشاهد العادي للفيلم؟

الفرق: الناقد السينمائي يدخل إلى صالة السينما دون أن يدفع!

٤٠

عدتُ إلى حلبة سباق الخيل، في بعض الأحيان أتساءل ما الذي أفعله هنا؟ وفي مراتٍ أخرى أفهم ذلك. ففي حلبة سباق الخيل أرى مجموعة كبيرة من البشر في أسوأ حالاتهم، وهذا ما يبقيني قريباً من حقيقة الوجود البشري، وما يُضمرِهُ الإنسانُ من طمعٍ وجشعٍ وخوف وغضب.

هناك أنماط معينة من البشر، تراها في كل سباق، وفي أي مكانٍ كانَ السباق. وربما أبدو في عيون الآخرين كنمطٍ معيّن من الناس أيضاً. ولأني لا أحبّ أن أبدو مثل الآخرين، أفضّلُ التواري عن الأنظار، فلا أعقد اجتماعاً تشاورياً مع باقي المراهنين، ولا أناقش معهم أحوال السباق.

اعتدتُ ألاّ أُظهر أية رغبةٍ في التعارف أو الصداقة مع اللاعبين، فنحن في النهاية نلعبُ ضدّ بعضنا بعضاً. ولم تكن المراهنة على الأحصنة مضيعةً لوقت أحد، فإدارة الحلبة تأخذُ حصّتها، وإدارة الولاية تأخذ حصتها، ويوماً بعد يوم تزاد الرسوم المقتطَعة، هذا يعني أنه لا يبقى أمام المراهن سوى الفوز، وأنه بعد فترةٍ سيبلغ درجةً عالية من الثقة بمراهناته، وسيعتمد منهجاً مُحكَماً، ويمتلك رؤية منطقية.

لكن من ناحية أخرى، تبدو المراهنة على الأحصنة مرضاً سقيماً،

وتهرُّباً من الالتزامات اليومية، وبديلاً عن الأعمال التي تكون مُجْبراً على القيام بها. جميعنا بحاجة إلى الهرب، فساعاتُ النهار تمرّ ببطء ورتابة، وينبغي ملؤها بشيء ما... إلى أن نموت. نستيقظ صباحاً، نسحب قدمينا من تحت الغطاء، نضعهما على الأرض لننهض، ونفكّر: اللعنة! ماذا أفعل؟

ربما عدتُ إلى حلبة سباق الخيل، لأنسى كلّ ما يتعلّق بالفيلم والممثلين والفنيين وغرفة المونتاج. سباق الخيل يجعل حياتي بسيطة، أو بالأحرى: غبيّة!

في الليل، أشاهد التلفاز قليلاً مع سارة، ثم أصعد إلى غرفتي لأشرب وأعبث بكلمات القصائد. وحدها القصيدة تنقذ دماغي من التصدُّع، القصيدةُ أكثرُ ما أحتاجه في هذا العالم.

وهكذا عادت حياتي إلى روتينها المعتاد، لمدة أسبوعين أو ثلاثة، إلى أنّ رنّ هاتفي القديم الأصيل، وقال جون بينشو: انتهى العمل على الفيلم، سوف نقوم بمشاهدته في عرضٍ خاصّ في مبنى «فاير باور»، من دون حضور أيّ صحافيين أو نقاد، وآملُ أن تأتي لمشاهدته.

ـ بالتأكيد، متى؟

كان العرضُ ليلةَ الجمعة، ركبنا السيارة واتجهنا إلى مبنى «فاير باور». على الطريق تذكرتُ حدثاً قديماً، تذكرتُ جون بينشو عندما أخبرني مرةً، وقبل أنْ يجدَ منتجاً للفيلم بزمن طويل، أنه كان يذهب كلَّ ليلةٍ في جولة استطلاعيّة، يرتادُ فيها حانات المدينة، بحثاً عن الحانة الأنسب لتصوير الفيلم، وعن زبائن الحانات الأكثر جاذبيةً. يومها أعطى جون لنفسه اسماً مستعاراً «بوب»، وراح يسهر كلَّ ليلةٍ في حانة، حتى

صار مدمناً تقريباً. وأخبرني أنه في جميع الحانات التي زارها، لم يلتقِ بامرأةٍ يمكن أن يذهب معها إلى البيت. أحياناً كان يأخذ إجازةً من زيارة الحانات، ويأتي لزيارتي في البيت، ليعرض عليّ الصُوَر التي التقطها في الحانات، وأختار منها الأمكنة الأفضل. منذ ذاك الزمن، وقبل البدء بأي شيء، كان جون واثقاً بأن السيناريو سيصبح فيلماً ذات يوم.

وصلنا إلى مبنى «فاير باور»، قلتُ للحرس: غرفة عرض فيلم «رقصة جيم بيم»...

ـ تفضّلْ، اتّجه إلى اليمين.

دخلنا ورحنا نبحث عن غرفة العرض، لم تكن هناك أية إشارات تدلُّ على المكان، أحسستُ أننا وحيدون في المبنى، مع أننا وصلنا في الموعد المحدد. تابعنا المشي في الممرات، ثم لمحتُ شابّين نحيلين من نمط العاملين في صناعة الأفلام، يقفان عند باب نصف مفتوح. كلُّ الذين يعملون في هذه المهنة يشبهون بعضهم بعضاً، أعني: الفنيون والاستشاريون... إلخ، فجميعُهم بين السادسة والعشرين والثامنة والثلاثين من العمر، نحيلو الجسد، وتراهم دائماً يتحدّثون مع بعضهم بعضا في مواضيع هامة.

سألتُ: عفواً، هل هذه غرفة عرض «رقصة جيم بيم»؟

توقف الشابان عن الكلام، نظرا إلينا باستياء، وكأننا قد قطعنا حديثهما البالغ الأهمية. ثم نطق أحدهما: «لا».

لا أعرف ماذا سيحصل لهؤلاء الشباب عندما يبلغون التاسعة الثلاثين من العمر، وربما هذا هو الموضوع المهمّ الذي كانا يتحدّثان فيه.

تابعنا بحثنا عن غرفة العرض، ثم لمحتُ وجهاً مألوفاً لي، إنه جون بينشو يقف مع المنتج المساعد لانس إدواردز.

ـ جون، كرما لله، أين غرفة العرض؟

ـ لقد تمّ تغيير مكان العرض، اتصلتُ بك لأعلمك، لكن يبدو أنك قد خرجت من البيت...

ـ حسناً، أين صار العرض؟

ـ كنتُ أبحثُ عنك، اسمعْ، لانس إدواردز ذاهب إلى هناك الآن. هل تمانع أن يذهبا معكَ يا لانس؟

هزّ لانس برأسه وكأنه قد انزعج منّا، ظننتُ أني أنا مَنْ يُفترضُ به أنْ يكون منزعجاً لما حصل، لكنْ في هوليوود تنقلبُ الأمور أحياناً.

ركبنا في سيارة لانس، ومضينا معاً. يقولون إن لانس شخص خجول جداً، ولذا فهو قليل الكلام. لكني أراهُ شخصاً أنانياً فحسب، لا يهتمّ لشيءٍ سوى لنفسه. إحدى المراسلتين اللتين أجرتا مقابلاتٍ تلفزيونية معي، تحديداً السيدة الإيطالية، حكتْ لي قصة عنه:

«كنتُ أعمل عند ابن القحبة هذا! لم التقِ في حياتي بوغدٍ رخيصٍ مثله، إنه لا يدفع ثمن أيّ شيء! ولا يستخدمُ حتى قرطاسيّة مكتبه، بل يستخدم المغلّفات البريدية التي تصلُ إليه ذاتها. كان يطلب مني أن أمحو الأسماء والعناوين المكتوبة عليها، وأكتب الأسماء والعناوين الجديدة فوقها، فنستخدم المغلّفات ذاتها عندما نرسل بريداً. كما أنه ينزع الطوابع عن الرسائل الواردة، ويُعيد استخدامها في الرسائل الصادرة. ذات نهارٍ، وأنا أعملُ بجواره في المكتب، أحسستُ بيدٍ تلمسُ فخذي، سألتُه: «هل أضعتَ شيئاً؟»، فأجاب: «ماذا تقصدين؟»، أقصدُ: «هل أضعتَ شيئاً بين فخذيَّ؟ عمّ تبحثُ إذنْ؟! إذا لم تُضِعْ شيئاً... فاسحبْ يدكَ من بين فخذيّ!». وفي اليوم التالي، طردني من العمل، ولم يدفع لي تعويض نهاية الخدمة.»

ما زالتْ السيارة ذاهبةً في طريقها، يبدو الطريق طويلاً، سألتُ: لانس، هل ستوصلنا في طريق العودة أيضاً؟

هزّ برأسه وكأنه غاضب، بالتأكيد كان غاضباً، فالتوصيلة ستكلّفه حرقَ بعض البنزين.

وأخيراً وصلنا، صعدنا إلى غرفة العرض، كانت ممتلئةً بجميع الأفراد الذين عملوا في الفيلم. رأيتهم جالسين مسترخين، وكل واحد منهم يحمل علبة بيرة بيده. قلتُ بصوتٍ مرتفع: أولاد القحبة!

سأل جون: ماذا هناك؟

ـ كل هؤلاء يشربون البيرة! ونحن لا نملك شيئاً نشربه!

ـ حسناً، انتظرني.

ذهب جون لشراء البيرة، عزيزي جون المسكين.

كل هؤلاء الذين يشربون البيرة في غرفة العرض، والذين عملوا في صناعة الفيلم، يعاملوننا ـ أنا وسارة ـ وكأننا مواطنان من الدرجة الثانية. وما الذي تتوقّعه؟ عندما يقبضُ ممثّلُ دور البطولة أكثرَ من كاتب السيناريو بـ ٧٥٠ ضعفاً؟! والناس لا يتذكّرون أبداً من كتبَ الفيلم، فهم يتذكّرون من خرّبَ الفيلم، سواءٌ كان المخرج أو الممثلين أو أياً كان. في هذا المكان من العالم، أنا وسارة مجرّدُ مُشرّدَين يسكنان في بيت.

عاد جون حاملاً علب البيرة، أُطفئَتِ الأنوارُ وبدأ عرضُ الفيلم، «رقصة جيم بيم»، شربتُ جرعةً كبيرة من علبة البيرة على شرفِ كل السكّيرين في العالم.

عندما بدأتْ مشاهدُ الفيلم، عادتْ بي الذاكرةُ إلى الوراء، «فلاش باك» كما يحدثُ في الأفلام. تذكّرتُ يوماً من أيام الشباب، عندما كنتُ

أشربُ في الحانة صباحاً، في تلك الأيام لم أكن سعيداً ولا حزيناً، كنتُ منعدم الإحساس. يومها قال لي النادل: هل تعلم يا فتى؟

ـ ماذا؟

ـ سوف نركّب مضخّة غاز في الحانة، هنا قرب الكرسيّ الذي تجلس عليه ليلاً نهاراً، وسوف نغطّيها عن أعين الزبائن.

ـ مضخّة غاز؟!

ـ نعم، وعندما تستطيعُ شربَ كلَّ ما لدينا في الحانة، يمكنك نزعُ الغطاء عن المضخّة، واستنشاقُ بعض الغاز مجاناً.

ـ يا إلهي! كم أنتم لُطفاء!!

٤١

وهكذا إذن، كنا نشاهد الفيلم في غرفة العرض، وكنتُ أتلقّى اللكمات من نادل الحانة في الزقاق الخلفي، وكما وضّحتُ سابقاً، كانت يداي الصغيرتان تشكّلان نقطة ضعفٍ أثناء الملاكمة، بينما يمتلك نادل الحانة النموذجي يدين ضخمتين. ولكي تصبح الأمورُ أكثر سوءاً، كنتُ أجيدُ تصويبَ لكماتٍ لئيمةٍ بقبضتي الصغيرة، ما يجعلني أتلقّى عقوبةً مضاعفة. كانت المشاجرةُ مع نادل الحانة ضرباً من تقطيع الوقت، فليس من المعقول أن تجلس على كرسيّ البار ليلاً نهاراً، ولم نكنْ نشعر بألمٍ شديد أثناء الشجار، فالألم الحقيقي يبدأ في الصباح التالي، ويمكنك مداواته في حال استيقظتَ في غرفتك، لا في الشارع.

ومع مواظبتي على المشاجرات لمرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، تحسّنتْ مهاراتي القتالية، أو ربما ضعفتْ قوى النادل. لا داعيَ لأنْ أروي قصة الفيلم هنا، الأفضلُ أن أشير إلى أحداثٍ لم تظهرْ في الفيلم. في الفيلم تظهرُ سيدةٌ مهتّمة لأمري، فهي تحسبُني عبقرياً، وتريد إنقاذي من الشارع. في الفيلم أنامُ في بيتها ليلة واحدة، لكنْ في الحياة الواقعية نمتُ عندها مدّة ستة أسابيع.

كانت تلك السيدة، واسمها تولي، تعيشُ في منزل كبير يقع على مرتفعات هوليوود، وكانت تتقاسمُ المنزل مع سيدة أخرى تدعى نادين.

تولي ونادين كلتاهما تشغلان مناصب إدارية رفيعة في مؤسسات ترفيهية: موسيقى، منشورات...، وتعرفان كلَّ المشاهير، وتذهبان لمرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع إلى حفلاتٍ تخصُّ مجالهما. لم تعجبني حفلات تولي بتاتاً، ولذا كنتُ أمتّعُ نفسي بالشُرب، وباحتقار أكبر كمية ممكنة من البشر.

أما صديقتها نادين، فكانت تنام مع شاب أصغر مني بقليل، وهو موسيقيّ أو مخرج أو شيءٌ من هذا القبيل، وكان الشاب عاطلاً عن العمل لفترة مؤقتة. لم يعجبني الشابُ في البداية، فكنتُ دائماً أتهجّم عليه عندما أراه أمام المنزل أو في حديقته الخلفية، وغالباً ما يكون ذلك في الصباح عندما يعاني كلانا من صُداع مابعد الشُرب. كان الشاب يضع دائماً ذاك الوشاح على رقبته، الوشاح السخيف الذي يلّفه الفنانون عادةً.

ذات يوم، وفي حدود الحادية عشرة صباحاً، كان كلٌّ منا يشربُ زجاجة بيرة في ساحة المنزل، في محاولة لعلاج الصداع الذي سبّبه الشُرب قبل ليلة. كان اسمه ريتش، نظر إليّ وقال: هل تريد زجاجة أخرى؟

- أكيد، شكراً.

أعطاني ريتش زجاجةً، ثم رشف من زجاجته بعمق، تنهّد بألم، وقال: لا أعرف إلى متى... سأستمرُّ بالكذب عليها...

- ماذا؟

- أنا لا أملكُ أية موهبة، ولا في أي مجال. أنا إنسان فارغ كلّياً.

- جميل، أنت إنسان جميل حقاً، لقد أعجبتني الآن.

- شكراً، وماذا عنك؟

- أنا أكتب. لكن المشكلة ليست هنا.

ـ ما المشكلة إذن؟

ـ قضيبي... لقد انسلخَ جلدُه من كثرة الممارسة، فهذه المرأةُ لا تشبعُ أبداً...

ـ وأنا أيضاً، تجبرُني نادين على أكلها عضواً فعضواً كلَّ ليلة.

ـ يا إلهي!

ـ هانك، نحن رجُلان محافظان مهذّبان.

ـ ريتش، تانك السيدتان المتحرّرتان تقتلعان خُصَانا، وتخبّئانها في حقيبة اليد.

ـ أعتقد أنه... حان وقت الفودكا.

ـ هذا صحيح.

وفي ذاك المساء، عندما عادت السيدتان إلى المنزل، لم يقمْ أيٌّ منا بواجبه الذكوري. بقيَ ريتش لمدة أسبوع في المنزل، ثم رحل. بعد ذلك، صرتُ ألاحق نادين عندما تركضُ عاريةً حول المنزل، وغالباً عندما تكون تولي خارجة إلى مكان ما. سألتُ نادين: ماذا تفعلين بحقّ الجحيم؟

ـ هذا منزلي، وعندما أركضُ حوله عاريةً، وأهزُّ أردافي في الهواء الطلق، فهذا شأني لوحدي.

ـ هيّا نادين، قولي الحقيقة، هل تبحثين عن ديك جديد؟

ـ لا، حتى ولو كنتَ آخر رجلٍ على وجه الأرض.

ـ لو كنتُ آخرَ رجلٍ على وجه الأرض، لكان عليكِ أن تنتظري دوركِ في طابورٍ طويل.

ـ من حُسن حظِّك أني لا أخبرُ تولي عنك.

ـ إذنْ توقفي عن الركض حولي، بهذا الشيء المتدلّي بين فخذيك.

ـ يا خنزير!

دخلتْ إلى المنزل وهي ترجُّ أردافها البدينة، أغلقتِ الباب خلفها وصعدت إلى الأعلى. لم أتبعها، لأنها تُثمّنُ بضاعتها بأكثرَ من سعرها الحقيقي. وفي الليلة ذاتها، حين عادتْ تولي، حزمتْ حقائبها وغادرتْ إلى كاتالينا لمدة أسبوع، إذ يبدو أن نادين قد أخبرتها. هذه الأشياء كلُّها لم تظهر في الفيلم، فلا يمكنك وضعُ كل شيء في الفيلم.

وبالعودة إلى غرفة العرض، انتهى الفيلم وصفّق الجميع. ثم قاموا يصافحون بعضهم بعضاً، ويتبادلون العناق والقبلات، فنحن جميعاً نحبُّ بعضنا هذه الليلة، رائع!

جاء هاري فريدمان إليّ، صافحني وعانقني، فقلتُ: هاري، صار لديك كاتب ناجح الآن.

ـ نعم نعم، كاتب سيناريو رائع، سمعتُ أنكَ قد كتبتَ روايةً عن العاهرات؟!

ـ صحيح.

ـ أريدك أن تحوّلها إلى سيناريو، وسوف أقوم بإنتاج الفيلم.

ـ بالتأكيد يا هاري، طبعاً.

ثمّ لمحَ فرانسين باورز، فركضَ نحوها وعانقها: فرانسين! يا عسل! أنتِ عظيمة!

راح الناس يغادرون الغرفة تباعاً، فخرجنا أنا وسارة أيضاً. كان لانس

إدواردز قد هرب بسيارته، وهكذا صار علينا المشيُ على أقدامنا عائدين إلى المكان الذي تركنا فيه السيارة. لا بأس بذلك، إذ كان الجوّ لطيفاً والسماء صافية.

وهكذا انتهى العمل على الفيلم، وسوف يُعرض في صالات السينما قريباً، وسيقول النقّاد رأيهم فيه. أعرف أنّ عدداً كبيراً من الأفلام قد صُنعتْ وعُرضتْ سابقاً، حتى ما عاد المشاهدون يعرفون ما هو الفيلم، وربما وقع النقادُ في الورطة ذاتها.

أثناء عودتنا في السيارة إلى البيت، قالت سارة: أعجبني الفيلم، لكنّ بعض المقاطع...

ـ أعرف أنه ليس فيلماً خالداً، لكنه جيد.

ـ نعم، هو كذلك.

ـ اشتقتُ إلى القطط.

ـ وأنا كذلك.

ـ هل ستكتب سيناريو آخر؟

ـ لا أتمنّى.

ـ هاري فريدمان يريدنا أن نذهب إلى مهرجان «كان».

ـ ماذا؟ ونترك القطط وحدها؟

ـ قال إنه يمكننا أخذُ القطط معنا.

ـ لا يمكن!

ـ هكذا أجبته.

٤٢

مهرجان «كان» السينمائي، كان فيلماً آخر بالنسبة إليّ. اتصلَ جون بينشو من هناك: لا نتوقّع أن نفوز، لكننا نأملُ أنْ نقترب من الفوز.

- أعتقد أن جاك بليدسو قد يفوز بجائزة أفضل ممثل.

- ثمة إشاعات تقولُ إن الفرنسيين سوف يُعطون السُعفة الذهبية لواحدٍ منهم.

أثناء ذلك، كان قسم الدعاية والإعلان في شركة «فاير باور»، يُرسل إليّ العديد من مراسلي المجلات الفنيّة، لإجراء مقابلاتٍ معي. ولأنني كسرتُ زجاجَ الكاتدرائية ذات مرةٍ في صباي، تظنُّ المجلاتُ بأني شخصٌ يمكن استدراجُه بالكلام، شخصٌ سكّير يتفوّه بالحماقات، شخصٌ يمكن دفعه لقول أشياء غبيةٍ يُمكن استغلالها إعلامياً. ولقد استطاعوا فعلَ ذلك لمرّة واحدة، عندما أعطيتُ رأياً سلبياً في ممثلٍ أحبُّه حقاً كشخص وكممثل. كان رأياً جزئياً يخصُّ جانباً واحداً من جوانب شخصيّة ذاك الممثل، لكنْ وكما قالتْ لي زوجتُه عبر الهاتف: «قد يكون كلامكَ صحيحاً، لكنْ لا ينبغي عليك قول ذلك». كانت على صواب، ومن ناحية أخرى ليست على صواب، فنحن أحرارٌ بأنْ نتكلّم بكامل الحرية، خاصةً عندما يوجَّه إلينا سؤالٌ مباشر. لكنّ الناس قد اعتادوا على المجاملة واللباقة، وهذه مصيبة المجاملة واللباقة.

تعرّضتُ لانتقاداتٍ وهجماتٍ متواصلةٍ على مرّ السنوات، واعتبرتُ ذلك دافعاً مُحرّضاً على الاستمرار، لأني لم أعتبر النقّاد يوماً سوى مجموعةٍ من الحمقى. وإذا استمرّت الحياةُ على هذا الكوكب حتى القرن القادم، فإني سأبقى حاضراً فيها. أما النقاد فسوف يكونون في عِداد الموتى والمنسيّين، وسيتمّ استبدالُهم بنقّادٍ جُدُد، حمقى جدد.

وهكذا، حزنتُ لأني جرحتُ ذاك الممثل، وربما يكون الممثلون أكثرَ حساسية من الكتّاب، لا أدري. ثم توقفتُ عن إجراء أيّة مقابلاتٍ صحافيّة مع أحد، إذ صرتُ أطلبُ ممّن يريدُ إجراءَ حوار معي، مبلغَ ألف دولار على الساعة، وفجأةً يزولُ اهتمامه بي وبالفيلم.

اتصل جون بينشو من مهرجان «كان» للمرة الثانية: لدينا مشاكل...

ـ مثل ماذا؟

ـ جاك بليدسو يرفض الخروج من غرفة الفندق لإجراء مقابلات مع الصحافيين.

ـ يمكنني تفهُّم ذلك.

ـ لا، انتظرْ... إنه يرفض التحدّث إلى كلّ وسيلة إعلامية، لم تُعطِ لفيلمه الأخير تقييماً جيداً، والمشكلة أنه لم يحصلْ إلاّ على القليل من التقييمات الجيّدة. المراسلون ينتظرون في بهو الفندق، وجاك يقول: «لا، لا مقابلات، أنتمْ لا تفهمونني». رفع أحدُ الأشخاص يده وقال: «جاك، أنا أعطيتُ لفيلمك الأخير تقييماً جيداً»، ردَّ جاك: «حسناً إذن، سأجري حواراً معك». وهكذا اتفقا على إجراء اللقاء في مقهى معيّن، وفي ساعةٍ محددة، لكن المشكلة الوحيدة هي أنّ جاك لم يذهبْ إلى الموعد.

ـ جون، أعتقد أن الممثلين أكثر حساسيةً من الكتّاب والمخرجين.

ـ حساسيّة؟! سَمِّها ما شئت...

ـ كيف حال فرانسين؟

ـ جيدة، تتحدث مع الجميع دون مشكلة. ترتدي فساتينها الصيفية، وتُشيدُ بنا جميعاً، فهي تعرف أن الفيلم يُشكّلُ عودةً قوية لها. وهي تحسبُ أنها الأخيرةُ من الجيل الأخير للمثلين الكبار... تتمشّى في المهرجان وكأنها إلهة، يا لهُ من عرضٍ مَهيب.

ـ وكيف هو فريدمان؟

ـ رائع! تراه في كل مكان، يتكلّم ويتصبّب عرقاً ويلوّح بيده. إنه مكروهٌ من قبل جميع المتنفّذين هنا، لكنهم ـ في الوقت ذاته ـ يخافون من قوته وعناده. فريدمان يقضُّ مضاجعهم فعلاً، تراهم يتحدّثون عنه دوماً، ويتمنّون تقطيعَ مؤخرته إرباً إرباً.

ـ يحلمون. وماذا أيضاً؟

ـ جاك، جاك فحسب، بعد عناءٍ طويل استطعنا إقناعه بالخروج من غرفة الفندق، وإجراء لقاء ضمن برنامج تلفزيوني ذائع الصيت في فرنسا. وافق في البداية، لكنه لم يذهب إلى الموعد.

ـ إذن، لماذا ذهبَ إلى مهرجان «كان» بالأساس؟!

ـ لعنة الله عليَّ إذا كنتُ أعرف.

مضى الوقتُ كما ينبغي على الوقتِ أن يمضي، ما زلتُ أذهبُ إلى حلبة السباق، كما أني أعيدُ قراءة أعمال جيمس ثيربر(*). في قصصه

(*) جيمس ثيربر: (١٨٩٤ ـ ١٩٦١): كاتب أمريكي ساخر، من قصصه المعروفة: «الحياة السرّية لـ والتر ميتي». (م)

الناجحة، أراهُ مضحكاً جداً، لكنْ من المُعيب أنه ينظرُ دائماً من منظور الطبقة الوسطى الميسورة. وكذلك كتبتُ حفنةً من القصائد، للشِعر قيمةٌ حقيقية، صدّقْني، فهو ينقذُني من الجنون جنوناً مُطْبقاً.

وبعد ذلك، لم يفز الفيلمُ بأية جائزة في مهرجان «كان»، لكنّ سارة ما زالتْ تزرعُ الأزهارَ الفوّاحة في حديقة بيتنا، وما زالت قططُنا الخمسُ تحدّقُ فينا عبْر عيونها العشْر الجميلة.

٤٣

بعد مهرجان «كان»، أُعيد العملُ على مونتاج الفيلم مجدّداً، وبذل جون بينشو جهوداً كبيرة في غرفة المونتاج.

أظهرُ أنا في إحدى مشاهد الفيلم كواحدٍ من روّاد الحانة، كانت اللقطةُ التي أظهر فيها طويلةً في البداية، ثمّ اقتطعوا معظمها أثناء المونتاج. فعندما كنتُ جالساً على كرسيّ البار، وبجواري روّادُ الحانة الحقيقيون، رشفتُ كميةً كبيرة من زجاجة البيرة، ملأتُ فمي بالبيرة، ثم سكبتُها في عنقِ الزجاجةً مجدداً، دون أنْ أُسقطَ قطرةً واحدةً خارجها. كانت لعبةً قديمةً تدرّبتُ عليها أيام الشباب، لكنها حُذفتْ من الفيلم. سألتُ جون: لماذا لا تُعيدُ هذه اللقطة إلى الفيلم؟

ـ لا أستطيع، لأن الجميع سوف يسألون: من هذا الرجل المجنون؟!

عندما تكون ممثلَ كومبارس، لا يحقُّ لك الارتجال.على كل حال، وصلَ الفيلم إلى مرحلةٍ لا يمكن فيها أنْ يضاف إليه أي شيء، وتمَّ تحديدُ موعد إطلاقه في صالات السينما. قبل أسبوع من الموعد، جاء جون لزيارتنا.

ـ هل ستكتب سيناريو آخر؟ أنا جاهز متى تريد.

ـ لا يا جون، أنا أخاف من هوليوود، هذه هي الحقيقة، أو آملُ أن تكون هي الحقيقة.

ـ إذن، ما الذي سوف تفعله الآن؟

ـ ربما سأكتب رواية.

ـ عن ماذا؟

ـ لا يجوز الحديثُ عن الرواية مسبّقاً.

ـ لِمَ لا؟

ـ لأنّ الحديث عنها بمثابة إفراغ العجلة من الهواء المُحتجَز فيها.

قالت سارة: هانك يتفحّصُ ضغطَ العجلات دوماً، ويحملُ معه جهاز القياس أينما ذهب.

ـ سارة على حقّ. اسمعني يا جون، هل سيكون هناك حفلُ افتتاحٍ للفيلم؟

ـ حفل افتتاح؟! لماذا؟ لا...

قالت سارة: لا يوجد حفل افتتاح؟ هذا هُراء!

ـ جون، أريد أن يكون للفيلم حفلُ افتتاح!

ـ أنتَ تطلبُ حفلَ افتتاح يا هانك؟! أكادُ لا أصدّق! لماذا؟!

ـ لماذا؟! من أجل السخرية والتفاهة. أريدُ سيارة ليموزين بيضاء طويلة مع سائق، فيها مخزونٌ جيّد من النبيذ الراقي، وتلفازٌ ملوّن وهاتفُ سيّارة، وأيضاً سيجارٌ فاخر...

قالت سارة: هذا هو الكلام السليم!

قال جون: سأرى ما يمكنني فعله.

ـ أخبِرْ فريدمان أن حفلَ الافتتاح بغرض الترويج للفيلم، وأنه سينعكسُ إيجابياً على العائدات.

ـ سأعمل على ذلك.

ـ وأيضاً يا جون، لا تنسَ سيارة الليموزين البيضاء الطويلة.

بطريقة ما، استطاع جون تنظيم حفل افتتاح للفيلم. كانت سارة في غرفة النوم تحضّر نفسها، عندما وصلتْ سيارة الليموزين البيضاء الطويلة، واصطفّتْ في الساحة الأمامية للبيت. رآها أولادُ الجيرانِ فراحوا يتجمّعون حولها، صاح أحدهم: هانك، هل أنت مشهور؟!

ـ مشهور؟ نعم... نعم...

ـ هانك، هل يمكننا الذهابُ معك؟

ـ لن يعجبكم المشوار.

ـ بلى، سيعجبنا.

أطفأ السائق محرّك الليموزين، وترجّل منها، صافحني وقال:

ـ أنا فرانك.

ـ أنا هانك.

ـ أنت الكاتب؟

ـ نعم، هل قرأتَ أياً من كتبي؟

ـ لا، لم أقرأ لكَ في حياتي.

ـ وأنا أيضاً، لم أرَكَ تقودُ سيارةً في حياتي.

ـ بلى، رأيتني قبل قليل.

ـ اسمعْ، زوجتي ما زالت تحضّر نفسها، لن تتأخّر.

ـ وماذا تكتبُ يا سيدي؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصدُ ما قلتَه للتوّ، ماذا تكتب؟

(بدأ مزاجي يتعكّر بسبب هذا الرجل، فأنا لستُ معتاداً على التعامل مع السائقين).

ـ حسناً، أكتب قصائد وقصصاً قصيرة وروايات.

ـ وكتبتَ سيناريو أيضاً؟

ـ صحيح.

ـ عمّ تكتب؟

ـ عن ماذا؟!

ـ نعم، عن ماذا؟!

ـ ممم... أكتب عن الحياة، هل تفهمني؟ نعم الحياة.

مدَّ واحدٌ من أولاد الجيران رأسه من أعلى السور، وصاح: أمي تقول إنه يكتب أشياء بذيئة!

نظر سائق الليموزين إليّ: أرجوك، أخبرْ زوجتك أن الطريق طويل، ولا نريد أن نتأخر.

دخلتُ إلى البيت وناديتُ سارة: سارة، وصلت الليموزين... أسرعي...

ـ لقد وصلتْ باكراً.

ـ أعرف، لكننا في ليلة الجمعة، والطريق طويل.

ـ سأنزل بعد دقيقة، لا تقلقْ، سوف نلحق.

فتحتُ علبة بيرة وأشعلتُ التلفاز، كانت هناك مباراة ملاكمة على القناة الرياضية، حاميةُ اللكمات والإثارة. الملاكمون اليوم أكثر تكيُّفاً مع الحالة مما كانوا عليه سابقاً، تدهشني الطاقة التي يبذلونها أثناء المباراة، ورغم ذلك يتابعون اللعبَ واللكم. ربما كان لأشهُر التدريب في صالات بناء الأجسام، والركض على مضمار الملعب، الأثرُ في جعلهم يتحمّلون ما لا يمكن تحمّله. أما قبل المباراة بيومين أو بثلاثة أيام، فتكون الحالة النفسية مفتاح النجاح. الموهبة والجرأة مهمّتان حتماً، لكنهما لا تكفيان إذا لم ترافقهما حالةٌ نفسية مهيّأة.

أحبّ مشاهدة مباريات الملاكمة، لأنها تذكّرني بالكتابة، فمن أجل الكتابة تحتاجُ إلى الأمور ذاتها: الموهبة والجرأة والحالة النفسية، والحالة النفسيةُ تناغمٌ غريبٌ بين العقل والروح. أنتَ لا تولد كاتباً، أن تصبح كاتباً في كل مرة تجلس فيها أمام الآلة الكاتبة، وما إنْ تجلس على الكرسيّ منحنياً على الآلة الكاتبة، حتى تغدو الأمور أكثر يُسراً. ما يكون صعباً أحياناً، هو إيجاد الكرسي والجلوس عليه، ففي بعض الحالات لا تستطيع الجلوس. ومثلُكَ مثلُ أيّ شخصٍ على هذه الأرض، دائماً ثمة أمورٌ تعترض طريقك: مشكلات صغيرة، مشكلات كبيرة، ضربات متتابعة، ضربة قوية مفاجئة. وعليك أن تكون في حالةٍ تستطيع فيها تحمُّلَ كلّ الضربات التي تحاولُ قتلك، هذه هي الرسالة التي وصلتْني من مباريات الملاكمة، ومن سباق الخيل. أقول إني أكتبُ عن الحياة، لكنّ ما يذهلُني هو الشجاعة الجبّارة التي يُبديها بعضُ الناس في حياتهم، وهي التي تبقيهم أحياء.

نزلتْ سارة أخيراً، بعد أنْ وصلتْ أناقتُها إلى أعلى درجاتها. أطفأتُ

التلفاز وخرجنا إلى الليموزين، صار أولادُ الجيران ينادونها: سارة! سارة! سارة! خُذينا معكِ يا سارة!

ـ خُذوا الإذنَ من أمهاتكم أولاً.

الأمهات؟ لماذا لا يأخذون الإذنَ من آبائهم؟!... سارت الليموزين ببطء، بينما ركض الأولاد خلفها. يا إلهي! سوف أموتُ قريباً، وربما يتعلَّم نصفُ هؤلاء الأولاد الكتابة، ويوماً ما سوف يكتبون عني أشياء مريعة.

سحبتُ زجاجة نبيذ، وسكبتُ كأسَيْ نبيذ لنا، قلتُ لسارة وأنا أقرع كأسي بكأسها: أرى كُحلاً في إحدى عينيكِ!

ـ أرى كُحلاً في كلتا عينيكَ!

أشعلتُ تلفاز الليموزين، لم أجد القناة الرياضية فيه، فأطفأته. نظرتْ سارة إليّ: هل تخيّلتَ يوماً... أنكَ ستذهب في سيارة ليموزين... لحضور حفل افتتاح فيلمٍ أنتَ كتبته؟

ـ لا، فأنا ما زلتُ سعيداً لأني ما عدتُ أنامُ على مقعد الحديقة.

ـ أحبُّ الليموزين، أحبُّ الطريقة التي تسير بها.

ـ إنها تطير، تطير بنا نحو السماء. دعيني أسكبْ لكِ كأساً آخر...

ـ نبيذ فاخر!

ـ فعلاً.

عبرنا الطريق السريع الموازي للميناء باتجاه الشمال، ثم دخلنا في شارع سان دييغو، أكره هذا الشارع فهو دائماً مزدحم. مطرٌ خفيفٌ بدأ يتساقطُ زخةً زخّة، قلتُ: هكذا إذن، سوف تمطر، وكل السيارات

سوف تتوقف. سائقو كاليفورنيا لا يجيدون القيادة تحت المطر، فهم إما يسرعون زيادةً عن اللزوم، أو يبطئون زيادةً، لكن غالبيّتهم يبطئون.

ـ سوف نتأخر.

ـ على الأغلب.

وهذا ما حدث فعلاً، دبَّ الذّعر في قلوب سائقي السيارات. فتراهُم يُقرّبون رؤوسهم من الزجاج الأمامي، ويحدّقون من بين ماسحات الزجاج، بعيونٍ منكمشةٍ طلعتْ منها أرواحُهم. على هؤلاء الخرقى أن يفرحوا لأنّ سياراتهم مزوّدة بماسحات، فلو كان عندك سيارة قديمة كالتي كانت عندي، ستعرف حينها ما تعنيه صعوبة القيادة. تصوّرْ أنني في الأيام الممطرة، كنتُ أحمل معي بطاطا نيّئة مقطّعة إلى شرائح، أوقفُ السيارة جانباً، وأنزل لأمسح الزجاج الأمامي بشرائح البطاطا، ثم أصعد وأتابع السير.

لكنّ هؤلاء السائقين المهابيل، يتصرّفون وكأنهم على فراش الموت. يمكنكَ أن تشاهد حالة الرعب التي تعتريهم مع كل قطرة مطر تسقط، رعبٌ غبيّ... رعب سخيف... رعب دون جدوى. إذا كان عليكَ أن تُخرجَ ما في داخلك من رعب، أخرجْهُ أمام حدثٍ يستحقّ الرعب.

مع ذلك، يجبُ أن أُعطي سائق الليموزين حقه، فهو محترف حقاً، يعرف أيَّ خطّ من السيارات سوف يتوقف، وأيَّ خط سوف يسير، فينزلقُ بالسيارة خلف الأخير. ولهذا قد أسامحه على خطيئة عدم قراءة كتبي، فأنا أحبّ الأشخاص المحترفين البارعين في أداء عملهم، وهم قلّةٌ في كل المجالات. قلتُ له:

ـ أعتقد أننا سنصل في الموعد المحدد.

ـ يجب علينا ذلك.

ـ من هو الكاتب المفضّل لديك؟

ـ شكسبير.

ـ في حال وصلنا عند الموعد، سوف أسامحك.

ـ في حال وصلنا عند الموعد، سوف أسامح نفسي.

لا أستطيع الدخول في محادثة مع هذا الشخص، فهو يضع حاجزاً أمامي في كل مرة.

ها قد وصلنا، فتح السائقُ باب الليموزين ونزلنا منها، كنا أمام مجمَّع تجاريّ كبير، ومن المفترض أن تكون صالة السينما ضمن هذا المجمّع.

ـ شكراً فرانك.

ـ على الرحب والسعة. سأذهب لأركن السيارة في المرآب، وسوف أجدكما عندما تخرجان.

ـ كيف ستجدنا؟

ـ سوف أجدكما.

نظرتُ إلى الأمام، فرأيتُ أربعة أو خمسة رجالٍ يحملون المظلات، وينتظرون قدومنا. فقد كنّا في القسم المكشوف من المجمَّع التجاري، والمطرُ ينهالُ علينا. ركضَ الرجالُ مع مظلّاتهم باتجاهنا، وهم يبذلُون قُصارى جهدهم لكيلا نتبلّل بالمطر.

ضحكتُ: هذه سخافة!

ضحكتْ سارة: أحبُّ السخافة!

سرنا مع الرجال ذوي المظلّات، ثم دخلنا إلى المجمّع التجاري. كانت كاميراتُ الصحافيين وأضواءُ الفلاشات بانتظارنا عند الدخول، وكنتُ أدخلُ عصراً جديداً، تاركاً مقعدَ الحديقة الذي كنتُ أنامُ عليه خلفي.

٤٤

قلتُ لأحد الرجال ذوي المظلات: اللعنة! لقد نسينا زجاجة النبيذ في السيارة، وسوف تلزمنا زجاجتان أثناء مشاهدة الفيلم.

ـ سوف أجلب لك زجاجتين سيد تشيناسكي.

ـ ولا تنسَ فتّاحة النبيذ.

ذهب الرجل ليحضر النبيذ. ثم رأيتُ فرانسين باورز، كانت واقفةً مثل تمثال رخامي، تنظرُ مرة إلى اليمين، وبعد دقيقة إلى اليسار، والفخامةُ تشعُّ من جسدها وثيابها، فهي آخرُ النجمات الكبار حقاً. تابعنا سيرنا إلى الداخل، رأيتُ كاميرا تلفزيونيةِ، وتلك المذيعة التي تستضيفُ المشاهير على القناة الترفيهية، حيّتْني: «سيّد تشيناسكي»، انحنيتُ أمامها: «أهلاً عزيزتي». وقبلَ أن تطرح عليّ أي سؤال، قلتُ لها: أنا قلقٌ جداً، نسيتُ زجاجة النبيذ في الليموزين، وعلى الأغلب فإن السائق يشربها الآن، أحتاجُ مزيداً من النبيذ.

ـ باعتباركَ كاتب السيناريو، هل أنتَ راضٍ عن الطريقة التي أُخرجَ بها الفيلم؟

ـ تعاملَ المخرجُ مع ممثلَين صعبَين جداً، أعني ممثلَي دور البطولة، ولقد تجاوز كل الصعوبات. استخدمنا روّادَ الحانة الحقيقيين في

الفيلم، ولا أحدَ منهم مدعوٌّ إلى حفل الافتتاح هذه الليلة. كانت حركة الكاميرا ممتازة، والسيناريو جيّد أيضاً.

ـ هل هذه قصة حياتك؟

ـ إنها عدة أيام، تمثّلُ عشرَ سنواتٍ من حياتي.

ـ شكراً سيد تشيناسكي لحديثك معنا.

ـ عفواً.

وبعدها جاء جون بينشو: «مرحباً هانك، مرحباً سارة، اتبعاني». تبعناه إلى حيث يحتشد مجموعة من الأشخاص، حاملين مسجّلات كاسيت، راحوا يطرحون عليّ الأسئلة:

ـ هل تعتبرُ السُكْرَ شعوراً عظيماً؟

ـ أعظمَ من أيِّ شيءٍ آخر.

ـ أليسَ الشُرْبُ وباءَ؟

ـ التنفُّس هو الوباء.

ـ ألا ترى أنّ السكّيرينَ أناسٌ شنيعون؟

ـ نعم، معظمُهم شنيعون، وكذلك معظم الممتنعين عن الشُرب.

ـ لكنْ، من سوف يهتمُّ بفيلمٍ عن حياة سكّير؟

ـ سكّيرٌ آخر.

ـ هل ترى أن المشروبات الثقيلة، ينبغي أن تكون مقبولة اجتماعياً؟

ـ في «بفرلي هيلز» نعم، في أحياء الفقراء لا.

ـ هل انتهتْ هوليوود؟

ـ لا أظنّ ذلك.

ـ لماذا كتبتَ هذا الفيلم؟

ـ عندما أكتب، لا أفكّر لماذا.

ـ من هو الممثّل المفضّل لديك؟

ـ ليس لديّ.

ـ الممثلة المفضلة؟

ـ نفس الجواب.

نقرني جون بينشو بكوعه: «الأفضل أن نذهب، أوشك الفيلم أن يبدأ». مشينا باتجاه صالة السينما، ثم سمعتُ صوتاً خلفي: «انتظرْ»! كان الرجُلُ الذي أرسلتُه ليشتري النبيذ، عاد راكضاً وهو يحمل كيساً ورقياً، ثم وضعه بين يديّ. قلتُ له: أنت واحدٌ من أروع الرجال في العالم!

سألني جون: من هذا؟ هل يعمل عند «فاير باور»؟

ـ لا أدري.

دخلنا قاعة السينما المعتمة، كان عرض الفيلم قد بدأ منذ دقائق.

ـ اللعنة! ألا يستطيعون انتظارنا قليلاً؟ نحن الكتّاب!

ـ اتبعاني، حجزتُ لكما مقعدين.

تبعنا جون في الممشى المعتم، ثم جلسنا على مقعدَين مجاورَين للممشى. كانت هناك فتاتان تجلسان على مقعدين في الطرف الثاني من الممشى، قالتْ إحداهما للأخرى: «لا أعرف ما الذي نفعله هنا؟ أكرهُ هنري تشيناسكي جداً، إنه كائنٌ بشريّ مقرف!». مددتُ يدي داخل الكيس الورقي، متلمّساً زجاجة النبيذ والفتّاحة. بينما تابعت الفتاة:

«هنري تيشناسكي يكره النساء، ويكره الأطفال، إنه عجوز شرير متوحّش! لا أعرف ما يعجب الناس فيه».

سطع ضوء من شاشة السينما، فرأتني الفتاة الثانية، لكزتْ صديقتها بكوعها على خصرها: «هُسْ! أعتقد أنه جالس هنا». سكبتُ كأسي نبيذ، رفعناهما إلى الأعلى، قالت سارة: سأقوم وأضرب هاتين العاهرتين!

- لا، أعدائي أهمُّ مصدرِ دخلٍ لي! يكرهونني كثيراً، ومع الزمن تتحوّل الكراهية - في اللاوعي - إلى حالة حبّ.

كنا جالسَين في مكانٍ لا يسمحُ لنا بمشاهدة الفيلم، فجميعُ مَن يجلسون أمامنا طِوال القامة، رؤوسهم كبيرة وغريبة الشكل، ممسوخة الشكل، ذاتُ جباهٍ عريضةٍ مستطيلة. كما كان صوتُ الفيلم صاخباً ومشوَّشاً، فتسمعُ الحوار هكذا: «هووو... ووو... وولد... وافت... تااا... توو... يووو...». كنتُ في حفل افتتاح الفيلم الوحيد الذي كتبتُه في حياتي، ولم أفهمْ كلمةً واحدةً منه.

قالت سارة: لم ينظّمْ جون حفل الافتتاح بشكلٍ جيّد.

- سوف نشاهد الفيلم على الفيديو يوماً ما.

- نعم.

كانت الرؤوسُ الكبيرة الحجم، الممسوخةُ الشكل، ذاتُ الجباه العريضة المستطيلة، تتحرّكُ في أسفل الشاشة. أما على شاشة العرض، فثمّة وجهان كبيران، يتبادلان الحوارَ بصوتٍ عالٍ مشوَّه، هكذا:

- فال... فال... يول يووو... تاا... تاام... ياا.. براا... سو...؟

- يا دواا... يا... تا... يا فووو... دووو...!

لكنّ الأجمل، هو عندما تقوم الرؤوس الكبيرة الحجم، برفع الكؤوس الطويلة العملاقة لتشرب، فتُغطّي الكؤوسُ نصفَ الشاشة. ثم ينسكبُ منها الشرابُ ويذهبُ إلى مكان ما، يقعُ تحت الجباه العريضة المستطيلة. ثم ينتهي الشرابُ، فيتغيّرُ شكلُ الكؤوس الطويلة العملاقة. وبعدها تُملأُ من جديد، وهكذا تتمدّدُ وتتقلّصُ مثل أشباحٍ سوداء. يا لَها من كؤوسٍ عملاقة مُستوردةٍ من العالم السفلي! أيُّ نوعٍ من الصُداع سيُصيب هذي الجباه العريضة المستطيلة صباح الغد؟!

بعد قليل، توقفنا أنا وسارة عن متابعة الفيلم، وانشغلنا بشرب النبيذ اللذيذ إلى أن انتهى الفيلم.

صفّق بعضُ المشاهدين، ثم شرعوا بالخروج من القاعة، فتبعناهم أنا وسارة. خارجَ القاعةِ كان هناك مزيدٌ من الكاميرات والفلاشات بانتظارنا، حاولتُ تجنُّب الصحافيين قدر الإمكان.

بعد كلّ النبيذ الذي شربناه، حان وقتُ قضاء الحاجة، قلتُ لسارة: أراكِ عند الزريعة المقابلة لحمّامات النساء.

دخلتُ إلى حمّام الرجال، وقفتُ أمامَ المَبْولة، كان بجواري رجُلٌ سكرانُ مترنّح، نظرَ إليّ: أنتَ هنري تشيناسكي؟ أليس كذلك؟!

ـ لا، أنا أخوه، دوني

(استمرَّ السكرانُ بالترنّح، وسكْب البول داخل المبولة وخارجها).

ـ لم يكتبْ تشيناسكي في أيّ من كتبه، أن لديه أخاً.

ـ ذلك لأنه يكرهني.

ـ لماذا؟

ـ لأني ركلتُ مؤخرته بين الستين والسبعين مرةً.

تابع السكران تفكيره في الموضوع، وهو يترنّح ويتبوّل في آنٍ معاً.
خرجتُ وانتظرتُ سارة عند الزريعة، فجأةً جاء سائق الليموزين وقال: لديَّ تعليماتٌ بأنْ أوصلكُما إلى الحفلة، حفلةٌ خاصّة بمناسبة افتتاح الفيلم.

ـ عظيم!

مشينا وراء فرانك ببضع خطوات، ونحن نخرجُ من المجمّع التجاري، قلتُ لسارة: هل تعلمين؟ معظم السائقين ينتظرون عند سياراتهم في الخارج، أما فرانك فقد دخل وبحث عنا ووجدنا. لكنه نزع القبّعة عن رأسه، ربما لكيلا يعرف الناس أنه سائق.

ـ يا لها من ليلة عجيبة!

اقتربتُ من فرانك وسألته: أنتَ لم تشرب النبيذ المتبقّي في السيارة؟ أليس كذلك؟!

ـ طبعاً، لم أشربه.

ـ فرانك، أليست القاعدة الأولى عند السائق، هي ألاّ يتركَ سيارته؟ افترضْ ـ مثلاً ـ لو قامَ أحدٌ ما بسرقة الليموزين؟

ـ سيدي، أيُّ مجنونٍ سيسرق هذه الخردة؟!

ـ ممم... معك حقّ!

٤٥

كانت حفلةُ ما بعد افتتاح الفيلم في مطعم «كوبرفيلد»، جادّة بريا ـ لوس آنجلس. أوصلَنا فرانك إلى باب المطعم، نزلنا من السيارة فوجدنا كاميرات الصحافيين وفلاشاتها بانتظارنا. أعتقد أنهم لا يعرفون من يصوّرون، ولا يهتمُّون أصلاً، وطالما أنكَ نزلتَ من سيارة ليموزين، فأنتَ أهلٌ للتصوير.

دخلنا إلى الطابق الأرضي للمطعم، ثمة حشدٌ كبير من الناس يقفون في مجموعاتٍ متفرقة، تتألف كل مجموعةٍ من ثلاثة أو أربعة أشخاص، يحتسون النبيذ الأحمر. ومع أن الجوّ كان معتدلاً في الخارج، إلا أنه حارّ جداً في الداخل، فلا توجد أجهزة تكييف، بالإضافة إلى وجود عددٍ كبير من الناس، يسرقون حصّتي من الأوكسجين.

أخذنا أنا وسارة كأسَي نبيذ من البوفيه المفتوح، ووقفنا جانباً. كان طعمُ النبيذ حامضاً لاذعاً، ولا يوجد شيءٌ في العالم أسوأ من النبيذ الأحمر الرخيص، سوى النبيذ الأبيض الرخيص، خاصةً إذا كانت الزجاجة ساخنة.

ـ من هؤلاء الناس يا سارة؟ وما الذي يفعلونه جميعهم هنا؟!

ـ بعضهم يعملون في صناعة الأفلام، بعضهم يريدون العمل في

صناعة الأفلام، وبعضهم جاؤوا إلى هنا لأنهم لم يجدوا مكاناً آخر يذهبون إليه.

- وماذا يفعلون هنا؟

- بعضهم يبحثون عن عقود عمل، بعضهم يحاولون الحفاظَ على عقود عملهم. وآخرون يذهبون إلى كلّ حفلةٍ يستطيعون الذهاب إليها. بالإضافة إلى عدد قليل من الصحافيين.

لم يكن الجوّ مريحاً، كان بلا نكهة ولا طعم. هنا يجتمعُ المُنقِذون من الموت، وتجّار المخدّرات، والمحتالون، والسفلة. الأرواحُ الشريرةُ تجتمعُ في هذا المكان وتثرثر، والجوّ حارٌّ حارّ حار.

ثم جاء رجلٌ محترم يرتدي بذلةً فخمة: أنت السيد تشيناسكي؟ أليس كذلك؟!

- نعم.

- لا يليقُ بك البقاء هنا، ينبغي أن تصعد معنا إلى الطابق الأعلى، اتبعني.

تبعناه إلى السلّم، ثم إلى الطابق الأعلى، التفتَ الرجلُ ذو البذلة الأنيقة الفخمة وقال: لا يجبُ أنْ تشربَ النبيذ الذي يُقدَّمُ للناس هنا، سوف أُحضرُ زجاجة نبيذٍ خاصّة لك.

- شكراً، زجاجتين لو سمحت.

- أمرُك. سأعود بعد قليل.

قالت سارة: ما هذا الذي يحدث معنا؟!

- اسكُتي! فهذا لن يتكرّر مرةً أخرى.

نظرتُ إلى الناس المجتمعين في الطابق الأعلى، فانتابني نفسُ الشعور الذي أحسَسْتُ به عندما رأيتُ المحتشدين في الطابق الأرضي. عاد الرجلُ ذو البذلة الفخمة، حاملاً زجاجتين من النبيذ الفاخر، مع فتّاحة نبيذ، وكأسي نبيذٍ برّاقين.

ـ شكراً جزيلاً.

ـ على الرحب والسعة. كنتُ أقرأُ زاويتكَ الأسبوعية في صحيفة لوس آنجلس.

ـ لا يبدو أنكَ كبيرٌ في السنّ.

ـ لستُ كبيراً، لكنّ والدي كان هيبّياً، وكنتُ أقرأ الصحيفة بعد أن يرميها.

ـ هل لي أنْ أسألك عن اسمك؟

ـ كارل ويلسون، أنا مالكُ هذا المطعم.

ـ آه، حسناً، شكراً مجدداً على هذا النبيذ الجيد.

ـ أهلاً بك، أخبرني إذا احتجتَ أي شيء.

ـ بالتأكيد.

غادر الرجل اللطيف، فتحتُ زجاجة وسكبتُ كأسين، إنه نبيذ فاخر حقاً. سألتْ سارة: ومن هؤلاء الأشخاص الموجودون هنا؟ وبِمَ يختلفون عن الأشخاص الموجودين في الأسفل؟

ـ إنهم نفس الأشخاص من حيث الجوهر، لكنّ هؤلاء أعلى دخلاً وأوفر حظاً من أولئك الذين في الأسفل. المال والسياسة والعلاقات هي ما يُدخلُ الأشخاص إلى عالم صناعة السينما، أما

الموهبة فهي أمرٌ ثانوي. أعرف أني أتحدثُ مثل بائعة على عربة خشبية في الطريق، لكنْ هكذا تسير الأمور.

- وهكذا تزداد سوءاً، فحتى ما يسمّونها «أفضل الأفلام»، تبدو رديئة في نظري.

- ربما تفضّل مشاهدة سباق الخيل عليها.

- بكل تأكيد.

جاء جون بينشو، فقلتُ وأنا أضحك: يا إلهي! ما هؤلاء الناس؟ أحسُّ بأني مُحاطٌ بالبراز!

ثم انضمّتْ إلينا فرانسين باورز، كانت عيناها تفيضان بهجةً وألقاً، فقد شكّل الفيلم عودةً قوية لها. قلتُ لها: كان أداؤكِ جيداً.

قال جون: جيداً جداً.

قالت سارة: أراكِ قد فردتِ شعركِ على كتفيكِ اليوم!

- ما هذا النبيذ الذي معكُم؟ يبدو نوعاً جيداً.

- جرّبيه... (أملْتُ الزجاجة وسكبتُ لها).

قال جون: اسكبْ لي أيضاً.

سألتْني فرانسين: كيف جرى... واشتريتَ نبيذاً فاخراً؟!

- صاحبُ المطعم، كان والده هيبّياً، وكلاهما كانا يقرآن صحيفة لوس آنجلس، وفي الماضي كنتُ أكتب زاويةً أسبوعية فيها، بعنوان «مذكّرات إنسان نياندرتال».

بعد ذلك وقفنا جميعاً صامتين، فلم يكن لدينا ما نقوله، لقد انتهى العمل على الفيلم. سألتُ: أين جاك بليدسو؟

أجاب جون: إنه لا يذهب إلى حفلاتٍ كهذه.

قالت فرانسين: أنا أذهب.

أضافت سارة: ونحن نذهب عادةً.

ثم جاء شاب وقال: أنا من مجلة «مرآة السينما»، أريد إجراء مقابلةٍ مع فرانسين.

ـ بكل سرور.

أجابتْ فرانسين وذهبتْ مع الشاب. كانت تتمشّى بجلالٍ وخُيلاء، سُررتُ لأجلها حقاً، وأُسرُّ لكل شخص يعود إلى مكانته الحقيقية بعد أن تدهورَ عنها لفترةٍ طويلة.

قالت سارة: اذهبْ وراءَها يا جون، سوف ترتاح لوجودك معها.

ـ هل أذهبُ أنا أيضاً؟

ـ لا يا هانك، سوف تُفسدُ المقابلة بأكملها، ولا تنسَ بأنكَ تطلبُ ألف دولار على اللقاء.

ـ هذا صحيح.

قال جون: حسناً، سوف أذهب إليها.

جاء شاب آخر يحمل مسجّلة كاسيت: أنا من صحيفة «هيرالد إكزامنر»، مسؤول صفحة «تكلّمْ وخبِّرْ». ما رأيكَ بالطريقة التي ظهر فيها الفيلم على الشاشة؟

سألته سارة: هل معكَ ألف دولار؟

ـ ما رأيكَ بالطريقة التي ظهر فيها الفيلم على الشاشة؟

ـ إنه فيلم استثنائي، وبعد سنواتٍ طوال، سوف ينسى الناسُ الأفلام

الفائزة بجوائز الأوسكار لهذه السنة، بينما سيستمرُ عرضُ «رقصة جيم بيم» في النوادي السينمائية، وعلى شاشات التلفزة، طالما أنّ الحياة مستمرة على كوكب الأرض.

ـ هل تؤمن بذلك حقاً؟

ـ نعم. ومع عرضه مرةً تلوَ الأخرى، سوف يكتشفُ المشاهدون معاني جديدة للحوارات والمشاهد التي فيه، معانيَ لم تكن مقصودةً من أحد. الإفراطُ في المديح، والإفراط في الذمّ، هما الأسلوبُ المتّبع في مجتمعنا.

ـ هل يتحدّث السكّيرون بهذه الطريقة؟

ـ بعضهم يتحدثون هكذا، إلى أنْ يأتي أحدٌ ويقتلهم.

ـ يبدو أنكَ تعطي للفيلم تقييماً عالياً؟!

ـ إنه ليس فيلماً مهمّاً، لكنّ أفلام الآخرين رديئة جداً.

ـ ما هو الفيلم الذي تعتبره أفضلَ فيلم رأيته في حياتك؟

ـ «رأس الممحاة».

ـ «رأس الممحاة»؟!

ـ نعم.

ـ وما الفيلم الذي يليه حسب تصنيفك؟

ـ «مَنْ يخافُ مِنْ فرجينيا وولف؟».

عاد كارل ويلسون: تسيناسكي، ثمة رجلٌ في الأسفل، يدّعي أنه يعرفك، ويريد أن يصعد إلى هنا، اسمه جون غالت.

ـ دعه يصعد أرجوك.

فتحتُ زجاجة النبيذ الثانية، سكبتُ كؤوساً جديدة، وانتظرت. ها هو جون غالت، ها هو جون غالت الكبير، يسير باتجاهي!

ـ أنا وهانك لا نتصافحُ بالأيدي أبداً...! مرحباً يا سارة، أما زلتِ تسيطرين على هذا الرجل؟

ـ نعم يا جون.

اللعنة! أعرفُ العديد من الرجالِ اسمُهم جون، مشكلةُ الأسماء المذكورة في الكتاب المقدّس أنها تنتشرُ وتتكررّ كثيراً: جون، مارك، بيتر، بول.

كان جون غالت الكبير بصحة جيدة، كما ازدادت عيناه براءةً، وأخيراً تظهرُ البراءة في عيون الطيّبين حقاً. بيني وبين جون... تزولُ المصالح الشخصية، ويزول الخوف، ويزول التنافس البغيض. قلتُ له: تبدو بصحة جيدة يا عزيزي.

ـ وأنت أيضاً، تبدو أفضل مما كنتَ عليه قبل خمسٍ وعشرين سنة.

قالت سارة: هذا بسبب الفيتامينات والطعام الصّحي، لا لحوم حمراء، لا ملح ولا سُكّر.

ـ إذا عرفَ الناسُ بما تقولُه سارة، سوف تتدهورُ مبيعات كتبي فوراً يا جون.

ـ كتبكَ سوف تُباعُ دائماً يا هانك، فحتى الطفل يفهمُ عنك.

جون غالت الكبير! يا له من رجل عظيم! حين كنتُ أعمل في مكتب البريد، كنتُ أفضّل زيارته في بيته على الذهاب إلى أيّ مكانٍ في العالم، وعلى الأكل والنوم أيضاً. كان جون الكبير دائماً في بيته مع

امرأةٍ تُنفقُ عليه، النساءُ دائماً يعشقن جون الكبير ويُنفقنَ عليه. مرةً قال لي: هانك، العملُ يجعلني إنساناً تعيساً، وأنا أريد العيش سعيداً».

كانت هناك زبديّة زجاجية على طاولة غرفة الجلوس في بيته، وكانت ممتلئةً إلى حوافّها بحبوب الأدوية، مرةً دعاني إليها: جرّبْ بعضها.

ـ جون، هذه الحبوب سوف تدمّر خلايا دماغك.

ـ كل رجل يختلف عن الآخر، فما يدمّر أحدهم، قد لا يؤثّر في الآخر.

أمضينا العديد من السهرات الرائعة معاً، نشرب البيرة ونتعاطى الحبوب. كان جون أفضلَ قارئٍ رأيته في حياتي، ولم يكنْ متحذلقاً أو متفلسفاً. لكنه رجل غريب الأطوار ربما بسبب الحبوب.

في بعض الليالي، تكون الساعة قرابة الثالثة أو الرابعة فجراً، فتستيقظ في داخله رغبةٌ بالهجوم على حاويات القمامة والساحات الخلفية للبيوت. رافقتُه في بعض المرات، «أريد هذا»، «لكن يا جون، هذا مجرّد حذاء عتيقٍ مرميّ في حاوية القمامة»، «لكني أريده». كان بيته مليئاً بالقمامة، فترى أكواماً منها في كل مكان. وعندما تريد أن تجلس على الأريكة، يجب عليك أن تدفع كومة قاذوراتٍ جانباً لتجلس. كما كانتْ جدران بيته مليئة بالملصقات، بعضها شعارات، وبعضها عناوين رئيسية مقصوصة من الجرائد. كلُّ ما في بيته غريب جداً، وكأنها الأقوالُ الأخيرة للمجنون الأخير على هذه الأرض.

كان في قبو بيته آلافُ الكتب المكدّسة فوق بعضها بعضاً، وكانت الكتب مبلّلةً ومتعفّنة ومنتفخةً بسبب الرطوبة. لقد قرأها كلَّها، وخرج

من القبو سالماً، كم كان شاباً رائعاً. في تلك الأيام كنتُ أخجلُ من نفسي كثيراً، وأشفقُ على حالي، لكنه ساعدني على الخروج من هذه الحالة. وكذلك كنتُ أُنفقُ عليه في بعض الفترات، عندما يكون مُنقطعاً عن النساء.

كان جون الكبير كاتباً أيضاً، ومع مرور السنوات حالفني الحظُّ ولم يحالفه. كان يكتب قصيدةً قويةً متينة، لكن فيها شيء من الغموض والتعقيد، وقد شرح لي يومها: «لا أريدُ أنْ أصير شاعراً مشهوراً، أنا أكتب لكي أرتاح». كان أكبر قارئ للشعر رأيته في حياتي، وبعدما حالفني الحظُّ واشتهرت، صرتُ أُشيدُ به في كل مكان، ودائماً أسمع من الناس نفسَ الردّ: «ما الذي يعجبُ تشيناسكي في ذاك المتبجّح؟». فالناسُ الذين يحبّونني وكتاباتي، لا يحبّونه أو كتاباته، وأحياناً أسألِ نفسي: هل كتاباتي موجّهةٌ للحمقى فقط؟! وهو أمرٌ لا أستطيع فعلَ شيء حياله، فمثلما يطيرُ العصفور، وتزحف الأفعى، أغيّرُ محابر الآلة الكاتبة.

بكل حال، كنتُ سعيداً بلقاء جون غالت بعد زمانٍ طويل، كانتْ برفقته سيدة جديدة: هذه ليزا، إنها شاعرة أيضاً.

قفزتْ ليزا إلى المنتصف، وراحت تتحدّث، تتحدث وكأنّ عاصفةً من الكلمات تخرج من فمها، بينما وقف جون صامتاً. ذكّرتني ليزا بناشطات حقوق المرأة القدامى، اللواتي ـ ليس عندي أيُّ شيء ضدّهنَّ ـ يسحبنَ ذرّات الأوكسجين من الهواء، وكان الجوّ حاراً أصلاً. راحتْ ليزا تتكلّم وتتكلّم، تخبرنا عن كل شيء تعرفه في هذا العالم. سألتني هل أعرف بابس دانيش، فأجبتُها بـ «لا»، فأكملتْ قائلةً إنّ بابس دانيش

امرأة، وسوداء، وتضعُ أقراطاً حلقيةً كبيرة، وتُلقي الشِعرَ بحماسٍ كبير، فتتأرجحُ أقراطُها أثناء الإلقاء. كما أنّ لها أخاً اسمه تيب، وتيب هذا يرافقها بعزفه الموسيقي أثناء الأمسيات.

قالت سارة: هانك لا يذهب إلى الأمسيات الشعرية أبداً، لكني سمعتُ بـ بابس دانيش وهي تعجبني كثيراً.

ـ أنا وجون وبابس، سنقيمُ أمسية شعرية مشتركة في جمعية «ما وراء الباروك» الأربعاء القادم، هل تأتيان؟

ـ على الأرجح سوف آتي.

أجابتْ سارة، وهي على الأرجح سوف تذهب. نظرتُ إلى جون غالت نظرة طويلة، ما زال رجلاً طيباً ولطيفاً، لكني أبصرتُ الحزنَ العميق الغائر في عينيه، والذي لم يكن أيام الشباب. بالنسبة إليه وبوصفه رجلا أراد ـ دوماً ـ أن يكون سعيداً، بدا لي رجلاً قد خسر بيدقين في بداية لعبة الشطرنج، دون أن يكسب شيئاً.

عاد مراسل «هيرالد إكزامنر» إليّ: سيد تشيناسكي، أريد أن أطرح عليك سؤالاً آخر.

عرّفتُه على جون غالت: جون غالت... شاعرُ أمريكا الأعظم غير المكتشَف! هذا الرجل ساعدني على النهوض والاستمرار عندما كان العالم بأكمله يقف ضدي، أريدكَ أن تجري حواراً مع جون غالت.

ـ حسناً، سيّد غالت؟

ـ أنا وهانك نعرف بعضنا منذ أكثر من عشرين عاماً.

هربنا أنا وسارة.

توافد مزيد من الناس إلى الطابق العلوي، ولم يغادرْ أحد من الموجودين. ما الذي يحدث هنا؟ عقود عمل؟ فرص عمل؟ وهل تستحقُّ كلَّ هذا العناء؟! أليس من الأفضل للمرء ألاّ يعمل في السينما والإعلام؟! إذن، من سوف يعملُ سائق تاكسي؟ من سيعمل بستانياً؟ من سيعمل جابي ضرائب؟ لماذا يريد الجميع أن يصيروا فنانين؟! أليستْ عقولُنا أكبرَ من ذلك؟! أكبر من أن تعاني لأجل أشياء كهذه؟! أو على الأقلّ تبدو أكبر.

كانت زجاجة النبيذ الثانية على وشك النفاد، حين جاء جون بينشو: جاك بليدسو هنا، يريد رؤيتك.

- أين هو؟

- هناك... قرب الباب.

وبالفعل كان جاك بليدسو واقفاً هناك، مُسنداً ظهره إلى الباب، ومُبتسماً ابتسامته السينمائية الشهيرة.

- أداءٌ رائع يا جاك، وتمثيل مُتقن، أنا سعيدٌ لأنكَ أخذت دور البطل.

- هل أتقنتُ الشخصية تماماً؟

- أعتقد ذلك.

- تعمّدتُ ألاّ أقلّد صوتك بدقّة، ولا مشيتكَ كما هي بالضبط.

- حسناً فعلت.

- أتيتُ إلى هنا... لكي أُسلِّم عليك... فقط...

(هذه الجملة ذبحتْني، لم أعرفْ كيف أردُّ عليه)

ـ عزيزي، يمكننا أن نخرج معاً متى تشاء، ونسكر...

ـ أنا لا أشرب.

ـ أووره... صحيح، حسناً، شكراً لك جاك، سُرِرتُ برؤيتك. ما رأيك أن تشرب كأساً على أيّ حال؟

ـ لا، أنا ذاهب.

أدار جاك ظهره ونزل السلّم، وغادر. كان وحيداً هذه المرة، لا مرافقةَ معه، ولا سائقو درّاجاتٍ نارية، يا لهُ من فتىً لطيفٍ ذي ابتسامةٍ عذبة.

وداعاً، جاك بليدسو.

طلبتُ زجاجة نبيذ أخرى من كارل ويلسون، بينما كانت سارة واقفة مع مجموعة أشخاصٍ يتحدّثون. لم يكن في الحفلة شيءٌ يلفتُ الانتباه، مجرّد أناسٍ يتكلّمون مع بعضهم بعضا. ربما كانوا ينتظرون مني أنْ أسكَر وأفقد عقلي، ثم أبدأ بالكلام البذيء والتصرّفات الحمقى. لكنّي أشكُّ أن يحدث ذلك، فهؤلاء الأشخاص مملّون ومضجرون جداً.

فلسفتي الأساسية في الحياة: «تجنب مخالطة الناس بقدر ما تستطيع». كلّما قلّ عددُ الناس الذين أراهم، أزدادُ ارتياحاً. وخلال حياتي كلّها، التقيتُ برجل واحدٍ يشاركني فلسفتي هذه، إنه سام حارسُ المستودع. كان سام شاباً رائعاً، لكنه أدمنَ لعب القمار، وما عاد قادراً على دفع أجرة بيته، فصار ينام في الشوارع والحدائق، وحين يستيقظ يعاودُ المقامرة. ثم سمعتُ أنه استأجر غرفةً رخيصة في الحيّ الكوري، فذهبتُ لزيارته.

ـ هانك، لا يسمحُ لي الطبيب سوى بشُرب الحليب، رغم ذلك فإني أتقيّأ ما أشربه فوراً.

وبعد أسبوعين من زيارتي، مات سام. الرجُل الوحيد الذي شاركني نظريّتي الفلسفيّة في الحياة، مات!

ناديتُ سارة: لا يحدث شيء في هذه الحفلة، إنها ميّتة، فلنذهبْ.

ـ لكننا نستطيع شربَ ما نشاء، ومجاناً.

ـ هذا ليس سبباً كافياً للبقاء.

ـ ما زلنا في أول السهرة، قد يحدثُ شيءٌ ما بعد قليل.

ـ لن يحدث شيء إلاّ إذا قمتُ أنا بذلك، ومزاجي اليوم ليس على ما يرام.

ـ دعنا ننتظر قليلاً.

أحسُّ بما تشعرُ به سارة، إنّ نهاية هذه السهرة تعني نهاية هوليوود بالنسبة إلينا. وهي تهتمُّ بهذا العالم أكثر مني، وبدأتْ تفكّر مليّاً بأنْ تصبح ممثلة.

انتظرنا مزيداً من الوقت، ولم يحدثْ شيء في الحفلة. كانت النساءُ غير جميلات، والرجال غير جديرين بالاهتمام. كان الجميع مضجرين أكثر من الضجر ذاته، والضجر شعورٌ يؤلمني.

ـ سوف أنفجرُ إذا لم نخرج من هنا.

ـ حسناً، فلنذهب.

كان فرانك، العجوز الطيّب، ينتظرنا عند سيارة الليموزين في الأسفل.

ـ أراكما تغادران الحفل باكراً.

ركبنا في المقعد الخلفي لليموزين، وجدتُ زجاجة نبيذ ففتحتُها، بينما انطلق سائقنا الأمين على طريق الميناء.

ـ فرانك، هل تشرب معنا؟

ـ طبعاً، أتمنّى.

ضغط فرانك على زرّ، فنزل البلّور العازلُ بين مقعد السائق والمقعد الخلفي، وناولتُه الزجاجة.

صار فرانك يقود السيارة وهو يأخذ رشفاتٍ من النبيذ. كانتْ رحلةُ العودة إلى البيت غريبةً ومثيرة بطريقة ما، كنا نضحكُ نحن الثلاثة دون سبب. وأخيراً، دبّتْ الروح في هذه الليلة.

٤٦

بعد حفل الافتتاح، صار الفيلم يُعرَض في أربعِ صالات سينما في المدينة، وبدأ بعضُ الأشخاص في حلبة السباق يضايقونني: أنتَ من كتبَ هذا الفيلم؟

ـ نعم.

ـ حسبنا أنكَ تراهن على الأحصنة.

ـ أنا كذلك. والآن اعذروني لأني مشغول...

بعضُ الناس يتقرّبون منك بأسلوب لطيف، وآخرون بأسلوب مرعب، فعندما يرونكَ تجحظُ عيونُهم ويهجمون عليك. حفظتُ هذه النظرة جيداً، وما إنْ أراها على وجه أحدهم حتى أغيّر طريقي وأهرب. كنتُ متأكداً أني أهربُ من أشخاص لا يقصدون إزعاجي، وأعرفُ أنه مع مرور الوقت سوف تعودُ الأمور إلى طبيعتها، وأعودُ ذاك العجوز الذي يراهن على الأحصنة، مثلي مثل بقية العجائز هنا.

القراءاتُ التي نشرتها الصحف عن «رقصة جيم بيم»، كان بعضُها إيجابياً والآخر سلبياً. «نيويورك تايمز» أشادتْ بالفيلم إشادة عظيمة، أما السيدة التي تكتبُ عن الأفلام الجديدة في «ذا نيويوركر»، قالتْ إنه

مخيّب للآمال، بينما قال ريك تالبوت في برنامجه التلفزيوني إنّ «رقصة جيم بيم» من أفضل عشرة أفلام هذه السنة.

ذات ليلة، كنتُ جالساً في غرفتي في الطابق العلوي. نادتني سارة من الأسفل: «إنهم يتحدثون عن رقصة جيم بيم». كان ويكسلر وسيلبي على شاشة التلفاز، وعندما نزلتُ كانا يعرضان المشهد الذي يقوم فيه جاك بليدسو برمي ثياب فرانسين باورز من شبّاك الطابق السادس.

هزّتْ سيلبي برأسها وراحتْ تنتقدُ الفيلم: «مزعج! مريع! يجبُ إعطاؤه جائزة أسوأ فيلم لهذه السنة! الفيلم يعرضُ لنا مشرّداً، يرتدي بنطالاً زاحلاً من خصره إلى أعلى ركبتيه، مشرّداً قذراً مهمِلاً شنيعاً! هدفُه في الحياة أنْ يهزم نادلَ الحانة بالمشاجرة! ومن حينٍ إلى آخر، يكتبُ قصائد على قصاصاتِ ورق! وغالباً ما نراه يحمل حقيبته المتّسخة... ويُخرج منها زجاجات الخمر، أو يتسوّلُ كأسَ خمر في الحانة! وفي إحدى مشاهد الحانة، نرى سيّدتين تتقاتلان حتى الموت من أجله! هذا مستحيل! لا توجد امرأةٌ على وجه الأرض تهتمّ برجلٍ كهذا! عادةً ما نُعطي للأفلام درجةً تتراوح بين الواحد والعشرة، هل يُمكنني أنْ أُعطي هذا الفيلم درجة واحد تحت الصفر؟!»

بعد قليل، ظهرتْ على الشاشة الدرجةُ التي نالها الفيلم: ناقص واحد!

ثم تكلّم ويكسلر: «أوافقكِ في وجهة نظرك هذه، لكني سأعطي للفيلم درجة اثنين من عشرة، بسبب ذاك المشهد المضحك، عندما يستحمُّ بطلُ الفيلم مع كلبه.»

قالت سيلبي: «لا، هذا سلوك أحمق!»

بعد شهر من إطلاق الفيلم، كان ما زال يعرض في أربع صالات سينما في المدينة، ثم بدأ عرضه في صالة جديدة في «سان بيدرو»، فقرّرنا الذهاب لمشاهدته.

وصلنا إلى صالة السينما، نظرتُ إلى اللافتة المعلّقة فوق البوابة: «رقصة جيم بيم»، فسَرَتْ رعشةٌ غريبة في جسدي.

معظم الأفلام التي شاهدتها في حياتي، شاهدتُها أيام الشباب، وكانت أفلاماً فظيعةً جداً، مثل أفلام فريد أستير، جينجر روجرز، جانيت ماكدونالد، نيلسون إيدي، بوب هوب، تيرون باور، الثلاثي ستوغز، كاري غرانت. تلك الأفلام كانت تسلُبُ العقل وتخدّره، وتتركك دون أي أمل أو رغبة. كنتُ أجلسُ في صالات السينما آنذاك، لأعذّب جسدي وروحي.

وقفنا أمام باب السينما، ننتظر انتهاء عرض فيلم ما بعد الظهيرة. قلتُ لسارة: لا أرى أحداً هنا، ربما لن يأتي أحد لمشاهدة الفيلم.

ـ سوف يجيئون يا هانك.

انتهى عرض فيلم ما بعد الظهيرة، قالت سارة: جاء ثلاثة أشخاص...

ـ صاروا خمسة...

ـ سبعة... ثمانية...

ـ أحد عشر شخصاً حتى الآن...

ارتحتُ قليلاً بوصول بعض الأشخاص، فتوقّفتُ عن العدّ. بعد قليلٍ، صرتُ أرى سياراتٍ قديمة الطراز تتوافد إلى السينما، وتتوقف أمامها. نزل أحدُ الرجال حاملاً زجاجة نبيذ معه، فقلتُ: السكّيرون جاؤوا أيضاً، ليختبروا مصداقيّة المشاهد.

ـ سوف يعجبهم الفيلم.

ـ أنا سكّير تاريخي، ولا أحدَ ينافسني في هذا.

ـ ربما لأنّ أغلبَ السكّيرين لم يعيشوا طويلاً مثلما عشتَ أنت، أو ما هو سرّك؟

ـ لا أنهضُ من السرير حتى الظهر.

دخل عددٌ لا بأس به من الناس إلى الصالة، فتبعناهم. توقّفتُ عند شبّاك التذاكر واشتريتُ تذكرتين، ثم أعطيتُ التذكرتين للشاب الذي قادنا إلى قاعة العرض. كانت شاشةُ السينما تعرضُ دعايةً للأفلام التي ستصلُ قريباً، وكان في القاعة قرابةُ مائة شخص.

جلسنا على مقعدينا، ثم دخل شاب وفتاة يافعان، نحيلان في أواسط العشرين من العمر، وجلسا على مقعدين أمامنا.

ظهرتْ عبارة «رقصة جيم بيم» على الشاشة، وبدأ الفيلم. كنتُ قد شاهدتُه لثلاث أو أربع مراتٍ سابقاً، وحفظته غيباً. إنه قصّة حياتي! فمَنْ يعرفها أكثر مني؟ لكني ـ بصراحة ـ لم أكتبْ عني لأقدّم نفسي بطلاً، كلُّ ما أردته هو لفتُ الأنظار إلى الحياة الغريبة والبائسة التي يعيشُها السكّيرون، وكنتُ أنا أكثرَ سكّيرٍ أعرفُه حقّ المعرفة، ولذلك كتبتُ عن نفسي.

أعتبر نفسي من سلالة الكتّاب الكحوليين: يوجين أونيل، وليم فوكنر، آرنست همنغواي، جاك لندن. لقد كانت الخمرُ تطلق العنانَ لأقلامهم وآلاتهم الكاتبة، وتمنحهم الألقَ الفريد والجرأة النادرة.

سألتْ سارة: هل تظنّ أن أحداً يعرف أنك هنا؟

ـ لا، فأنا أبدو مثلَ أيّ رجل هنا.

ـ وهل هذا يزعجك؟

ـ نعم، فأنا لا أحبُّ أنْ أشبه أحداً.

استدار الشاب الطويل النحيل الجالس أمامنا، وقال: أرجوك، دعنا نشاهد الفيلم!

ـ أعتذر.

تابعنا مشاهدة الفيلم كما أمر، وأثناءَ إحدى المشاهد البذيئة، شهقتْ الفتاةُ الجالسةُ أمامنا: أوووه... لاااا...

ـ اهدئي دارلين.

قال مرافقُها الطويل النحيل.

خرجتْ دارلين من حالة الفزع، وعادت لمتابعة الفيلم. وعندما وصلنا إلى المشهد الذي تظهر فيه إحدى العاهرات، وهي تفتخر بأنها أفضلُ من تلعقُ قضيباً في المدينة، فتقولُ أمام روّاد الحانة: «لا توجدُ امرأةٌ في هذي المدينة، تستطيعُ بلعَ الكميّاتِ التي أبلعُها»؛ غطّتْ دارلين وجهها بيديها، وقالتْ: لا أصدّقُ ما أرى!

ـ اهدئي يا عزيزتي.

قال ذكَرُها الحامي.

استمرّتْ دارلين بتغطية وجهها بيديها طوال المدة المتبقيّة من الفيلم، لكنها لم تغادر القاعة، لا هي ولا حبيبها.

انتهى الفيلم، وشرع الناسُ يغادرون القاعة. في الحقيقة شاهدتُ كثيراً من الأفلام التي تفوقُ هذا الفيلم بذاءةً، خاصةً في الثلاثينات.

خرجنا من صالة السينما، جلسنا في سيارتنا المركونة أمامها، أنزلنا بلّور النوافذ وأشعلنا السجائر. ثمة سيارةٌ عتيقة مركونةٌ خلف سيارتنا،

تحرّكتْ ببطءٍ ومرّتْ بمحاذاتنا. كان فيها رجلٌ وحيد، ابتسمَ لنا ولوَّح بيده، يا لَها من ابتسامةٍ مُريحة. قالتْ سارة: لقد عرفَ من تكون!

ـ نعم، وكان لطيفاً.

ـ حقاً.

عدنا بالسيارة إلى البيت، مثلما نعود بعد مشاهدة أيّ فيلم. جلسنا في غرفة التلفاز، وفتحتُ زجاجةً من النبيذ الأحمر، دمّ الآلهة.

كان التلفاز يعرضُ نشرة الأخبار، وكالعادة... كلُّ الأخبار سيئة.

شربنا مزيداً من النبيذ إلى أنْ حان موعد برنامج جوني كارسون، كان جوني أنيقاً وجذاباً كعادته، لكنّ يدهُ لا تكفُّ عن الانطلاق المتكرّر باتجاه ربطة عنقه، إما لتشدَّها أو لتتأكّد من حسن انعقادها. وبالرغم من أناقته وذائقته المميّزة، فإنه ـ في لا وعيه ـ دائمُ القلق على مظهره.

سألتْ سارة: ما الذي سوف تفعله الآن؟

ـ بخصوص ماذا؟

ـ أعني أنّ الفيلم قد انتهى.

ـ هذا صحيح.

ـ ماذا سوف تفعل؟

ـ ما زالت الأحصنةُ تركض...

ـ وغير الأحصنة؟

ـ ممم... ربما سأكتبُ روايةً عن كتابة السيناريو وصناعة الأفلام.

ـ جيّد، أعتقدُ أنكَ ستنجح فيها.

ـ أظنُّ ذلك.

ـ وماذا سوف تُسمّيها؟

ـ هوليوود.

ـ هوليوود؟!

ـ نعم.

وهذه هي.

ـ انتهت ـ

ملاحظات المترجم

(*) تشارلز بوكوفسكي (١٩٢٠ ـ ١٩٩٤): هو هنري تشارلز بوكوفسكي، يناديه أصدقاؤه باسم «هنري» أو «هانك»، وعندما بدأ في نشر قصائده وقصصه القصيرة، اختار لنفسه اسم «تشارلز بوكوفسكي» إذ وجده أكثر فخامةً من «هنري بوكوفسكي». لكنه عندما بدأ ينشر رواياته المعتمدة بشكل رئيسي على سيرته الذاتية، والتي يروي فيها مراحل مختلفة من حياته الحافلة بالأحداث، اختار لنفسه (بطل الرواية) اسم «هنري تشيناسكي»، وأيضاً يناديه أصدقاؤه بـ «هانك».

(*) عندما يتحدّث بوكوفسكي ـ عادةً ـ عن هوليوود، فإنه لا يقصدُ عاصمة صناعة السينما الأمريكية ـ العالمية، بل يقصد المكان الذي عاش فيه معظم حياته، تحديداً في المنطقة المسمّاة «شرق هوليوود»، حيث يعيش الفقراء والعمّال البسطاء والمهاجرون الجدُد، والمشرّدون واليائسون من الحياة. وحيث تنتشر الفنادق الرديئة والحانات الرخيصة التي يرتادُها البائسون والمقامرون والعاهرات. وهذا هو الفضاء المكاني الذي يشكّل «وطن بوكوفسكي» (Bukowski-land)، والذي كتب معظم قصائده وقصصه ورواياته عنه وفيه.

لكنّه في روايته الخامسة «هوليوود» الصادرة عام ١٩٨٩، يقصدُ عاصمة صناعة السينما بالذات.

(*) ولد بوكوفسكي في مدينة أندرلخت - ألمانيا، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى بسنة، ثمّ هاجر والداه إلى الولايات المتحدة، وتحديداً مدينة لوس آنجلس العملاقة، والتي عاش فيها طفولته ومعظم حياته. كانت عائلة بوكوفسكي من الطبقة المتوسطة الفقيرة، ولقد عاش بوكوفسكي طفولةً مأساوية بسبب والده الذي كان يضربه هو وإخوته بشكل عنيف، ويضرب والدته أمام أطفالها بشكلٍ مرعب أيضاً.

(*) عندما شبَّ بوكوفسكي هجرَ أهله، وتمرّدَ على الحياة التي أعدّتها العائلة له، فتركَ كلّيّة الصحافة في جامعة لوس آنجلس بعد سنتين من دخولها، وبدأ رحلة التشرّد. في البداية كان ينام على مقعد في الحديقة العامة، ثم راح يعمل حمّالاً ليكسبَ قوت يومه، وليستطيع استئجار غرفة صغيرة في فندق رخيص. وبعد ذلك عمل في المؤسّسة الوطنية للبريد عدّة سنوات، وكتب عن هذه المرحلة روايته الأولى «مكتب البريد» ١٩٧١.

(*) في الرابعة والعشرين من عمره، التقى بوكوفسكي بسيّدة تبلغ الثامنة والثلاثين من العمر، هي جين كوني بيكر، وعاش معها علاقة الحبّ الأهمّ والأكثر تأثيراً في حياته. إذ كانت جين مُلهمتهُ في عديد من أعماله الشعرية الناجحة مثل «تهربُ الأيام مثل الأحصنة البرية فوق التلال» ١٩٦٩، كما كانت جين الشخصية الرئيسية (إلى جواره) في رواياته: «مكتب البريد» ١٩٧١، «الخادم» ١٩٧٥. وكذلك في سيناريو الفيلم السينمائي «زبون البار» ١٩٨٧، وتظهر

جين في هذه الأعمال باسم «واندا». ماتت جين بتسمّم كحولي عام ١٩٦٢، ولا نعرف عنها سوى ما ذكره بوكوفسكي في أعماله.

(*) باربت شرودر (١٩٤١ ـ ....): مخرج ومنتج فرنسي ينتمي إلى ما يعرف بـ «الموجة الثانية من المخرجين الفرنسيين»، عمل في فرنسا مع المخرج الشهير جان لوك غودار، ثم انتقل إلى هوليوود، والتقى بـ بوكوفسكي الذي جمعتْه به صداقةٌ استمرتْ حتى وفاة الأخير. ومن أعمال شرودر القديمة، فيلم وثائقي عن الديكتاتور الأوغنديّ عيدي أمين، بعنوان «الجنرال عيدي أمين دادا: بورتريه» ١٩٧٤.

(*) باربت شرودر نفسه، أنتج وأخرج فيلماً وثائقياً عن بوكوفسكي، بعنوان «بوكوفسكي في أشرطة التسجيل» ١٩٨٧. جمعَ فيه ٥٢ مقابلة تلفزيونية أُجريتْ مع بوكوفسكي، تبلغُ مدتها بالمجموع ٦٤ ساعة تصوير، ثم اقتطعَ منها الأجزاء الأكثر أهمية، وصنع منها فيلماً مدّته أربع ساعات، مُرتّباً المقابلات حسب الموضوع: الكحول، النساء، الشِعر...

(*) في عام ١٩٨٤، طلب شرودر من بوكوفسكي كتابة سيناريو سينمائي ليقوم بإخراجه. وبعد إصرار من شرودر، كتبَ بوكوفسكي سيناريو «زبون البار»، وتحدّث فيه عن فترة من شبابه، عندما كان يقضي أيامه في الشُرب في الحانات وفي المشاجرات، ويصفُ فيه لقاءه الأول مع جين. لكنّ الفيلم لم يصدر حتى عام ١٩٨٧، بسبب مشكلات متعددة.

(*) فيلم «زبون البار» (Barfly) ١٩٨٧: يمثل مرحلة من السيرة الحياتية للشاعر تشارلز بوكوفسكي، كتبه بوكوفسكي، وأخرجه شرودر،

بينما لعب دور البطولة فيه «ميكي رورك» و«فاي دوناوي»، والفيلم من إنتاج «كانون غروب»، وتقديم المخرج الكبير فرانسز فورد كوبولا.

مما هو معروف عن الفيلم، أنّ بوكوفسكي أرادَ أنْ يلعب الممثل الأمريكي الشهير «شون بين» دور البطولة فيه، لكنّ «شون بين» أصرّ على أنْ يُخرج الفيلم صديقه «دينيس هوبر». وهنا رفض شرودر التخلّي عن إخراج الفيلم لـ هوبر. وبالتالي خسر الفيلم «شون بين» وتم استبداله بالممثل «ميكي رورك»، الذي أشار بوكوفسكي عدّة مراتٍ إلى أنه لم يكنْ راضياً عن أدائه في الفيلم.

وممّا ذُكر عن الفيلم أيضاً، أن ممثلة دور البطولة «فاي دوناوي» طلبتْ من بوكوفسكي كتابة مشهدٍ تظهرُ فيه ساقاها بالكامل، وأصرّتْ بشدّة على ذلك، ولم يكن المشهدُ من أصل السيناريو.

ترشّح الفيلم للسُعفة الذهبية في مهرجان «كان»، كما ترشحتْ «فاي دوناوي» لجائزة «غولدن غلوب» كأفضل ممثلة بدور رئيسي، وكذلك ترشّح المصوّر «روبي مولر» لجائزة «إندبندت سبيريت» كأفضل تصوير سينمائي.

(*) بعد صدور فيلم «زبون البار»، كتب بوكوفسكي رواية «هوليوود»، متحدّثاً فيها عن تجربته في كتابة السيناريو والعمل في صناعة الأفلام، وعن مرحلة مهمّة في حياته، صار فيها كاتباً مشهوراً ومقروءاً بكثرة، وكذلك مُرتاحاً مادياً وعاطفياً مع زوجته ليندا لي بييل (في الرواية: سارة). وقد أهدى بوكوفسكي الرواية إلى صديقه المخرج باربت شرودر، وهو الشخصية الروائية: «جون بينشو».

(*) يقول بوكوفسكي إن شخصيّات الرواية خياليّة، وإنّ أيَّ تشابه بينها

وبين الشخصيّات الواقعية يكون بمحض المصادفة. وهو لا يقولُ ذلك ليحمي نفسه من المقاضاة فحسب، بل لأنه يهتمُّ بالنمط البشري أكثرَ من التشخيص والتشهير.

(*) بعد صدور رواية «هوليوود» التي تحدّث فيها بوكوفسكي عن كتابة سيناريو «زبون البار»، وتصوير الفيلم وإنتاجه، أصبحَ معروفاً للجميع مَن هي الشخصيّات الواقعية التي ذكرها بوكوفسكي في روايته. فهو أخفاها من جهة، وترك خيطاً نستدلُّ به عليها من جهة ثانية.

في الجدول التالي، أبيّنُ الشخصيات الواقعية التي ذكرها بوكوفسكي في روايته، مُعتمداً على المقدّمة التي كتبها «هاورد سونيس» للطبعة البريطانية للرواية، والصادرة عن دار «Canongate Books Ltd» في إدنبره ٢٠٠٧، وكذلك على موقع «قاعدة بيانات الأفلام العالمية» www.imdb.com:

الشخصية الروائية	الشخصية الواقعية	ملاحظات
هنري تشيناسكي	تشارلز بوكوفسكي	
سارة	ليندا لي بييل	زوجة بوكوفسكي من عام 1985 حتى وفاته
جون بينشو	باربت شرودر	مخرج فيلم «زبون البار»
جاك بليدسو	ميكي رورك	ممثل أمريكي، دور البطولة في «زبون البار»
فرانسين باورز	فاي دوناوي	ممثلة أمريكية، دور البطولة في زبون البار»
هاري فريدمان	منحاييم غولان	منتج ومالك شركة «كانون غروب»
نيت فيشمان	يورام غلوبوس	منتج ومالك شركة «كانون غروب»

توم بيل	شون بين	ممثل أمريكي شهير
ماك أوستن	دينيس هوبر	مخرج أمريكي شهير
جون لوك مودار	جان لوك غودار	مخرج فرنسي شهير
رومانا	مادونا	مغنية البوب الشهيرة
فرانسز فورد لوبالا	فرانسز فورد كوبولا	المخرج الأمريكي العظيم
فرانسوا راسين	ستيف باس	ممثل فرنسي
هكتور بلاكفورد	تايلر هاكفورد	مخرج أمريكي كبير
فيكتور نورمان	نورمان ميلر	الروائي الأمريكي الكبير
ليدو مامين	عيدي أمين	الدكتاتور العسكري الحاكم لأوغندة سابقاً
تيم رودي	توم لودي	مخرج، ومنتج مساعد في «زبون البار»
لانس إدواردز	فريد روس	مخرج، ومنتج مساعد في «زبون البار»
كاي برونستين	إيفا غاردوس	محرّرة فيلم «زبون البار»
جون غالت	جون توماس إيدليت	شاعر أمريكي، صديق قديم لبوكوفسكي
كارل فوسنر	كارل فيسنر	مترجم أعمال بوكوفسكي إلى الألمانية
هاينز	روبي مولر	مصوّر سينمائي كبير، مصوّر «زبون البار»

كوربل فيكر	هِلموت نيوتن	من أشهر المصوّرين الفوتوغرافيين في العالم
ريك تالبوت	روجر إيبيرت	سيناريست وناقد سينمائي أمريكي كبير
فيلم «رقصة جيم بيم»	فيلم «زبون البار»	فيلم كتبه بوكوفسكي، صدر ١٩٨٧
شركة «فاير باور»	شركة «كانون غروب»	شركة للإنتاج الفني السينمائي

(*) في خريف ١٩٨٨، وتحديداً في اليوم التالي لانتهائه من كتابة رواية «هوليوود»، أُصيبَ بوكوفسكي بوعكة صحية حادّة، تبيّن بعد التشخيص أنها إصابةٌ بمرض السلّ. ولقد انتصر بوكوفسكي على السلّ بعد معركة طويلة، لكنه صارَ بعدَها أكثر ضعفاً وهشاشة، وبدتْ عليه أعراضُ كبر السنّ. ثم توالتْ أزماتُ بوكوفسكي الصحيّة في السنوات التالية، فأُصيب بسرطان الدم عام ١٩٩٣، قاوم المرضَ لمدة سنة كاملة، إلى أن توفي في ٩ آذار ١٩٩٤ عن عمر يناهز الرابعة والسبعين.

المترجم
النرويج ـ آشيم
١٣ آذار ٢٠١٦

تشارلز بوكوفسكي

هوليود

«ها نحن الآن نهبط في ملكوت الموت، روحي تتقيأ نفسها».

إن هذه العبارة تختزل موقف كاتب القاع الأمريكي تشارلز بوكوفسكي من طبقة عالم المال والشهرة المتمثلة في نموذجها الأقصى «هوليود». في هذه الأرض السردية يحط بنا بوكوفسكي ليحدثنا عن قصة قتال السينما والأدب، المال والشهرة. قصة كتابة سيناريو تورط في قبوله، فيقحمنا في عالم صناعة السينما ونحسبه عالما فارغا سخيفا وأشخاصه باهتين، تنزل عليهم الأموال من السماء ويصنعون أفلاما يصبحون على إثرها أثرياء ونجوما.

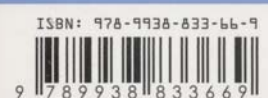
بهذه الأفكار التي نحملها جميعا دخل أيضا بوكوفسكي إلى هوليود ساخطا على من فيها هازئا بهم. وتبدأ سخرية الكاتب وهو يجوب شوارع هوليود النظيفة أكثر من اللازم بالأسماء الفخمة أكثر من اللازم ويلتقي بأفراد الطاقم الذي سيتفاوض معه على كتابة سيناريو فيلم «ذبابة الحانة» أو «زبون الحانة القارّ».

هكذا يقفز الكاتب المشرّد المعدم دفعةً واحدة إلى أعلى طبقات المجتمع الأمريكي، ويجالس تلك الوجوه الناعمة التي كان يراها من بعيد عبر الشاشات أو في الصحف والمجلات الفنية.

«جئنا نأخذ الغسيل».

هذه هي العبارة التي قالها في أول مواجهة له مع تلك الكائنات الرقيقة المخملية التي فتحت له الباب. وخرج من «هوليود» ناشرًا غسيلها على الملأ.

كمال الرياحي



ISBN: 978-9938-833-66-9

